

مجموعات النجوم كما تصورها الاقدمون

ففي أعلى الصورة « المرأة المسلسلة » Andromeda

وفي أسفلها فرساوس Perseus

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد السادس والثمانين

٢٧ شوال سنة ١٣٥٣

١ فبراير سنة ١٩٣٥

ارتقاء علم الفلك

وتأثيره في التفكير الحديث

الصورة الكونية الجديدة ومقتضياتها الفلسفية

في معرض «قرن التقدم» الذي انشئ في مدينة شيكاغو في السنة الماضية اقترح الاستاذ فرست Frost مدير مرصد ريكس سابقاً ، ان تضاء المصابيح الكهربائية في ساحات المعرض بواسطة شعاعة من نجم السماء الرامح. ولما كان سير الضوء من السماء الرامح الى الارض يستغرق نحو اربعين سنة ، فالشعاعة التي اضيئت بها المصابيح في معرض سنة ١٩٣٤ تكون قد صدرت من ذلك الكوكب حوالي سنة ١٨٩٢ وهي سنة معرض شيكاغو السابق ، فكانت بذلك صلة بين المعرضين استوقفت الانظار . ومما كان ادعى للعجب ان شعاعة من ضوء السيار زحل ، التقطت بواسطة تلسكوب في مدينة فلورنسا بايطاليا ، ونقلت نقلاً لاسلكياً الى شيكاغو فاستعملت في اضاءة مصابيح المعرض عند الاحتفال بيوم ماركوني فيه وذلك في ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٣ . هاتان الحادثتان تدلان دلالة واضحة على الصلة الوثيقة بين علمي الطبيعة والفلك

وعلماء اليوم يعترفون بوحدة العلم ، مع انهم يقسمونه الى قروع تسهلاً للبحث . وابلغ مثل على هذه الوحدة علماء الفلك والطبيعة وعلم الرياضيات المتصل بهما جميعاً اتصالاً اساسياً . فاي عالم يستطيع اليوم ان يرسم خطاً ويقول الى يمين هذا الخط ميدان علم الفلك والى يساره ميدان علم الطبيعة ؟ بل ان في الميدان المشترك بين العلمين تمت اعظم وجوه التقدم الحديث في كليهما

الصور الكونية الجديدة

فلننظر في علم الفلك . من المتعذر ان نتبع في مدى مقال واحد نشأة هذا العلم القديم وتطوره . ولكن قد يجدر بنا ان نبين الاتجاهات الجديدة في البحث الفلكي وتحولاتها واتساع نطاقها . فقد ظل علماء الفلك من اقدم العصور الى القرن الثامن عشر ، يوجهون كل عنايةهم او جلّهم الى النظام الشمسي . فكانت الارض اولاً في نظرهم مركز الكون . ثم حلت الشمس محل الارض في المركز . وكذلك انفق جهد اولئك العلماء في دراسة حركات السيارات ومواقعها واقدارها وما يتصل بها من توابع . وكان من الطبيعي ان يهمل درس النجوم . فالقدماء شاهدوها نقطاً مضيئة في القبة الزرقاء ، ولاحظوا انها ثابتة في مواقعها ولكنهم عجزوا عن الوصول اليها ، لان ادوات البحث الفلكي كانت تعوزهم . فلما استنبط التلسكوب اتجه الفكر اولاً الى فائدة استخدامه في دراسة الاجرام القريبة منا ، والى انتفاء هذه الفائدة من دراسة الاجرام البعيدة المعروفة باسم النجوم الثوابت . عند هذا الحد ظهر في ميدان العلوم الفلكية العلامة وليم هرشل . فقد كان هرشل بارعاً كلّ البراعة في صقل العدسات وبناء التلسكوبات . وكانت تحذوه نزعة قوية الى سبر رحاب الفضاء ومعرفة مدى الكون ، فحوّل عناية علماء الفلك من دراسة السيارات الى دراسة النجوم

وقد اتسع نظرنا في العهد الحديث حتى امتد الى ما وراء الحدود التي بلغها هرشل . ولكن هذا القول لا يعني اننا حللنا جميع المعضلات والمسائل الفلكية التي واجهها في عصره . بل في الواقع ان كشف الآراء الجديدة واستنباط الوسائل الجديدة للبحث والاستقصاء ، ارتدت بطائفة من الفلكيين من دراسة النجوم والسدم الى دراسة السيارات وما يدور حولها من مسائل كانت تهتم علماء الفلك الاقدمين . ولا يسع أحداً ان ينكر ان الشمس لا تزال في نظر علماء اليوم ، ميداناً من أهم ميادين البحوث الفلكية على الاطلاق

ومع اننا لا نزال نجهل كثيراً عن أمرتنا الفلكية الخاصة — النظام الشمسي بشمسهِ وسياراتهِ ونجمياته وأقماره — ومع ان العامة لا تزال تهتم بتوجيه السؤال الى الفلكيين عن سكنى السيارات وخاصة عن سكنى المريخ ، نقول انه مع ذلك تمتد حدود علم الفلك الحديث ، الى ما وراء نظامنا الشمسي ، بل الى ما وراء المجموعة النجمية التي وجه هرشل اليها الانظار ، وعكف على درسها هو ومن تلاه ، نعي المجرة

فوراء هذه المجموعة النجمية قطع من الكون المادي تعرف باسم السدم . وقد كانت من قبل تعرف باسم «السدم البيض» تمييزاً لها عن بعض سدم داخلة في بناء المجرة نفسها ، ولكن لون الضوء المنبعث منها ليس أبيض . وكان هرشل نفسه قد تبين بعض هذه السدم ، فدعاها باسم لا يزال يطلق عليها الى الآن — أي «الاكوان الجزرية» — لانه حسبها نظماً متفرقة من النجوم منثورة في

رحاب الفضاء كالجزائر في المحيط ، فكان في ذلك مصيباً . ولكنه حسبها اتباعاً لمجرتنا وفي هذا خطأ ، أو أن رأيه هذا يخالف على الأقل الرأي السائد الآن

ومما لا ريب فيه ان هذه الاكوان ، وعددها ألوف الألوف ، نظم مؤلفة من نجوم او هي سائرة في طريقها الى ان تكون كذلك . ودرس ضوءها بالمطياف (السبكتروسكوب) يدل على أنها شبيهة بمجرتنا ، فهي خليط من النجوم والطح السحابية (استعمال البتاني)

و نحن مدينون بجل ما نعرفه عن هذه السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا للتصوير الشمسي . فهي بعيدة عنا بعداً شاسعاً والضوء الواصل اليها من معظمها ضئيل لا يمكن تبينه الا بواسطة لوح التصوير الشمسي بعد تعريضه لضوئها مدة طويلة . ولذلك لم يستطع العلماء المحدثون ان يدرسوا درساً تفصيلياً الا ما كان قريباً منها . ولكننا نستطيع على كل حال ان نرتبها بحسب أشكالها ترتيباً متدرجاً يدل على اتجاه تطورها . فمنها كتل غازية كروية الشكل ، ومنها ما هو مسطح بعض التسطح ، ومنها ما هو شبيه بحبوب العدس . وهذا التدرج في التسطح يشبه الادوار التي تمر فيها كتلة كروية من الغاز كلما زادت سرعة دورانها على محورها . ولكن أغرب هذه السدم شكلاً هي السدم التي انطلقت من كل منها ذراعان في جهتين متقابلتين من النواة المركزية ، فأصبحت لولبية الشكل . وفي بعض السدم التي بلغت أقصى مراتب التطور تلاحظ كتل نجمية منفصل بعضها عن بعض شبيهة بعناقيد Clusters النجوم التي تشاهد في مجرتنا . وفي طائفة يسيرة منها ، تشاهد نقط فردة من الضوء هي في الواقع نجوم مستقلة ، مما يدل على ان تلك السدم التي ظهرت فيها هذه النجوم قد بلغت من مراتب التطور ما بلغت مجرتنا

وقد كان الظن في البدء متجهاً الى حسابان السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا ، أصغر حجماً من مجرتنا ، أو هي على الاكثر تماثلها حجماً ، وان كتلة كل سديم منها يبلغ على وجه التقريب الكتلة اللازمة لبناء ألفي مليون او ثلاثة آلاف مليون نجم . ولكن البحوث الحديثة اثبتت ان هذا الرأي في حاجة الى التنقيح وان تلك السدم اكبر جداً مما كان يُظن

هنا يحظر للباحث سؤال وجيه : هل مجرتنا سديم لوي ؟ كان الفلكي إيستون Easton اول من ذهب هذا المذهب . وجارته ثلثة العلماء في ذلك . ولكننا في الواقع لا نستطيع ان نتثبت من ذلك لاننا لا نستطيع ان نشاهد المجرة الا من نقطة في داخلها قريبة قريباً نسبياً من مركزها . وقد بين اورت Oort وغيره من البحات ان هذا السديم يدور حول مركز واقع في ناحية « الرامي » دوراناً شبيهاً بدوران السيارات حول الشمس ، وان اجزاء السديم القريبة من المركز أسرع دوراناً من الاجزاء البعيدة عنه ، وان الاجزاء التي تبعد عن المركز بعد شمسنا لا تتم دورتها الا في نحو ٢٠٠ مليون سنة فلنلتفت الآن الى ما يعرف عن ابعاد هذه السدم . فقد اشرنا في ما تقدم الى ظهور نجوم

فردة في صور بعض السدم اللولبية . ومن هذه النجوم ما يشرق اشراقاً عظيماً في اوقات دورية
نظيمة . وهذا يذكرنا طبعاً باشراق المنائر المشيدة على الشواطىء الصخرية ، اشراقاً دورياً كل بضعة دقائق
ثم ان هدي السفن . ونحن نعلم ان في مجرتنا نجوماً تشرق هذا الاشراق الدوري المتقطع . وهي تعرف
بالنجوم القيفاوية Cepheids^(١) . والذي يهمنا في هذا الشبه ، ان العلماء قد تبينوا علاقة وطيدة مطردة
بين الفترة المنقضية بين اشراق واشراق ، ولمعان النجم الحقيقي . فكلما زادت الفترة بين اشراق واشراق ،
دل ذلك على زيادة لمعان النجم . فاذا صح لنا ان نفرض وجود هذه العلاقة في النجوم المتغيرة في السدم
الخارجية تمكننا بالمقابلة بين لمعان النجم الحقيقي ولمعانه البادي لنا ، من معرفة بُعد النجم . ثم ان
علماء الفلك يستعينون بالنجوم الجديدة على تحديد بُعد السدم التي تظهر فيها . فاذا حددوا بُعد بعض
السدم استطاعوا ان يحددوا بعد الباقي ، لأن النظرية السائدة الآن هي ان هذه السدم متماثلة حجماً ،
فالفرق في احجامها البادية لنا سببه اختلاف بُعدها عنا . ويؤخذ من البحوث الحديثة القائمة على هذه
الاسس ان اقرب السدم الخارجية الينا ، سديم المرأة المسلسلة Andromeda وسديم المثلث Triangulum ،
وكل منها يبعد عن مجرتنا نحو مليون سنة ضوئية (السنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء
في خلال سنة سائراً بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية) . وابتعد ما عرف من هذه السدم حتى الآن
يبعد ١٥٠ مليون سنة ضوئية . اي ١٥٠ ضعف بعد سديم المرأة المسلسلة عنا . والمتوقع انه متى
تم صنع التلسكوب الجديد الذي قطر مرآته ٢٠٠ بوصة (قطر مرآة اكبر تلسكوب بني حتى الآن
١٠٠ بوصة وهو في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا) تمكن الباحثون من الكشف عن سدم تبعد
عنا نحو ٣٠٠ مليون سنة ضوئية

يمجدربنا الآن ان نلتفت الى ناحية تبعث على الدهشة في طبيعة البناء الكوني . ذلك ان العلماء
المحدثين وجدوا ان السدم الخارجية عن نطاق مجرتنا آخذة في الابتعاد عنا ، وفي الابتعاد بعضها عن
بعض كذلك بسرعات عظيمة . وان أبعدنا عنا اسرعها ابتعاداً . أما الحقيقة المشاهدة التي بني عليها هذا
الرأي ، فهي حيود الخطوط في طيوف هذه السدم نحو اللون الاحمر . وهذا الحيود يشبهه بصغير
قطار آخذ في الابتعاد عنا ونحن وقوف في المحطة . فأمواج صغيره ، وهو آخذ في الابتعاد يميل
الى الطول . كذلك حيود الخطوط في الطيف نحو الاحمر يدل على أن امواج الضوء الواصلة الينا
من هذه السدم يميل الى الطول لان أمواج اللون الاحمر أطول من امواج الالوان التي قبله في الطيف
اي البرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي . ولكن سرعة ابتعاد هذه السدم ، التي
بنيت على هذه الحقيقة المشاهدة — حقيقة حيود الخطوط الطيفية نحو الأحمر — عظيمة جداً

(١) دعيت كذلك لانها شبيهة بالنجم المعروف باسم « ذلأ قيفاوي » وهو اشهر هذا العراز من النجوم

وتبلغ الوف الاميال في الثانية . وهذا يعني ان الكون آخذ في التمدد والاتساع بسرعة عظيمة .
فاذا مضى على ذلك نحو ١٣٠٠ مليون سنة تضاعف قطره

لا بهمننا هنا ان ننظر في أقوال مؤيدي هذا الرأي واقوال معارضيه . فالكون في نظرية
اينشتين الاصلية متصف بالاستقرار وبالتحدب فهو كالكرة غير محدود ولكن له نهاية ، فتحذب
الكون يمكن تشبيهه بتحدب فقاعة من الصابون

ولكن ثمة من العلماء من لا يسلّم بأن التحدب صفة الكون ، وان ما نعرفه الآن لا يسوّغ لنا ان
نحكم حكماً قاصداً في الموضوع . فقد يكون الكون اقليدياً بعد كل ما قيل . وفي طليعة هؤلاء
العلماء الاستاذ ملن Milne الانكليزي وقد بنى على هذا الرأي نظرية جديدة . ولكن يظهر ان تفرّق
السدّم أمر لا شك فيه وقد أثبت الاب ليجتر ان كوناً مبنياً بحسب قواعد النظرية النسبية ، يقتضي
هذا التفرّق . وعليه فالكون سائر الآن في سبيل التشتت من حالته الاولى اذ كان حافلاً بالمادة
الكثيفة الى حالة جديدة تلتف فيها المادة المائلة الفضاء بتشتتها حتى يصبح كأنه والفراغ سواً .
وهذا ما بيّنه العالم ده ستر الهولندي قبل وفاته من عهد قريب

فلننظر الآن في بعض الآراء الجديدة التي تقوم عليها نظرتنا الكونية الحديثة . ففي منتصف
القرن الماضي أخرجت نظرية التطور وتأيدت اجمالاً بالبحث تأييداً قاطعاً للرب في صحتها ، وقد
أصابها بعض التعديل ككل نظرية جديدة ، وكان معظم هذا التعديل في ميدان الفلك . فنظرية
لابلاس السديمية لم تثبت على البحث مع ان السرجيمز جينز قد بين ان النظرية السديمية هذه قد تصدق
على تطور السدم الخارجية في بعض مراتبه . ولكن ثمة وجوه أخرى في التطور الكوني ، نالها
التغيير . فالتطور بحسب قول الفيلسوف سبنسر هو التحول من البسيط الى المركب ، ومن المتماثل
غير المستقر الى المختلف المستقر

ولكن هذا لا يتفق على ما يظهر اتفاقاً دقيقاً مع الحقائق المعروفة اليوم . فلا يمكن ان يقال
ان التطور الكوني سائر في اتجاه واحد ، كسير قافلة السيارات في شارع وحيد الاتجاه ، لان كثيراً
من الافعال الكونية له وجهان . فالشموس تبني من المادة الغازية المشتتة التي تتألف منها السدم .
والعناصر الثقيلة تبني في الراجح من ذرات أبسط العناصر نعني الايدروجين . ولكن يقابل ذلك
انحلال العناصر المشعة الثقيلة الى ذرات عنصر أبسط منها . وثمة كذلك انطلاق مقادير عظيمة من
الطاقة من الشموس لا بد ان يكون له أثر في تغيير بناء الكون كما نعرفه

خذ مثلاً على ذلك شمسنا . فقد انقضت عليها عصور متطاولة وهي تسكب الحرارة والضوء في
الفضاء . ونصيب الارض منهما لا يزيد على جزء من الف مليون جزء من مقدارها الاصيل . فكيف
نعلل مقدرتها على المضي في هذا العمل مدى هذه العصور الطويلة ، وكيف تستطيع ان تمضي فيه
في العصور المقبلة . قد يكون بعض الطاقة في الكون ناشئاً من بناء ذرات العناصر الثقيلة من

ذرات الايدروجين . وبعضها من انحلال العناصر المشعة الثقيلة الى عناصر أبسط منها . وبعضها ناشئ من تقلص أقطار الشمس على أثر انطلاق مقادير كبيرة من طاقتها . ولكن السر جيمز جيزر يذهب الى ان معظم الطاقة المنطلقة ناشئة من فناء المادة بتحويلها الى إشعاع . والمعروف ان شمسنا تفقد ٤ ملايين طن من كتلتها كل ثانية بالإشعاع . علل هذا الفعل كما تشاء فلا يسعك الا أن تقول بأن الشمس لا تستطيع ان تمضي في هذا الى الابد

وهذا يقضي بنا الى الناموس الثاني في علم الحركة الحرارية (الترموديناميكس) ومؤدى هذا الناموس ان كل عمل (بالمعنى الطبيعي) يقتضي انفاق قدر من الطاقة فتعود هذه الطاقة غير صالحة لاحداث عمل جديد . او بكلمة اخرى ان مقدار الطاقة في الكون لا يتغير ولكن الطاقة الصالحة للعمل تتحول الى طاقة غير صالحة للعمل . فحين يتحول آخر قدر من الطاقة الصالحة للعمل الى طاقة غير صالحة له تحين نهاية الكون

واذن فنحن لا نعدو الحقيقة اذا شبهنا اتجاه التطور الكوني بسير قافلة السيارات في شارع وحيد الاتجاه . ولكن الاتجاه في التطور الكوني هو عكس ما كنا نعتقد . اما فكرة سير الكون الى نهاية تعجز فيها طاقته على احداث الافعال الكونية فليست جديدة . ففي كتاب وضعه الدكتور فيسمن سنة ١٨٩٩ ودعاه « التقدم الحديث في علم الفلك » قال في فصل « حياة النجم » : « واذ تتوالى العصور يضعف ما في الكون من الطاقة الفعالة . فاذا تملينا ما يقوله العلم الطبيعي في افعال الطبيعة لم نجد ندحة عن تصور الكون في نهايته مجموعة من المادة الهامدة تذكاراً لعوالم الشمس » نعم ان نهاية الكون على هذا الوجه لا يتوقعها العلماء قبل انقضاء الوف الملايين من السنين . ولكنها مع ذلك ليست مما يستسيغه طائفة من العلماء والفلاسفة . لذلك نرى ملكن يذهب الى ان الاشعة الكونية تدل على تولد العناصر الثقيلة في رحاب الفضاء من ذرات العناصر الخفيفة وخاصة الايدروجين وان الايدروجين يتولد من الطاقة ، فالكون في نظره يستبدى حيث يفتهي او يولد ولادة جديدة . ولكن هذا الرأي لم يفز بتأييد علماء الطبيعة حتى الآن

والتي الدكتور طولمن Tolman خطبة امام الجمعيتين الرياضية والطبيعية باميركا في ديسمبر سنة ١٩٣٢ ذهب فيها الى ان علم الترموديناميكس من الناحية النسبية يبيح لنا ان نتصور الكون يتمدد ثم يتقلص في ادوار طويلة متعاقبة وانه في تمدده تضعف طاقته ، وفي تقلصه تعود فتقوى . ولكن الدكتور طولمن حذر سامعيه من خطأ التسليم بهذا الرأي النظري على انه وصف للواقع بعض مقتضياتها الفلسفية

نقف الآن عن الماضي في وصف المكتشفات الفلكية الحديثة ، لنحاول تبين تأثير المعارف الفلكية الجديدة في التفكير الحديث . وقد يتردد الكاتب في الاقدام على هذا العمل . ولكن

التقارب بين العلم والفلسفة من اظهر الميزات التي يتصف بها العهد الحديث . فقد كان من المحتوم ان ينفصل العلم عن الفلسفة في البدء . ولولا انفصاله لما اتيح له ان يسير في معارج الرقي . لان خضوع الفلسفة لاقوال الائمة يضيق الخناق على العلم . وكان لا بدّ للعلم من التجربة والامتحان رائدين له في طريقه الجديدة . لذلك نحن نجل أولئك الرواد من العلماء الذين اقدموا اولاً على تنكسب السبيل المطروق فاوذي بعضهم وعذب ، ولكنهم تعاقبوا ابطالاً في الكفاح فاحرزوا حق تحرر العلم من قيوده . ومع اننا نعتز ببعض نقائص الفلسفة في العصور المتوسطة يجب ان نعتز كذلك بأن رجالها وضعوا قواعد التفكير السليم واصوله . فالمنطق والترتيب المنطقي دم العلم وعصبه . واذا كان فلاسفة العصور المتوسطة قد حالوا دون تقدم العلوم ، فانهم ولا ريب ابدعوا الشرائط الفكرية التي جعلت ذلك التقدم مستطاعاً . وهما نحن أولاء ، زى العلم يقترب من الفلسفة في عهدنا . وغدت الفلسفة توأخي العلم . ففلاسفتنا علماء ، وبعض علمائنا فلاسفة . وعلى عناق العلم بالفلسفة يعلّق أملنا في الوصول الى الحقيقة

فلننظر الآن في ناحية أو ناحيتين من نواحي التفكير الحديث ، محاولين ان نقيّن تأثير المكتشفات الفلكية والطبيعية الحديث فيها

كانت عقيدة العلماء حتى أواخر القرن الماضي ، متسمة بسمّة « المادية » . فالمادة كانت مؤلفة من دقائق صغيرة صلبة ، قائمة في كون جميع صلاته وقواه مطلقة تسيطر عليها نواميس طبيعية لا تحيد بمئة ولا يسرة . ولكن نظريتي « النسبية » و « المقدار » (الكونم) قد عدلتنا معتقداتنا تعديلاً أساسياً . حتى الاثير الذي كان في نظر علماء القرن الماضي ، متخللاً جميع الاجسام والرحاب ، قد أصبح صورة ذهنية مجردة او هو ليس شيئاً على الاطلاق . وعادت ذرات ديمقريطس ودلتن الصلبة ، كتلاً او مجموعات من الشحنات الكهربائية ، وغدت هذه الشحنات لا تعدو كونها تشويّهات أو تعديلات في « الفضاء — الزمن » . ثم ان مقاييس الطول والزمن التي كنّا نحسبها مطلقة لا تتغير أمت تختلف باختلاف المشاهد وحركته . فالمادية بمعناها القديم قد انهارت ، ولا رجعى لها كفلسفة للطبيعة الا اذا بدلنا معنى لفظها تبديلاً أساسياً . واذا قيل ان المادة لا تزال مادة ، مهما يختلف نظرنا اليها ، قلنا ان المادة نفسها قد أصبحت بعد قيام المذهب الكهربائي في بنائها ، غير ما كنّا نحسبها . فالذرات المادية ليست الا شحنات كهربائية دقيقة بينها فراغ عظيم

ومن الآراء القديمة التي لا تزال تكافح في سبيل البقاء ، الرأي القائل بان الكون آلة حركت في العصور المتغلغلة في القدم وانها سائرة الى خاتمتها المحتومة . لذلك حاول علماء القرن التاسع عشر ان يعدلوا الطبيعة وافعالها بنواميس الميكانيكا . وقد قال احد امرأهم لورد كلفن في ذلك : « اني لا اكتفي حتى استطيع ان اصنع مثلاً ميكانيكياً لرأي ما . فاذا استطعت ان افعل ذلك استطعت ان افهمه » . ولكن الاعتقاد في الجبرية المطلقة rigid determinism قد ضعف بعد المكتشفات

الحديثة في الاشعاع وتصرف الكهرباء داخل الذرات . وهذا حمل الاستاذ هيزنبرج على اخراج مبدأ « عدم الثابت » ومؤداه أنه يستحيل تعيين موقع كهر وسرعته في آن واحد . هذه المكتشفات والمبادئ الجديدة ، يراها العلماء المحدثون مما يتعذر التوفيق بينه وبين الرأي الميكانيكي او السببية المطلقة . وهذا افضى الى تغيير في نظرنا الى النواميس . فاننا عدنا لا نحسبها مطلقة ، وانما تصف وصفاً مطلقاً نواحي الطبيعة ، بل هي في نظرنا الآن لا تعدو كونها ، احتمالات كبيرة او نتائج احصائية غالبية . وانما يجب ان نقول في هذا الصدد ان اينشتين وبلانك لا يسمان بهذا الرأي كل التسليم . ويذهبان الى ان ريننا في السببية المطلقة سببها جهلنا . ولبعض كبار العلماء اقوال مأثورة في هذا الصدد منها قول السر جيمس جينز : « ان تيسار المعرفة متعجه الى حقيقة غير ميكانيكية » وقد افضت هذه المكتشفات والآراء الى نشوء فلسفة جديدة تعرف بالفلسفة « الكلية » Holism زعيمها الاستاذ هويتهد والجنرال سمطس وفكرتها الاساسية ان الكل ليس مجموعة اجزائه فقط بل ان لتنظيم organisation هذه الاجزاء شأناً كل الشأن في الصفات التي يتصف بها « الكل »

ولا يسعنا ان نختم هذا البحث من دون ان نشير ، الى تحسُّن العلاقة بين العلم والدين . فرجال الدين اليوم ارحب صدرأ وأكثر استعداداً لدراسة الآراء والحقائق الجديدة ، ورجال العلم غدواً اقل تحكماً وأضعف ثقة بأحكامهم الشاملة . ان مفكري العصر الحديث يعترفون بان العلم والدين يمثلان ناحيتين مختلفتين ، غير متناقضتين من نواحي العقل البشري ، ويذهبون الى ان الواجب يقضي على العلم ورجاله بوجوب المضي في البحث عن الحقيقة غير مقيدين بالمذاهب الفلسفية والعقائد الدينية بيد ان في الحياة اعتبارات روحية لا يستطيع العلم ان يزنها وقيسها بموازينه ومقاييسه ، تحملنا على التشوق الى المثل العليا ، والنزوع الى الجمال والحق والصالح ، فتتصل عن طريقها بذلك العقل المبدع . قال الاستاذ اينشتين : « يرتفع بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضار بفكرتهم الدينية . الى مرتبة عالية من الشعور الديني ادعوه «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسُّ به . لانه لا يشتمل على صورة لله صنعت على مثال الانسان . ولكن من يحسُّ به يدرك بطلان الرغبات الزائلة والاغراض الانسانية الصغيرة ، ونبل النظام العجيب الذي يكشف عنه في عالم الطبيعة وعالم الفكر

« فكيف نستطيع ان ننقل هذا الشعور الديني من إنسان الى آخر اذا كان لا يمكننا ان نصور لله صورة حسية ما ولا يأذن بطبيعته في بناء فقه ديني عليه ؟ ان أسمى وظائف العلم والفن في نظري هي ان تثير هذا الشعور وتغذيه وتحفظه متقدماً في صدور الناس
«ومن هنا نصل الى نظر جديد في علاقة العلم بالدين يختلف كل الاختلاف عن النظر المألوف . ولقد صدق من قال بأن الناس المتدينين حقاً في هذا العصر هم رجال البحث العلمي »

ميجيل دي أونامونو

Miguel de Unamuno

لرئيسة « مى »

في أبريل ١٩٢٥ بباريس اصدر الكاتب الاسباني المرحوم فيثنتي فلاسكو ايثانيث كتابه عن الجمهورية الاسبانية المرجوة الذي احدث زلزالاً في دوائر الادب والسياسة . نختمة هذه الجملة التي نحيل ان ابناء وطنه سيتخذونها للحكم عليه في المستقبل . قال :

« بلا وجل انظر الى المستقبل لانه سيقول عني : كان في وسعه ان يظل على الهامش ولكنه خاض المعركة رغم اقتناعه بأنه لن يرج شيئاً بل يخسر كثيراً . انضم غير متردد الى ميجيل دي أونامونو وادواردو اورتيجا المجاهدين ببسالة في سبيل الكرامة الاسبانية قبل تحقيقها ودون تبصر في هل كان صحبه في الجهاد قليلين او كثيرين . اعطى البقية الباقية من حياته لاهياء اسبانيا ، لنصرة الجمهورية ، ولم يكن له الا طمع واحد : ان يشغل المكان الاول المتطرف البارز في خط الهجوم حيث يتلقى الضربات الاشد هولا اذ تنقض عليه محكمة قاضية ... » (١)

مجرد ذكر أونامونو في مستند خطير كهذا يلخص تاريخ نشاطه في سياسة اسبانيا خلال الاعوام العشرة الاخيرة . وهو تاريخ كنت اود تجاوزه لاهتمامي بالشخصيات الادبية والفنية والفكرية وحدها في هذه الدراسات ولا يغفالي الحركات السياسية عموماً ، على اهميتها . غير ان العمل السيامي كان من التمازج بحياة أونامونو الادبية - ومن الانفصال عنها في آن واحد - بحيث يتختم تسجيله لتتكشف لنا ناحية جد جوهرية من تلك الشخصية الفذة

(١) كتاب "Por España y contra el Rey" Vicente Blasco Ibañez

ان هذا الرجل صاحب المكانة الرفيعة جداً في العالم الادبي الدولي ، ظلّ اعواماً طويلة مديراً لجامعة سلامنكا الشهيرة باسبانيا يدرس فيها اللغة اليونانية القديمة وعلم المقارنة بين اصول اللغتين اللاتينية والاسبانية ، ويصدر الى جانب ذلك الكتب والابحاث والدراسات والتأليف في شتى الموضوعات. الاّ انه ، من عزلته العلمية والادبية ، انبرى يعارض ديكتاتورية بريمو دي ريفيرا وتزعم حركة سياسية عنيفة ضد ذلك النظام مما عرّضه لغضب اولي الشأن يومئذ فأخرج من وطنه الى المنفى ... المنفى القريب الجليل في جزر كاناريا وفي هاندي الفرنسية عند تخوم اسبانيا ، يقول خصومه السياسيون وفي المنفى ارتبط بايقانيث بروابط الصداقة ، على ما بين المزاجين من شديد تغاير واختلاف. فأونامونو كله روح وعواطف وانفعال نبيل ، في حين ايقانيث كله جسد وحواس وشهوة مضطربة. اولهما الفكر الفلسفي الادبي الشعري جميعاً تصفّى وتكرّر وتلطّف في شذوذ منطقي (انصح الوصف) خاص وعمق بعيد وعلوّ خارق . والاخر هو عاصفة المغامرة في معامع الارتباك والجلبة وفي مشاكل العشق الذي يتقدّ جراً ويقطر دماً وسط ملاعب مصارعة الثيران والمشاهد الدموية العنيفة المحيية الى الجماهير . وقد كتب ايقانيث كثيراً — وكان كاتباً قديراً خلافاً — على ان روايته المعروفة عن مصارعة الثيران وعن حياة أحد المصارعين وغرامياته ، انما هي وصف بليغ لمزاج الكاتب نفسه (١) . بيد ان الفوارق بين مزاجي الرجلين اختلفت حيناً في النضال السياسي لغاية واحدة وما انهارت الديكتاتورية فخرج دي ريفيرا يلتمس طريقه الى المنفى حتى انقلب أونامونو يلتمس طريقه من المنفى الى الوطن . فغادر هاندي سيراً على الاقدام مع بعض صحبه السياسيين وعانقه حاكم المدينة مودعاً باسم الحكومة الفرنسية . ومشى في مظاهرة عظيمة لتتلقاه بلاده بحفاوة اعظم وسط الالوية الحمر وصدح الموسيقىات ودوي الخطب والانشيد الملهبة وهرج الجموع الزاخرة وتصفيقها . «الكرنفال الديمقراطي بمخافيره عجّ حول فيلسوف سلامنكا» — على نحو وصف بعض الكتاب الاوربيين الذين لا يغتفرون لاونامونو آراءه الديمقراطية الجمهورية

اعلنت الجمهورية في اسبانيا سنة ١٩٣١ فاذا بأونامونو يصبح عضواً بمجلس النواب ويتولى الاشراف على تنظيم المعارف العمومية . وارتفع صوته عالياً في عديد المسائل الوطنية وبخاصة ضد الحركات الانفصالية في الاقاليم مقاوماً مطالبه قطلونيا بنظام اللامركزية ، للاحتفاظ بمبدأ الوحدة القومية. وشاع في الغرب ان للثورة الاسبانية « فولتيرها » الذي يناضل ويحارب بضربات لفظية متفرقة تتغذى بالهكم العلمي البريء والنكتة الفلسفية الساذجة في الظاهر وانه لا يحامل في نكته احد حتى

(١) رواية "Sangre y Arena" وقد ترجمت الى الفرنسية بعنوان « Les Arènes Sanglantes »

ولا المذهب السياسي الذي يؤيده وهو فيه أحد الذين يمثلون الشعب . ومن ذلك انه يوم اجتماع الكورتس الجمهوري لأول مرة وصف النواب بأنهم « أطفال باحذية جديدة » ...

اما المقالات التي ما فتئ ينشرها في صحيفة إل سول (El Sol) بمديريه ، وقد طالعت بعضها منذ أيام ، فهي تحف في فن الانشاء وفي تنسيق الافكار المفاجئة ، ويصفونها بالشاذة المحيرة لأنها لا تستقر على اساس من الاسس التي ينعتها اهل السياسة بالوطيدة ، ففيها يبدو أونامونو جمهورياً ومونوقراطياً ، ديمقراطياً وراستقراطياً ، متديناً وعلماًانياً ، متعبداً وملحداً في آن واحد . ولو اراد هذا الرجل لكيف بلاده كالعجينة بيده . ولكنه اصدق نزعة فنية وأعرف بالطبيعة الانسانية واوفر حرية روحية من ان يريد . وأونامونو الشيخ الذي يناهز الآن السبعين ، طفل في تعرضه لجميع المؤثرات الروحية وكله معارضات ومناقضات ومغالطات في نظر الذين يسجنون الحياة على ورقة في بنود التشريع

الثورة اسبانيا فولتيرها ؟ ان أونامونو اصدق موهبة من فولتير وأبعد حكمة واوجع شعوراً واصفى جوهرآ لانه أكثر تطهارة واقل خبثاً . لا ينقصه من فولتير سخريته وتهكمه ودعابته ، ولكن ليس فيه شيء من مراوغته وتلونه ودعائه

انه رجل قلق يتعذب . وإيمانه الحي بالحياة لا يعصمه من آلام الارتباب ، وحبه للروح وللجمال لا يحول دون اعترافه بأن المثل العليا تنهار احياناً فاذا بها اجزاء محطمة تتعثر في الثرى عند موطن القدم ...

بعد قيام النظام السياسي الذي ايدته على انقاض النظام الذي دحره وسط مظاهر الحماسة والاكبار من مواطنيه ومن الغرباء المؤيدين ، كتب كلمة ... فقال : « يالجوعي الى الانفراد » (Che hambre de solitud) . وهذه الكلمة وحدها تصف الرجل كله . اية علاقة يمكن ان توجد بين الروح المعاني الذي يسبق عصره الى الادراك ويتجوهر فيه نكال جميع الازمان وجميع الاجيال ، وبين صخب الفرح في الجماهير وتغلب نظام سياسي على نظام سياسي ؟ ان صاحب الفلنسة العلمية الكبرى في جامعة سلامنكا ، الاديب السجين في برج من البلور ، الحكيم المنفي عن بهجات الحياة اليومية العادية ، الشاعر الذي يعرف كيف يبذل من الدمع عوالم واكواناً — انه لا أكثر عند الحياة مطالب وأعسر رغبات وأبعد مقتضيات من ان يتعزى بالشهرة الرخيصة ويتغذى بمظاهر النجاح في طغيان العاطفة الوطنية . أهو يغالط ضميره وينكر وجدانه ويسم منه باستسلامه لما لا يتفق واقتناعه الصميم — كما يتهمه منافسوه ؟ ولكن اين هو اقتناعه الصميم ؟ أهو يعشق الشذوذ للشذوذ نفسه — كما ينهونه — لاعباً بالآراء والافكار لعب القطمع الفأر فيقبض عليها بقوة ليفرط بها في سهولة ثم يعود بحري وراءها يداعبها وعندما لا ينتظر ذلك احد ، يرمي بها ليأخذ بما يناقضها على خط مستقيم ؟

يلوح لي من كتابات أونامونو أنه يعالج شتيت التجارب والاختبارات علّه يهتدي الى الناحية التي يجد عندها الراحة لنفسه والمنفعة المضمونة للشعوب وللأفراد. هنيئاً للذين يتشبتون بمذهب أو نظام فيعلنونه الأمثل والأصلح لسعادة العالمين ! اما أونامونو فأرحب من ذلك فكراً أو أكثر اخلاصاً ، او اقل تفافاً ، او اصدق تمكناً من صميم الحياة . . . وقلق روحه الرحبة انما هو قلق الاجيال الجديدة في هذا العصري وفي جميع العصور . انه يدرك استحالة التوفيق بين المبادئ المحبوبة الموروثة وبين الوقائع والمقتضيات المفروضة . اكثر من اي أحد سواه هو يدرك ان تطبيق الحوادث على المبادئ غير ميسور وهو مع ذلك لا يدري كيف يتفلسف من ربة الحوادث ليتحصن في استقامة المبادئ . والنفاق الذي يسوي بين جميع الأمور معلناً اشياء بينا هو يحقق أشياء أخرى ليس من شيمته ولا هو يحدق فيه وهو ، بلهجة الدعابة ، يعلن احتقاره للأخذين به

وهو بعد ذو رأي آخر في الرقي . إنه يمقت الكلمات التي يذيعها هذا العصر عنواناً للتقدم ويصارع بمقته دون مواربة أو مداورة . فيقول :

« عليّ قبل كل شيء ان أعلن اني كلما أعمت في التفكير اكتشفت في نفسي كراهة عميقة لما يعتبرونه مبدأً قائداً للروح الأوربي الحديث ورائداً للرشاد العالمي الذي يفرضون اليوم علينا زاناته وأنظمتها . وثمت أمران يذكران كثيراً ، هما العلم والحياة . وعليّ ان اعترف بأن هذه وذاك إليّ بغيضان (Antipáticos) . ليس من الضروري تعريف العلم الذي ينشرونه ليفيلنا فكرة منطقية واكثر انطباقاً على الكون . عندما كنت من أنصار سبنسر كنت أظن نفسي شغوفاً بالعلم ولكنني اكتشفت خطأي ، كخطأ الذين يظنون انهم سعداء وهم ليسوا بسعداء . لم أشغف يوماً بالعلم ، بل كنت أبحث دائماً عن شيء وراء العلم . وعندما حاولت تقطيع خيوط النسبية في العلم لأجتلي حقيقة لم ألت إلا إلى منطقة « إني أجهل » . وعندئذ أدركت ان العلم بعث في دائماً الملل . قد يسألني سائل بماذا أنت تعارض العلم ؟ وقد أجيب : أطارضه بالجهل ، ولكن هذا غير مؤكد . وقد أقول مع ملك أورشليم ابن داود ان الذي يجني علماً يجني ألماً وان النهاية الواحدة تفتظر العالم كما تفتظر الجاهل ، ولكن الامر ليس هو هذا . لست في حاجة إلى ابتكار لفظة لأقول ماهي الحكمة (Sabiduria) ، ولكن هل هي تعارض العلم ؟ إني بدافع الاخلاص لخيالي الشارد تقودني شهوتي الروحية ويستعني نفوري العميق وانجذابي الصميم ، أجيب : أجل ، الحكمة تعارض العلم . أجل ، العلم ينزع الحكمة من البشر ليركهم عادة اشباحاً مثقلة بالمعارف والمحفوظات ...

« أما الشيء الآخر الذي يذكرونه في كل حين فهو الحياة . وهذه يسهل الاهتداء الى ما يعارضها ، وهو الموت . غاية العلم الحياة ، وغاية الحكمة الموت . العلم يقول « لا بد من الحياة » ، فيبحث عن

الوسائل لإزالة الحياة وإيثارها وتيسيرها وتوسيعها وتخفيفها وتلطيفها . والحكمة تقول « لا بد من الموت » ، فتبحث عن جميع الوسائل التي تهيب للموت كما ينبغي . يقول اسپينوزا « الانسان الحر هو الذي أقل ما يفكر في الموت ، وحكمته إنما هي تأمل لا في الموت ولكن في الحياة » . وأنا أقول ان الحكمة في مثل تلك الحال لا تكون حكمة ، بل هي العلم . ويكون صاحبها الانسان الذي تخلص من الغم المطلق (*suprema angustia*) ، من القلق الدائم ، وتحرر من نظرة أبي الهول ، أي الانسان الذي ليس بانسان وهو المثل الأعلى للأوربي الحديث ... وهانحن اولاء نبلغ الآن فكرة بغضة إلى كفكرة العلم والحياة ، وهي فكرة الحرية . إذ ليس من حرية حقة إلا بالموت

« وما هو الغرض من كل ذلك ؟ عن أي شيء يبحثون وإلى أي هدف يرمي أولئك المتشبهون بالعلم وبالحياة وبالحرية ؟ فيديرون ظهورهم للحكمة والموت مدركين أو غير مدركين ؟ إنهم يبحثون عن السعادة . ذاك الذي نسميه الأوربي الجديد يقبل على العالم باحثاً عن السعادة لنفسه وللآخرين ظناً منه ان على الانسان ان يسعى ليكون سعيداً . وهذا مبدأ لا أستطيع أن أقره . وسأطرح عليكم في هذه الاعترافات بقضية تعسفية لا أني لا أملك اثباتها بالمنطق ولأنها تفرضها علي عاطفة قلبي لا تفكير عقلي . وهذه القضية هي : إما السعادة وإما الحب ! فإذا طلبت الواحد فعليك ان تتنازل عن الأخرى . لان الحب يقضي على السعادة والسعادة تقضي على الحب . . . وبيان هذا وتفسيره تجده عند أهل الروحانية منا وعند فلاسفتنا الجديرين بالاعجاب الذين شعروا — ولم يفكروا — بالحب والسعادة فأوجدوا كلمات « الألم اللذيذ » (*dolore saporoso*) و « أموت لاني لا أموت » ^(١) وغير ذلك مما ينم على عمق هذه العواطف . . . »

في كل ما كتبه وحلجته من موضوعات وأقاصيص وبحاث وروايات ومسرحيات وأشعار ، يتجلى أونامونو ذا عبقرية عالية التحليق متعددة الوجوه متوازية القوى في شتى النواحي . إنه بارع مبدع عالماً ومفكراً وناقداً ومدرساً ومحاضراً ومؤلفاً وأديباً وشاعراً وراويّاً . على ان أهم دراماته هي فيديرا Fedra وأحب كتبه الى جماهير المثقفين في العالم كتابه عن « حاسة التفجع في الحياة » (*Sentimiento tragico en la Vida*) ، وكتاب « الحقائق المتعسفة » الذي اقتطفنا منه نبذة في الصفحات السالفة . أما الكتاب الذي أذاع شهرته منذ سنة ١٩٠٥ فترجم الى أكثر اللغات الحية وفرض أونامونو على عالم الآداب العالمية كشخصية فذة فهو كتابه عن « دون كيخوتي وسانتشو »

(١) « Muero porchè no muero » بيت شهر من نشيد ديني للقديسة تريزيا الامبارنية

(Vida de Don Quijote y Sancho) ومعلوم ان خالق دون كيخوتي وسانتشوهو الاديب الاسباني العظيم سرفانتس Cervantès

وأما كتابه « اسبانيا ضد اوربا » فهو ذو وطنية بارعة متلظية منطقية في شذوذها ، حمل فيه على الاساليب الاوربية الحديثة و« مكنزتها » للحياة حتى لتجعلها ما كينة عظيمة تدور بمختلف الادوات والآلات فتقضي بنظامها الآلي على كل ما في الانسان من بداهة وثروة وخصوبة وشعور. ودافع عن المزاج الاسباني منكرآ على الثقافة الاوربية تسميمه وتشويهه ومسخه لتجعله على صورتها ومثالها ، وطالب للفطرة الاسبانية بالبقاء على ما هي فيه من عيوب ونقائص وجهل حتي وعنجهية. فقال فيما قال : « قرأت اخيراً لكاتب مواطن مقالاً حمل فيه على اسبانيا لانها « بلد كئيب » ومضى يشرح . . « جميع منتوجاتنا الادبية والمحسوسة صلبة ، جافة ، مزعجة . النبيذ كثيف ، واللحم ردي ، والصحف سخيفة مملّة . لست أدري أية مصيبة داهمت أدبنا لتجعله حزيناً كما هو . ومن أكاب الامور في اسبانيا اننا نحن الاسبان لا نستطيع ان نكون اهل زهو ورشاقة . . »

« هذا ما يقوله پيو باروخا ^(١) . اما في نظري أنا فأكثر الامور كآبة أن نصبح اهل طيش وزهو ، إذ تفقد عندئذ صفة الاسبانية فينا دون ان نصبح حتى اوربيين . وعندئذ يتحتم ان نتنازل عن تعزيتنا الوحيدة وعن مجدنا الوحيد المتلخص في كوننا لا نستطيع ان نكون اهل زهو ورشاقة . قد نتمكن عندئذ من ان نزوي عن ظهر قلب محفوظات جميع الكتب التي ينشرون بها العلم ، غير اننا نرتد الى حالة يستحيل عندها ان نتمكن من الحكمة . عندئذ قد يصبح نبيلنا أصفى ، وزيتنا مكرراً ، ومحارنا أجود ولكننا في نفس الوقت نمسي غير جديرين بمخلق دون كيخوتي جديد او ايجاد مصوّر مثل فيلاسكيث وغيرهما من الذين لا يوجدون الا في جو كهذا الجو » ويختم باروخا قائلاً : « يا للبلد الكئيب الذي يفكرون فيه في كل شيء إلا في الحياة ! » . وأنا أعارضه هاتفاً : « يا للبلاد الاوربية الحديثة التاعسة التي لا يكتب أهلها الا ليفكروا في الحياة ! وحيث الفكرة السائدة عن الحياة تنسي الناس انهم سيفقدون الحياة يوماً ! »

« ان الغرباء لا يدركون منا إلا الشيء الذي لا يجرح مزاجهم ، متفقاً والفكرة التي يكوّنونها عنا ، وهي دائماً سطحية . ونحن التعماء نصدق هذا الغرور المضلل ونتنظر من الخارج تصديق اولئك الذين لا يدركوننا الا قليلاً ، ولو أدركونا تماماً ما استطاعوا ان يفهمونا . وحيال هذا

الواقع الذي جهلاً أو عمداً يرمي الى مسخ طبيعتنا وتجريدنا مما يجعلنا نحن كما نحن ، ماذا علينا ان نفعل ؟ » في روح اسبانيا تحيا وتعمل ليس روحنا فقط نحن الذين نحيا اليوم ، بل كذلك وخصوصاً روح جميع أسلافنا . أما روحنا نحن المعاصرين فأقل الأشياء حياةً ، لأنها لا تندمج في وطننا الا بعد ان نكون غادرناه بموتنا الزمني . . .

« ... وماذا عسى يجدي التفكير على الطريقة الاوربية العصرية بلغة لا هي عصرية ولا هي اوربية ؟ بينما نحن نرغمها على تبیان معنى ما ، تصرُّ هي على تبیان معنى آخر مساوقة طبيعتها

« ... لاتين ، لاتين ! انهم لا يفتأون يقذفوننا بحكاية الاخاء اللاتيني . ولست أدري ما اذا كنا نحن ام كانوا هم لاتيناً . اما من ناحيتي انا شخصياً فاني مقتنع بأن لا شيء لاتيني في . فاذا كنا همجيين فعلاً لا نشعر صادقين بأننا كذلك فنعلن عن انفسنا بصفتنا تلك ؟ فاذا اردنا ان نشدو بما يؤمننا وبما يواسينا شدونا على طريقتنا الهمجية في الفن ؟ ان عقاب الذي يحاول تقليد غيره هو انه يكف عن ان يكون هو نفسه دون ان يفلح في ان يكون ذلك الآخر الذي تمثل به ، وينتهي الى ان يكون لا شيء » ... » و يقيني ان جعل اسبانيا اوربية لن يبتدىء الا عند ما نقرض نحن الاسبان انفسنا على النظام الروحي في اوربا فنندمج فيه ما هو جوهرى عندنا تبادلاً لما هو جوهرى فيه ، اي عند ما نحاول جعل اوربا اسبانية ... »

نبرات بديعة ، أليس كذلك ؟ يلهبني منها التلطي والأنفة والصدق وخلوها من كل انتحال وكل رخاوة وكل تعمُّل . هي نبرات اونا مونو حقاً . واونا مونو الذي تلخصت في فطرته عناصر جميع الشعوب التي اجتاحت اسبانيا منذ بدء التاريخ — من الفينيقيين الى اليونان الى المكدونيين الى اللاتين الى القوط الى القندال الى العرب الى الفرنسيين والانجليز وما يتخلل هؤلاء من شتيت العناصر — اونا مونو اغنى من ان يكون ربيب عنصر واحد ، كائناً غنى ذلك العنصر ما كان

شقيق شكسبير في تجميع « هملت » وشقيق جوته في تفطر « فاوست » ، هو ابن اسخليوس في صلب « پرومئيس » على جبل التمرُّد والنكال . بيد ان اونا مونو هو من كل اولئك المؤلف والشخصية التي يخلقها المؤلف في آن واحد



الزعامة وصفات الزعيم

للركنور عبد الرحمن شهبندر

الزعيم هو الفرد — من الرجال او النساء — الذي يجمع حوله عدداً من المريدين والانصار اهل لأن ينشد بواسطتهم غاية عامة ، وهذه الغاية في نظرهم جميعاً ذات شأن حيوي لهم والمجتمع الذي يعيشون فيه . وبدهي ان مثل هذا التعريف يقتضي ان يكون ثمة اتصال وثيق بين الزعيم والخاصة من انصاره في فهم هذه الغاية والاحاطة بمجوهرها لان كل تنافر بهذا المعنى يوقف دولا العمل وينتهي بالاخفاق . فوضع ابن سعود او الامام يحيى على رأس المحافظين او الاحرار في انكسار هو من الأعمال المتنافرة مثل وضع المستر (بلدوين) او المستر (لويد جورج) على رأس الوهابية في نجد او الزيدية في اليمن . وقد يستطيع هذان ان يكتيفا نفسيهما بحسب المحيط فيغيران ويبدلان في مظاهرها الداخلية والخارجية لطابقا الهيئة التي انتقلا اليها ولكن تنقصهما حينئذ العقيدة وهي من الزم لوازم الزعيم وأهم شروط نجاحه . فالزعيم الذي لا يؤمن بالقضية التي يتظاهر بخدمتها هو مثل المتنبي الذي لا يؤمن بالدين الذي يدعو اليه وقل ما يتهم به التجديل — والتدجيل والزعامة الصحيحة ضدان لا يلتقيان . على ان هذا الكلام لا يقتضي ان يكون الزعيم وسواد انصاره سواسية في فهم تلك الغاية بل قد يكون البون بينه وبينهم شاسعاً ، فجميع زعماء الشرق مثلاً ينشدون الاستقلال الناجز لبلادهم والشعوب من ورأهم ظهيرة ولكن نوع هذا الاستقلال والغايات الاجتماعية والسياسية والروحية التي يمس بها على الناس تختلف كثيراً باختلاف التربية والمستوى العقلي والتهذيبي ، فكم رأينا من يظن ان مجرد اعلان الاستقلال هو الرجوع الى اوضاع القرون الوسطى بتفرعاتها جميعاً حتى ديوان التفتيش لمحاكمة الناس على عقائدهم الدينية . ويكفي ان يكون ثمة خطر يهدد الجماعة لتلتف حول من تعتقد ان في مقدوره ان يسير بها في طريق النجاة فتؤيده بقدر القوة الشخصية التي يزدان بها وبقدر شأن الخطر المتوقع . فلا غرو ان يظهر الزعيم على المسرح السياسي متى كانت الحاجة اليه ماسة كما تظهر البضاعة في السوق متى كان الطلب عليها حثيثاً

✽ الوطنية والزعامة ✽ : الوطنية هي في الاكثر مسألة الزعامة ، والزعيم هو مدره القوم المعبر عن رغبتهم وتتجلى صورتهم بثوبها القشيب في مرآته الصافية ، فلا بد ان تكون حلقة الاتصال بينه وبينهم وثيقة كما قلنا والا لم يعد زعيماً لهم لان الذي يسبق الناس كثيراً او يقصر عنهم كثيراً يقطع اواصر الاتصال بهم ، ولا خطر على الزعيم مثل ان يتنزل في افكاره تنزلاً مفرطاً لاسترضاء الغوغاء واستجلاب الدهماء لانه يعرض بذلك نفسه لاستخفاف اهل الحل والعقد من العقلاء . على ان هذا

الكلام لا يمنع الزعيم ان يكبح جراح تطرفه تجنباً لاحداث هوة بينه وبين سواد الشعب بعيدة الغور ، بل رأينا جميع الزعماء السابقين لأوانهم ارتضوا ان يخففوا من غلوهم قليلاً ويقصروا من خطائم ليسيروا امام الشعب وعلى اتصال به ، وشتان بين من يخفف خطاه لتستطيع العامة ان تلحق به فتمشي وراءه وبين من يتقهقر فيمشي وراء العامة ! ولما كان الوطن صلة معنوية قائمة على التجانس فمن اوائل وظيفه الزعيم تقريب الناس بعضهم من بعض وازالة تلك الحواجز المصطنعة التي اقامتها المصالح البائدة بينهم من غير ان يفادي بشيء جوهري من شؤون القضية التي ترأس الناس من أجلها ، ولن تسمح الوطنية الحقة لمن اتخذوا من تلك الحواجز البالية جدراناً يؤلفون في داخلها الاقليات التي تهدد سلامة الدولة ان ينظموا حكومة خاصة ضمن الحكومة العامة

وتكافؤ التبعة الملقاة على عاتق الزعيم والخدمة العامة التي في مقدوره ان يسديها لامته . وكما سقطت شعوب وارتفعت اخرى بسبب ما لزعماؤها من الخطايا والمزايا ، وقد تسيرامة من الامم بخطى واسعة الى الامام فتصاب بموت زعيمها فجأة فتترجع ، ويتحول انتصارها في ساحة الجهاد الى انكسار . ومن اعظم البلاء ان تلقى مقاليد الامور الى اناس قلت مواهبهم فتعوضوا من نقصهم الذاتي نسباً شريفاً يطنطنون به دائماً ويزعمون انه يغنيهم عن جميع الفضائل النفسية ، ومثل هذا النسب ولا سيما في الملوك سهل على الطامع تسلم مقاليد الأمور . وقد قابل الاستاذ (بايندر) بهذا المعنى بين الامبراطور غليوم القليل المواهب وما جره على المانيا من النكبات وبين ابراهيم لنكولن رئيس الجمهورية الاميركية المعروف المتحلي بأعظم المزايا وما اسبغته على الولايات المتحدة من النعم الضافية . وقد استطاع ذاك على قلة نبوغه ان يستولي على المانيا بانتسابه الى بيت (هوهنزولرن) اللامع والتصاقه بالمجد العريق الذي خلفه الملوك السابقون والسمعة الطيبة التي تركوها وراءهم فلم يكن عليه عسراً مع شيء من الذكاء والتأمر وحسن التنظيم ان يحل هذا المحل اللائع من قلب الامة الالمانية النجيبة وان يستر عيوبه ويخفي نقائصه الى ان اظهرتها الحرب العالمية . في حين ان ابراهيم لنكولن لم يصل الى المقام الذي حله في عين امته الا بمواهبه الذاتية التي ازدان بها فهو الذي رفع عماد البيت الذي نشأ فيه وشرف الاسرة التي نزل من اصلابها . وهكذا نرى انه اذا كان على المرء ان يباشر عمله صعوداً من الذيل الى القمة فلا بد له ان يكون قوياً متحلياً بطول النفس الذي يمكنه من هذا الصعود ، ولكنه اذا باشر عمله بالعكس نزولاً من القمة الى الذيل فهو ليس بحاجة الى مثل هذه المزايا ويكفيه مظهرها فقط . ينظر العظامي دائماً الى الماضي ويتطلع الى الآباء والجدود فيزول منه الاستقلال والاعتماد على النفس بينما ينظر العصامي حواله ليجد الوسائل النافعة والسبل المؤدية الى تحقيق اغراضه فتقوى عزيمته ويشجذ ذهنه . لاجرم ان يكون الزعيم بعد ما قرع دهره وزخوصه مظهر الجهود متحدة ورأس القوة منظمة متجهة وهو المحل رفع الاثقال مستمداً طاقته من ارادة الشعب ومستنداً الى عاتقه فاذا ما اخفق فقد يكون السبب واحداً من ثلاثة :

شدة العقبة ، او ضعف الارادة العامة ، او سقم الخُل نفسهُ ، وقد تجتمع هذه الاسباب كلها او بعضها واذا شبهنا الزعيم بالخُل فلا نعي ابدأ انه مجرد آلة بيد الشعب لرفع الاثقال بل هو آلة متمتزة بقوتها الذاتية المتفوقة واثرها الباهر في جميع من اتصل بها . وقصارى القول يجب ان يتحلى الزعيم بالخصائص الآتية :
 (اولاً) الايمان المطلق بالقضية التي يعالجها فلا يضر في شأنها شيئاً ويظهر شيئاً آخر كما يعمل المنافقون ، ولا يعرف وضعاً من الاوضاع المقدسة اتخذه المنافقون مطية مثل وضع الدين ، وتأني بعده الوطنية ، فبان انتشارها وبدخولها في الصميم من قلوب الجماعات المضطهدة والمغلوبة على امرها ظهر على المسرح بعض المتزعمين المنافقين الدجالين ممن اتخذوها مطية فساوموا عليها وملاوا بطونهم من موائدها ومحافظهم من نضارها ، ولكن ليس من الصعب على المنتبِع ان يفضح الدجل والنفاق لاننا وجدنا من اُزِم لوازِم الذي يقف موقف المرشد او المصلح او الزعيم من الناس ان يشير احترام الخُلص من المتصلين به مباشرة كزوجهِ واخوته مثلاً وان لم يعتقدوا بصحة دعوته ، لان الاخلاص للعبداً والتفاني فيه يحمل المرء على احترام المتحلي به ولو كان خصماً فما بالك وهو القريب العزيز . وان رجلاً يعجز عن اكتساب الحرمة من اهل بيته والمتصلين به اتصالاً وثيقاً لقمين بان لا يكون محترماً في نفسه بالغاً ما بلغ من التظاهر بالخدمة العامة والتفاني في سبيل القوم . (ثانياً) ان يكون رأي الزعيم في المسائل التي تدور عليها قضية الشعب واضحاً كالشمس في رابعة النهار وكل ابهام في موقفهِ الاساسي يدعو الى اضطراب انصارهِ وحيرتهم ويتركهم عرضة للدعايات المناقضة والاحياز الى الآراء المخالفة . (ثالثاً) الثبات على المبدأ ، وهذا يقتضي ان يكون الزعيم بعيد النظر متحلياً بقوة العقل ومتسلحاً بالتربية الصحيحة وتحليل ما يطرأ من الطوارئ حتى لا يرتكب من الخطأ ما يضطره الى تغيير رأيه بصورة تلفت الانظار ، ولا يعني هذا الكلام ان الزعيم يجب ألا يخطئ في آرائه ابدأ ولا فيما يتوصل به من الوسائل فالخطأ يصح حتى على اكبر الزعماء والقواد اذا كان خطأ معقولاً واما الخطأ المنكر فهو البديهي الظاهر الذي لا يجوز ان يقع فيه العقلاء

والزعيم الذي لا يتمسك بعقيدته تمسك المؤمن بعقيدته الدينية المقدسة ويستعدُّ لبذل الغالي والرخيص في سبيلها يحرم من الثابتين على ولائهِ القائِلين بقوله ، ويمكن خصومه من تدبير الحيلات عليه ، ويكون التساهل في العقائد الاساسية التي هي محك النظر ومدار العمل تهلُكة له ولمن يلوذ به . فالزعيم الاشتراكي الذي يحاول تمشية الحال مع الرأسمالي المحافظ المتطرف يكون مثله كمثل الداعية الى التنزيه والتوحيد المتساهل مع الشرك وعبادة الاصنام ! على ان التصافي بين المتنازعين والتسوية بين المتخالفين هما من الامور الواجبة في كثير من الاحيان — على شرط ألا تتناول الشؤون الجوهرية التي هي اصل المذهب ومبنى العقيدة

وعلى كل حال فاذا جاز للزعيم ان يغير رأيه مرة في شأن من الشؤون المهمة — ولن يجوز ذلك في عقيدة من العقائد الجوهرية — فمن الحال ان يغيره مرتين اثنتين ويبقى محافظاً

على سمعته ، فإن هذا الكلام من بعض المتزعمين الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتقلبون في المبادئ الأساسية تقلب الحرباء ويدورون في العقائد الجوهرية دوران دواليب المطاحن مع الهواء ! وما لاشك فيه ان عوارض تعرض وعقبات تطرأ تحتم على من بيده زمام المركبة ان يتجنب الصدمة ، ولا غبار على الزعيم في مثل هذه الاحوال والظروف والملابسات التي لا شأن لها في الاساسيات ان يتسامح ويتساهل لان الصلابة في الحق لا تعني العناد المقيم والانكسار على الصخر . ثم ان الكياسة شيء والتشدد الاعمى شيء آخر ، والفظاظة والغلاظة في الطبع تدعو الى الانفضاض من حول الزعماء ولو كانوا في مقام الانبياء ، بل اننا رأينا بعض الانصار من غلاظ الطبع سبب نكبة على الزعيم الذي يوالونه ، وقد يرجع الكثير من المحلات التي تحمل عليه الى الخصومة التي يخلقها في الناس هؤلاء الانصار والاتباع . وتطلق في الانجليزية كلمة Crank على المهووس الذي هو في عقيدته اقرب الى الخوارج او المجنون في امر واحد وقد يردد الكلمة الدالة على هوسه كما يردد ذو الجنة الكلمة التي ارتكز عليها جنونه من غير ان يفكر فيها ، وهذا ممنوع على كل رجل متزن دع عنك الزعماء ، لان الجنون حتى في اسمى الامور لا يدل على رجحان عقل ، واذا جاز لبعض المعتوهين من اهل القرون الوسطى ان يلجوا حولهم الانصار بترديد بعض الكلمات الجذابة المقدسة من غير ان يفقهوا معناها فزمامة مثل هذه لا تلم في عصرنا وهو عصر التحليل العقلي غير الخائلة من الناس

وكم رأينا في هذا الشرق من يطمع في الاستيلاء على عقول الناس وليس له من رأس مال سوى الصباح «فليحيي الوطن» ومن خطة سوى «لقاء الاعداء بقضهم وقضيضهم في البحر قبل كل عمل» وغني عن البيان ان مثل هذه الخطة تجاه العدو القوي المتمكن لا تعني سوى الفوضوية السياسية وزك كل عمل يرجي من ورائه زحزحة الكابوس والخلاص منه تدريجياً

وعلى ذكر الخوارج والمهووس نقول ان الاستاذ (بايندر) قسم العقول الى ثلاثة نماذج فالنموذج الاول هو العقل الذي ليس في مقدوره ان يرى المسألة المعروضة الا من ناحية واحدة فقط ، وهذا هو عقل الرجل البسيط السخيف الاحق ، والنموذج الثاني هو العقل الذي في طاقته ان يرى ناحيتي المسألة ولكن بالتناوب والتتابع لا في وقت واحد ، والنموذج الثالث يرى النواحي كلها معاً فيزنها بالميزان ويقابل الواحدة منها بالآخرى قبل ان يصل الى حكم نهائي ثابت ، ويدعى هذا النموذج العقل الاستقرائي التألفي وهو مما اتصف به جميع الزعماء العظام . قال (بايندر) وليس على الزعماء ان يصلوا الى حكم نهائي وثابت فقط بوزن كل وجه من وجوه المسائل ومقارنته بل عليهم ان يطبعوا حكمهم هذا في اهل النموذج الثاني بان يبينوا لهم ان المسألة يجب ان ترى من وجوهها كاملة في آن واحد ، وان يقنعوا اهل النموذج الاول بان القضايا لن تحمل بالاقتصار على رؤيتها من جانب واحد . وما من امة لم تتحل بهذا النمط من الزعماء استطاعت ان تعمل اعمالاً عظيمة خالدة

ثم لا بد للجماعة في مجموعها من نسبة كبيرة من اهل النموذج الثاني وهم ممن يخاطبون بالعقل

وتسرى عليهم الحجة المنطقية ، واما اهل النموذج الاول فانهم يستسلمون عادة من بعد المقاومة والاصرار على وجهة نظرهم ذلك لان براهينهم ليست من مواليد ادمعتهم بل مستعارة غالباً والمرجح انهم يقبلون البرهان الجديد في نهاية الامر على شرط ان يلتقي في روعهم ان هذا البرهان انما هو الشيء الذي يدور في خلدكم ويدينون به . (رابعاً) ان يتحلى الزعيم بشخصية باهرة لها شيء من السحر العجيب في ما حو لها من الانصار ، ولن يتأتى ذلك في مثل هذا العصر الذي نعيش فيه الا بالتربية الصحيحة وما تحتاج اليه عادة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان . ومقياس هذه التربية البيئة الذهبية التي يعيش فيها الزعيم فاذا كان الصرف والنحو والاعمال الاربعة وشيء من البيان والاصول والفقه كافياً ليتسلح به الرجل في نجد او اليمن فان هذا السلاح لا يهر احدآ في مصر وسورية والعراق وعند الاستاذ (بايندر) ان التربية المطلوبة في الزعماء تعني كبر العقل والاستعداد العام للتقدم وترك الحسن في سبيل الحصول على الاحسن . ولما كانت بعض الصناعات كالحقوق والكنهون مثلاً تقاوم كل تغيير عادة لانها نشأت على اعتبار ما يقرره السلف مقدساً وكان معظم الحكماء والزعماء الذين ظهروا على المسرح السياسي هم من اهل هاتين الطبقتين من الناس فلا غرو ان يزعموا في ذهن المجتمع كمالاً منشوداً خواه ألاّ تغيير ولا تبديل للاوضاع القائمة ، ولما كانوا من اهل الطبقة التي تفردت بالتربية والثقافة غالباً لم يتعمدز عليهم ان يطبعوا مقاييسهم الخلقية والاجتماعية في سواد الناس مما أدّى الى شيء من الخنوع وزوال الابتكار في الافراد . ان هذه المحافظة الضيقة تقتضي من الزعيم في القرن العشرين ان يكون مؤمناً بإمكان التغيير قائماً بأن المجتمع الذي فيه قابل للتكامل والارتقاء وان لا شيء في العالم مقدس الا اذا كان نافعا للناس

(خامساً) التحلي بالشجاعة الادبية وهي رأس فضائل الزعيم وربما سترت فيه عيوباً كثيرة وعادلت بعض المزايا المهمة الناقصة فيه ، والشجاعة الادبية في الزعيم للدفاع عن الحق هي مثل شجاعة الجندي في ميدان القتال فكما ان هذا لا يكون اهلاً لحمل البندقية ومكافحة الاعداء الا اذا كان صنديداً كذلك ذاك لا يجوز له ان يرفع علم الوطنية ما لم يكن جريئاً في الدفاع عن حقوق الامة في ادق ساعاتها واطهر ازماتها . ولعل الوضوح الجلي الذي طلبنا ان يكون في رأي الزعيم يرجع الى هذه الشجاعة الادبية لان الزعيم متى كان ضعيفاً في نفسه يحاول تجنب النزال والطعان بالتستر وراء الايهام والابهام والالتجاء الى التقيّة والمواربة

على ان امرآ وحداً ليس من شأنه الاعلان عنه ابدأ وهو الخطر المحقق بالامة متى كان ذكره يدعو الى القنوط ، فزرع الامل هو من اوجب الواجبات ، وكم من زعيم من اكبر الزعماء كان يضع في ساعة الخطر الشديد وسائل النجاة في ذهن الشعب امرآ سهل التداول قابل التطبيق . والرجل الذي لا يؤمن بقوة الارادة العامة على ازالة الموانع والعقبات ينقصه عنصر جوهرى من عناصر الزعامة ، ولولا الامل بالنجاح لبطلت وسائل الكفاح

القصص

في الادب العربي

للركنور احمد ضيف

الاسلوب القصصي من أشهر أساليب الكتابة الادبية وأوسعها خيالاً وأفسحها مجالاً، لوصف الحياة الانسانية والنفوس البشرية واسرار الاجتماع، وبث شعور الانسان من سعادة وشقاء وحب وبغض، ورسم عقائد الانسان من حقائق وأساطير، وذكر حوادث التاريخ القريبة والبعيدة. ثم هو زيادة على ذلك معرض لفنون الكتاب ومجال واسع لظهور نبوغهم، وعبقرياتهم الادبية والفنية وأساليب التفكير لديهم. لهذا كانت القصص من أعظم الانواع الادبية في آداب الامم، وتناج قرايحهم قديماً وحديثاً، بل أبقى تلك الانواع جميعاً وأشدّها جذباً للنفوس وأعمّها فائدة ونفعاً في تغذية العقول، ونشر الفنون الكتابية

ولقد نجد كثيراً من القصص في الادب العربي، فكتب الادب والتاريخ حافلة بذكر ايام العرب وحروبهم والتحدث عن ملوكهم، وكبار رجالهم، وشعراهم وعشاقهم، وأخبار الجن وسيرهم، ولكن ذلك ذكر في تلك الكتب على أنه احاديث ومسامرات وروايات يذكرها الكاتب او المؤلف على انها قطعة تاريخية لا قصة أدبية فنية — لانها ليست مكتوبة بقلم كاتب واحد ولا من تأليف كاتب معروف امتازت بأسلوبه وعرفت بصبغته الشخصية وشعوره الخاص، بل رواها الرواة وغيروا وبدلوا فيها كما يروي المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة أخرى، فلا تحسب هذه الروايات من الكتابة القصصية الادبية المعروفة الآن التي تمتاز كما قلنا بأسلوب الكاتب الفني وطريقته في التفكير وصفته العقلية الخاصة به، ونظم الكلام المعروف في كتابة القصص المحتوي على ذكر اشخاص متصفين بأخلاق خاصة، وصفات خاصة يتحدثون ويتجادلون فتظهر في أثناء احاديثهم ومجادلاتهم خفايا النفوس البشرية، وما تنطوي عليه من ميول واهواء وعقائد. ان حوادث التاريخ لا تتغير وطبيعة الانسان واحدة: فالحب والبغض، والطمع والقناعة، والاحسان والاساءة، والتقوى والفسوق، كلها حالات ثابتة في النفوس وفي طبيعة الانسان لا تختلف في اصولها، ولكن الذي يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لها وفهمها فهماً صحيحاً أو خطأً، وتصوير الكاتب لها على حسب ما يرى ويفهم، وعلى حسب ما يلبسها من شخصيته وأسلوبه، فهذه الشخصية

هي التي تظهر في الكتابة القصصية وتميزها من غيرها ، وهي التي تقلب التاريخ الى أسطورة او الى بحث نفسي او اجتماعي ، وقوة الكاتب او براعته هي التي تلبس الحوادث والحكايات لباساً قد يجعلها خالدة باقية ببقاء الايام ، فعلى هذا لا تحسب الاحاديث التي في الكتب الادبية العربية كالأخبار الخاصة والعامة ، وذكر الملوك والحروب ، وأحاديث المسامرات وغيرها ، من القصص الفنية وقد جاء الأسلوب القصصي في الأسلوب الفني الى لغة العرب مما نقل اليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها ككتاب « كيلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » وغيرها مما ذكره ابن النديم في باب الاسمار والسير ، كتبت على نمط هذه القصص المترجمة ، وقصص اخرى وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية — عن السنة الحيوان والبهائم — مما أخذه الكتاب من تاريخ الفرس أو الهنود

قال ابن النديم في كلامه على الكتب التي صنف في الاسمار والخرافات :

ابتدأ ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . . . واحضر السامريين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون . . . واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما يطيب له — وكان فاضلاً — فاجتمع له من ذلك أربعمئة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام . . . وكان قبل محمد يعمل الاسمار والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم : عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون ، وعلي ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتاب كانوا يؤلفون في القصص ويحاكون الفرس وغيرهم في الأساليب القصصية

انتشار القصص العامة

اما سبب انتشار القصص العامة ولا سيما الاعجمية منها فقد اندس بين العرب أيام الدولة العباسية جماعة من الاطام وكان من بينهم من يحمل الاخبار الخرافية والأكيلة الغريبة التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم الفرس والهنود اصحاب الاكيلة العتيدة في الاساطير وينبوع كل هذه القصص الخرافية . وكان من بينهم جماعة من التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب وينشرون هذه الاخبار في المجالس والجامع بين الخاصة والعامة . فذاع أمر هذه القصص بين عامة الناس حتى امتلأت باللهجة العامة وعني بالكتابة فيها بعض الادباء و اضافوا اليها كثيراً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية وادخلوا فيها شيئاً من الاشعار المعروفة والامثال السائرة والعبارات الصحيحة وأدخل جماعة من الكتاب في هذه القصص شيئاً من تاريخ العرب وكبار رجالهم و فرسانهم وحروبهم واخبارهم وسيرهم ونقلوا اليها بعض ما في كتب الادب المعروفة من شعر ونثر وامثال وحكم وجاروا العامة في ميولهم واساليب التفكير لديهم فظهرت فيها حكايات هي خليط من الفارسية

والهندية والحياة الاسلامية العربية ولهجات الخاصة والعامة والحوادث المختلفة للخلفاء والامراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار . وقد جاوروا العامة في اساليبهم وميول التفكير لديهم كما يجد القارئ ذلك في قصة عنتره وبكر وتغلب وسيف بن ذي يزن وغيرها من القصص العامة المشهورة . وكل هذه القصص أو جلها كتب في مصر بأقلام كتّاب من المصريين على ما يظهر من لهجتها العامية المصرية

ومن اشتهر القصص العامية قصة عنتره وهي اقرب الى وصف الحياة البدوية منها الى غيرها وقد احتوت على كثير من اخبار العرب واشعارهم ووصاف حروبهم وعاداتهم واخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل الى الانتقام ، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وجملة احوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الاسلام

وما يجدر التنبيه عليه ان هذه القصة وامثالها كتبت في مصر بأقلام كتّاب مصريين ويروون في ذلك : « انه نشأ في مصر من افاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز ، ولهج الناس بها في المنازل والاسواق فساء العزيز ذلك ، و اشار على الشيخ يوسف بن اسماعيل المتقدم ان يطرق ما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والاحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنتره ويوزعها على الناس ، فاعجبوا بها ، واشتغلوا بها عن سواها ، ومن تلفظه في الحيلة انه قسمها الى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل كتاب منها ان يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشناق القارئ والسماع الى الوقوف على تمامه ، فلا يفتقر عن طلب الكتاب الذي يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى به في الاول وهكذا .. الى نهاية القصة .. وقد اثبت في هذا الكتاب بعض ما ورد في اشعار العرب المذكورين فيها . و اضاف الى تلك الاشعار اشعاراً اخرى يبعد ان تكون صادرة عنهم ، كما اضاف اليها قصصاً واحاديث وحكايات مخترعة قصد بها التسلية والتمثيل »

فعلى هذه الرواية التي وجدت في مقدمة ديوان عنتره تكون هذه القصة كتبت في مصر كما كتب غيرها من القصص الأخرى التي تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها

نوع القصص العربية

ولقد ظهر في القرن الثالث والرابع وما بعدها أحاديث او حكايات تدخل في باب القصص من جهة انها منمنمة مكتوبة كتابة بليغة ، ولكن كثيراً منها مبني على سرد ووصف شيء رآه

الكاتب ، وسطره تسطيراً مثل ما يحكى عن اهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة وجانب عظيم من هذه القصص منقول عن اللغة الفارسية وغيرها او محاكاة لها او مؤلف تأليفاً هو اقرب الى التاريخ منه الى القصص . وبعضها كتب بلغة ملحونة فاسدة لا تحسب من الادب الصحيح مثل القصص العربية المعروفة التي كتب اكثرها بلهجة عامية مصرية . وهناك نوع من القصص التي اخذ الكتاب موضوعاتها من التاريخ العام او الخاص ومن بعض البلدان التي عاشوا فيها ، او من قصص القرآن كقصص فرعون وموسى وعيسى بن مريم ، واهل الكهف وغيرهم ، او انتزعوها من الف ليلة وليلة ، او اخذوها من تاريخ العرب والاجتماع في بغداد مثل حكاية ابي القاسم احمد البغدادي وحكاية الحداد ، وما جرى له مع هرون الرشيد ، وقصة انيس الجليس وما جرى لها مع علي بن نور الدين ، وهي مأخوذة من الف ليلة وليلة ، ومثل حديث علاء الدين والقنديل المسحور وكالحكايات المنسوبة الى ابي الحسن احمد بن عبد الله بن محمد البكري المتوفى في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري كغزوة الاحزاب وما جرى للامام علي الفارس الوثاب ، وغزوة الامام علي بن ابي طالب مع اليعين هضام ابن الجحاف ، وكفتوح اليمن المعروفة بقصة الغول وغير ذلك من القصص الكثيرة التي كتبت في ازمان مختلفة

المقامات والقصص

وهناك قصص أخرى أدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومثل التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي ومثل قصة حي بن يقظان الفلسفية ، وهذه القصص اقرب الى الكتابة العلمية او الفنية الخاصة بالنقد الأدبي او الفلسفي

ومن اسلوب القصص مقامات الهمذاني والحريري وامثالهما وهي جارية على غير اسلوب تلك القصص العامة الخافلة بالاطعاء واللعن وليست شبيهة بها من حيث موضوعاتها لان تلك الموضوعات اما فارسية او هندية او عربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والابطال ، قد عبث بها الخيال ولعبت بها اهواء العامة

والمقامات ليست على هذا الطراز لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة واخذت حوادثها من مشاهدات الكتاب واحوال الاجتماع والعصور التي كانوا يعيشون فيها وقد اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس وكان الغرض من كتابتها اظهار البراعة في اساليب الكتابة المسجعة وانواع الشعر الصناعي وتنميق الاسلوب

اعلام الطب العربي

اسماء اشهرهم واخطر آثارهم^(١)

للكنور - فيليب مني

الاستاذ في جامعة برنستن الاميركية

لم يكن عند العرب قبل الاسلام طبّ علمي فنيّ باصول . والقليل من الطب العلمي الذي كانوا يمارسونه انما كان مبنيًا على الاختبار متوارثًا بالتقليد تعتوره تعاويذ السحرة وطمسعات الدجّال ضد الاصابة بالعين والارواح الشريرة . أما الوصفات فكانت مقتصرة على المداواة بالعسل والفصد والحجامة . وكثير من هذا الطب الساذج المتناقل عن مشايخ الحي وعجائزه نُسب فيما بعد الى النبي دون ان يكون للنبي علاقة به ، على ان ابن خلدون المؤرخ النقدي في الفصل الموسوم «علم الطب» من مقدمته يتعرض لهذا الطب المسمى «طب النبي» ويدّكر القراء « انه صلى الله عليه وسلم انما بُعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث ليعلمنا الطب ولا غيره من العاديات »

وبعد ان ظهر الاسلام وتغلب ابناء الجزيرة على بلدان الهلال الخصيب موطن المدينة الاشورية والفينيقية القديمة فضلًا عن الفارسية واليونانية المتأخرة تلقّحت عقول ابناء العربية بلقاح علمي جديد اهم مصادره ايران واليونان فأخذوا فيما اخذوه عن الشعوب المغلوبة علم الطب فأقتنوه و اضافوا اليه نتائج تجاربهم وأبحاثهم وثقّفوها فيه الى درجة لم يبلغوها في سائر العلوم الدخيلة باستثناء الفلك والرياضيات . وفي الحديث المشهور « العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان » دليل على مبلغ الطب من خطر الشأن في نفوس العرب المسلمين

وأول طبيب عربي في صدر الاسلام هو الحارث بن كعدة الذي ترجم له ابن ابي أصيبعة في «طبقات الاطباء» وذكر انه تخرّج في مدارس فارس الطبية وهو الذي لقبه ابن العبري والقفطي بطبيب العرب . وعملاً بقاعدة تلك الايام نشأ ابن الحارث واسمه النضر طبيباً كوالده ، والنضر هذا ابن خالة النبي

وبانتقال مركز الخلافة بعد العصر الراشديّ من المدينة الى دمشق ازداد اثر الطب اليوناني السرياني في الطب العربي . ومن الملاحظ ان طبيب الخليفة معاوية واسمه ابن اثال كان مسيحيًا كما كان طبيب الحجاج واسمه تياذوق ، وهو اسم يوناني . وفي عهد الخليفة مروان بن عبد الحكم نقل عام ٦٨٣م

(١) مقدمة كتاب « معضلة السرطان » . راجع باب مكتبة المقتطف في وصفه

طبيب يهودي اسمه ماسرجويته عن السريانية أوّل كتاب طبي علمي في اللغة العربية . واصل هذا الكتاب يعود الى اليونانية وهو من وضع قسّ في الاسكندرية . اما اول خليفة عني بشؤون الصحة العمومية فهو الوليد بن عبد الملك (المتوفى عام ٧٠٥ م) الذي على ماروى الطبري وإن العبري منع المجذومين من السّؤال الى الناس واقام لهم وللمقعدين والعميان مؤسسة خاصة هي على ما يظهر الاولى من نوعها . وفي خلافة عمر بن عبد العزيز انتقلت مدارس الطب اليوناني من الاسكندرية الى النطاكية وحران واخذت بالازدهار في كنف الخلافة العربية

وعقب العصر الامويّ العصر العباسيّ الزاهر . وفي مستهلّه وبتعزيد الرشيد والمأمون نقلت معظم الكتب الطبية اليونانية بما فيها مؤلفات أبقراط وجالينوس وبولس الايجيني من اليونانية الى السريانية أولاً ومنها الى العربية مما جعل ابن العربية وريث التقاليد اليونانية العلمية . وتلا دور الترجمة دور التصنيف . فأضاف الاطباء المتكلمون بالعربية الى الذخيرة الطبية القديمة أشياء كثيرة هامة . انما تحفهم هذه لم تتمدّ دائرة الطب العام ولم تتناول علم الجراحة ولا التشريح وذلك لأن الوسائل لدرس تركيب اعضاء البدن لم تكن موفورة في الاسلام . مع ذلك يلذ لنا ان نقرأ في ابن أبي أصيبعة (تحرير مولر ج ١ ص ١٧٨) ان طبيباً نصرانياً اسمه يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ - ٨٥٧) كان يعمد الى تشريح القروود وفي جملتها قرد ارسله احدى من بلاد النوبة هدية الى الخليفة المعتمد قلنا ان تقدّم العرب في فن الجراحة وعلم التشريح لم يكن مذكوراً ولا بدّ من استثناء تشريح العين وجراحاتها . فان كثرة امراض عضو النظر في البلدان العربية الحارة حملت عدداً من الاطباء على الاختصاص في هذا الموضوع والتبريز فيه . وأول تأليف في أمراض العين هو لابن ماسويه المذكور آنفاً ومن كتابه الموسوم « دغل العين » نسخة خطية في المكتبة التيمورية بالقاهرة وأخرى في ليننغراد . وكان لابن ماسويه تلميذ نابغ هو حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٧) صاحب « العشر مقالات في العين » الذي نشره حديثاً الدكتور ماير هوف (القاهرة ١٩٢٨) ومن الذين لمعوا في القرن الحادي عشر بين الكحالين (أطباء العيون) في بغداد علي بن عيسى الذي كان كأسلافه مسيحياً

ويحمل بنا ان نذكر ان طبيب الاجيال الوسطى كان اكثر من طبيب . فكان فيلسوفاً وعلماً ، ولقبه العربي « حكيم » يدل على مقامه في نظر معاصريه وكان ولا سيما في بغداد والاندلس في الغالب من ذوي الزمامة الادبية والسياسية . ومن هؤلاء من كانت حرفته تدرّج عليه المال الوفير . ومن امثلتهم جبرائيل بن بختيشوع النسطوري طبيب الرشيد والمأمون والبرامكة فلقد ذكر القفطي في « اخبار الحكماء » ان ثروته بلغت ٨٨ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم (ما يوازي ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه مصري) وهو رقم لا ريب في مبالغته . ونشأ في عائلة بختيشوع سبعة أجيال متوالية من الاطباء مما يدل ان الصناعة كانت وراثية يتناقلها الولد عن أبيه

ومن الدوائر الطبية التي امتاز العرب بالتقدم فيها دائرة العقاقير ومعرفة خصائصها واستخدامها لمداداة الامراض . فالاطباء المتكلمون بالعربية هم أوّل من أسّس مدارس الصيدلة ووضع التآليف الممتعة في هذا الموضوع ، وذلك ابتداء من جابر بن حيّان الذي زها حوالى سنة ٧٧٦ م والمحسوب بحق ابا الكيمياء العربية . ويستنتج من القفطي (تحرير ليرت ص ١٨٨ — ٩) ان اصحاب الصيدليات في ايام المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) كان لا بد لهم من تأدية امتحان والحصول على اجازة قبل معاظة الحرفة . ثم سرى هذا القانون على ممارسي الطبابة بعد قرن من ذلك التاريخ . فبأمر الخليفة المقتدر تولى الطبيب سنان بن ثابت بن قرة شخص ٨٦٠ ممارساً في بغداد (ابن ابي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢) . وسنان هذا نظم حملة طبية جعلت همها التجوال من بلد الى آخر لمعالجة المصابين وتولى رئاسة البيمارستان (المستشفى) في العاصمة بغداد . وهو البيمارستان الذي انشأه هارون الرشيد على النموذج الفارسي كما هو واضح من الاسم الذي أطلق عليه

وما يستوقف الانتباه ان جلّ الاطباء المصنفين بعد دور الترجمة كانوا من اصل فارسي ولكنهم من متكلمي العربية . وفي طليعتهم علي بن ربّان الطبري وابو بكر الرازي وعلي بن عباس المجوسي (* ٩٩٤) وابن سينا . وكان الطبري في الاصل مسيحياً كما يُستنتج من اسم والده « ربن » السرياني ولكنه اعتنق الاسلام لدى دخوله في خدمة الخليفة المتوكل . والطبري هو صاحب « كتاب فردوس الحكمة » الذي نُشر بالطبع في برلين عام ١٩٢٨ . اما الرازي (٨٥٠ — ٩٢٣ م) فاسمهُ يدل على انه من مواليد الرّي في جوار طهران . وهو في نظر مؤرخي الطب اعظم حكيم عربي . ذكر له النديم في « الفهرست » ١٣٣ مؤلفاً منها ١٢ في الكيمياء . واهم مؤلفاته « الحاوي » و« المنصوري » اللذان تُرجما الى اللاتينية في القرون الوسطى وما لبثا ان اصبحا المعوّل عليهما في تلقن علم الطب في كليات اوربا . ومن جواهر التآليف الطبية العربية رسالة للرازي في الحصباء بيّن فيها المؤلف للمرّة الاولى الفروق بين الحصباء والمجذري . ولقد تُرجمت هذه الرسالة في واسط القرن الماضي الى الانكليزية . ومن ابداع ما ذكره ابن أبي أصيبعة عن الرازي انه تحقّق النقطة الصحية المناسبة لبناء البيمارستان في بغداد بوضعه قطعاً من اللحم في انحاء مختلفة في البلدة ومراقبة سرعة سير النتانة فيها . وبعد الرازي فابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) هو اشتهر طبيب عربي . وهو صاحب كتاب « القانون في الطب » المتضمن خلاصة الصناعة الطبية على ما مارسها اليونان والعرب في اوانه . وما لبث « القانون » ان نُقل الى اللاتينية في القرن الثاني عشر حتى اصبح بفضل حسن نبويه وسهولة مناله الكتاب التدريسي المعوّل عليه في مختلف الكليات الاوربية حتى القرن السابع عشر . وبذلك ملاّ المركز الذي كانت تشغله قبله كتب جالينوس والرازي والمجوسي . اما في العربية فالقانون طُبِع في رومة سنة ١٥٩٣ فهو اذن من اقدم الكتب المطبوعة في هذه اللغة . ولقد رجم بعض « القانون » حديثاً الى الانكليزية

ولنلقِ الآن نظرة عامة على سير الطب في الاندلس العربية . والذي نلاحظه لاول وهلة ان معظم الاطباء المتكلمين بالعربية في اسبانيا كانوا فلاسفة اولاً واطباء ثانياً . ومن امثلتهم ابن رشد شارح ارسطو طالس وابن ميمون اليهودي طبيب صلاح الدين ودفين طبرية وابن طفيل . ورغم ذلك فانهم اتحفوا العالم بقسط غير زهيد من العالم الطبي . فابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) ذكر في كتابه «الكليات في الطب» ان المصاب بالجذري مرة لا يصاب بها ثانية ومعاصره ومواطنه ابن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤) واضع كتاب «الوصول في الطب» وجود عملية الختان ونسب البواسير الى قبض المعدة و اشار بالماً كولات النباتية علاجاً لها

ومن العرب الاندلسيين الذين اشتهروا بالسياسة والادب وقل من عرفهم بصفتهم الطبية الوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٤) وهو الذي وضع رسالة في الطاعون الذي كان يمتاح اوربا في عصره اثبت فيها ان انتشار هذا المرض الخيف الذي سماه الاوربيون «الموت الاسود» انما هو بواسطة العدوى ، وذلك في عصر لم تكن فيه العدوى ولا الجراثيم معروفة لدى احد وئمة فرعان طبيان تفوق فيهما رجال الاندلس اولهما الجراحة وثانيهما علم النبات والعقاقير . في الاول لمع الجراح الكبير ابو القاسم الزهراوي (* ١٠١٣) طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث . وهو واضع «التصريف لمن عجز عن التأليف» وفيه اشارات الى تفتيت الحصاة داخل المثانة والى وجوب تطهير الجرح بالكي . ولقد ترجم الجزء الجراحي من هذا الكتاب الى اللاتينية في قرن الترجمات ، القرن الثاني عشر واصبح الكتاب المدرسي في كليات سلرنو ومنبيليه وغيرها . ومن اطباء الاندلس النابغين ابن زهر المتوفى باشبيلية عام ١١٦٢ ولقد نسب اليه الكثيرون شرف اكتشاف صؤابة العجرب على ان التنقيب الحديث يثبت ان احمد الطبري الذي زها في النصف الثاني من القرن العاشر سبق ابن زهر الى اكتشاف جرثومة هذا المرض وذكرها في كتابه «المعالجة البقراطية» أما الخطوات الواسعة في تقدم علم خصائص النبات الطبية فالذي قام بها انما هو الطبيب القرطبي ابو جعفر الغافقي (* ١١٦٥) صاحب كتاب «الادوية المفردة»^(١) . وهو الكتاب الذي بنى عليه مواطنه ابن البيطار (المتوفى بدمشق ١٢٤٨) شهرته الواسعة . فابن البيطار هذا على ما اثبت البحث النقدي الحديث مدين لسلفه الغافقي بالشيء الكثير . ولقد حوى كتاب الغافقي اسماء النباتات في اسبانيا وافريقية الشمالية العربية واللاتينية والبربرية مع وصف علمي لكل منها . ثم جاء ابن البيطار و اضاف اليها في مؤلفه «الجامع في الادوية المفردات» حصة من نباتات مصر والشام وآسيا الصغرى التي ساح فيها . ويجب ان لا ننسى في الختام ان الاندلس كانت المركز الرئيسي لنقل مؤلفات العرب الشرقيين الى اللاتينية بحيث اصبحت مملكة لابناء اوربا الغربية وبذلك تمت حلقة سلسلة الاتصال بين الطب اليوناني القديم والطب العربي المتوسط والطب الاوربي الحديث

(١) المقتطف شرع في نشره بعنوان جامع المفردات والتعليق عليه الدكتور ان مايرهوف وجورجي صبحي بالقاهرة

فيرلين الشاعر

VERLAINE

على محمود طه

كان فتى حالمًا ، رقيق البدن ، منبسط الجبهة ، عميق النظرة ، مرح النفس . قذفت به الحياة الى معتركها غمرًا ، لم تكشف له تجاربه المحدودة عن طبائع الناس ، ولم يهيئته طبعه الرقيق ، ومزاجه الحاد ، لمكابدة شظف العيش وضنك الحال ، وان هيأت له روحه ليكون حيث هو الآن ، من نباهة الذكر ، وسمو المنزلة ، وخلود الأثر

ولو قد عرف « البارناسيون » ما ناطته السماء بمستقبل هذا الصبي الشاعر ، وهو يختلف اليهم من حين الى حين ، ولو قد تبين جماعة « ميلارمي » ما تنطق به مخايل هذا الشاب العايش في أبهاء الحي اللاتيني لـحموه أحداث الزمن ، ولما تركوه غرضًا للفاقة والتشريد والعذاب ، ولضنوا بصاحب هذه النفس الشاعرة الموهوبة والعبقرية المبدعة الفذة ، ألا يجد وهو في مستهل حياته قوت يومه ، ثم لفزعوا الى القدرة فما صرفت أمه عن العناية به صغيرًا ، فشبَّ مطلق العنان ، يرتاد المواخير ، ويدمن الخمر ، ثم لما غادر زوجه وأمه وولده هائمًا بين باريس ولندن وبروكسل ليعود الى وطنه ضحية اتهام قاسٍ ، ينال من رجولته ، ويلقي على نجمه المتوقد ، سحابة من الزرابة والامتهان . ثم لما ارتفعت من حوله صيحات العار ، تلاحقه من مكان الى مكان ، فغلقت في وجهه أبواب الرزق ، وسدت على ذلك الهارب المسكين منافذ الرجا والطمانينة ، فضى يستنبت الارض في الريف البعيد ، في كثير من اليأس والعناء ، وهو ذلك الروح المرح ، الذي لم يخلق لغير الشعر والغناء . ثم لما تخالف هذا الشر كله على ذلك الضعيف المكدود ، فاستبدَّ به المرض ، فقضى غريبًا وحيداً ، منبوذاً إلا من امرأة بألسنة مثله ، ساهمت حبه الأخير وشقاءه الأخير ، فلفظ في ظل قربها وعطفها انقاسه الأخيرة حقًا ! ! لقد كانت حياة فيرلين فاجعة محزنة ، فن الحان إلى السجن إلى الماخور إلى الهيام في

الطرقات ، إلى ملاجئ البر

هذا هو الشاعر الخالد . . . الذي كان أرخم صوت غنائي صدح به الشعر الفرنسي في القرن الذي أنجب هيجو ، لامارتين ، جوتييه ، موسيه ، بودلير ، رامبو ، جول لافورج ، ومالارمي وغيرهم . إن في حياة هذا المتشرد الكبير ضروباً من العبث ، وألواناً من الألم ، ولكنه العبث الذي تستقيم به حياة الفنان البوهيمي ، والذي يتيح للادب في كل جيل فنوناً شتى من الاجادة والابداع . ولكنه الألم الذي يفرض العذاب على القلوب الشاعرة فينطقها بالنغمات الفريدة الساحرة ، ويصل ما بينها وبين السماء ، فتشرب من روعة الانهياة وصفائها ، وتمنح البشرية الوضيعة المعذبة ، لحظات من السعادة والسمو

ولد بول فيرلين في مدينة « متز » من ولايات فرنسا الشمالية ، في الثلاثين من شهر مارس عام ١٨٤٤ ، أي بعد مولد بودلير الشاعر بعشرين عاماً تقريباً ، وكان أبوه ضابطاً ممتازاً في الجيش الفرنسي ، وعند ما بلغ السابعة من عمره ، رحلت به عائلته الى باريس ، فألحقته بمدرسة خاصة ، ثم بمعهد « ليسى بونابرت » حيث أظهر فيرلين على حدائقه ، تفوقاً مشهوداً في اللغتين اليونانية واللاتينية وفي علوم البلاغة والادب ، ففُتح جائزتها مع درجة شرف Degree of Honour ثم استمر في دراسته قليلاً من الزمن ، حتى ظفر بوظيفة حاسب في إحدى دوائر باريس المالية

ولكن حياة فيرلين الشاعر تبدأ عام ١٨٦٦ ، ففي الثانية والعشرين من عمره ، أخرج أول مجموعته شعرية عنوانها « قصائد غابسة » « Poèmes Saturniens » وبعد ثلاث سنوات نشر مجموعته الثانية « أعياد مريحة » « Fêtes Galantes » فأصاب فيرلين من تينك المجموعتين ، حظاً كبيراً من الشهرة والتقدير كشاعر غنائي نابغ ، كما أصاب حظاً من التعاسة والشقاء . وكانت الأيام قد مهدت لهذه المتناقضات ، فقبل نشر ديوانه الأول بعام ، مات والده ، وعاش الشاعر الصغير في رعاية أمه ، فدلتته ، وأمانته على عبث الشباب ونزقه ، بما كانت تمدّه به من المال ، فالغمس الفتي في شهواته ، وانطلق يعبّ من ملذات الحياة كيفما اشتهت نفسه الطامعة ، وشبابه المضطرب

ثم اعانته الاقدار بعد ذلك على الحياة التي بدأ يشغف بها ويستمرّها ، حياة الشرود والهيام ، فصادف جماعة من الشعراء البوهيميين الذين كانوا يجتمعون كل مساء في مطعم « ريقولي » بالحي اللاتيني فما لبث ان مال اليهم واندمج في عشيرتهم . كانوا يجتمعون فيتناولون الادب والفن بالدراسة والنقد ، ويتجادلون في شؤون الشعر ، وكان لفيرلين من هذه الجماعة ، حظ كبير من الخير ، فصقلت محاوراتهم طبعه ، وأظهرته على ألوان مختلفة من الجمال والخيال ، ولكن كان له الى جانب هذا الخير حظ كبير من الشر ، فقد حبيت اليه عشرتهم احتساء الخمر أولاً ، وادمانها ثانياً ، وكان فيرلين رقيق البدن ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، وكان الخمر سمّه القاتل

وصار فيرلين بعد ذلك من المترددين على صالون « لويس كسافير دي ريكارد » فاتصل بالبارناسيين « Parnassians » جماعة « ليكونت دي ليل » ولقيت شاعريته المبدعة ، هوى وتقديراً ، من الشعراء والنقاد النابهيين في الاوساط الادبية العالية ، والذين تضعفهم هذه الجماعة ، امثال جوزي ماريلا ، وسوالي برودوم ، وفرنسوى كوبيه ، وكاتول منيدي وغيرهم

ولعلّ هؤلاء خير ما صادفه الشاعر في حياته الادبية ، فقد اثبت اتصاله بهم شخصيته كشاعر مرموق الحاضر ، مرجو المستقبل ، كما اصبح فيهم بعد ذلك ظاهر الشخصية ، نابه الشأن

كان هذا في الفترة ما بين عام ١٨٦٦ وعام ١٨٦٩ أو ما بين ظهور ديوانيه الاول والثاني

وفي ربيع عام ١٨٦٩ قابل فيرلين فتاة تدعى ماتيلد موت Mathilde Maute اخت احد اصدقائه ، فتحاباً للنظرة الاولى ، وزاد شغف فيرلين بفتاته ، كما استمرت ماتيلد مطارحاته الغرامية ، ففكرا

في الزواج ، ولم يكن امره مستطاعاً فقد كانت ماتيلد فتاة صغيرة ، وكانت حادثة سنّها تحول دون الزواج ، واخيراً ظفرا بهذه السعادة ، ولم يكن ثَمَّتْ من سعادة يحلم بها فيرلين بعد ذلك ، فقد كان مُدْلِجاً ، يستغرقه الحب ، وكان يرى في الزواج رابطة مقدسة ، كما كان يرى فيه منقذاً له من نقائصه ، مطهرّاً لسُكُلِ آثامه . ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق

فقد بدأت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا ، وكان البروسيون يطوقون باريس ، فتطوع فيرلين في جيش المواطنين المدافعين عن مدينتهم ، وهكذا فارق فيرلين زوجته ماتيلد بعد شهرين قليلة من زواجهما ، وعاشت الشابة الصغيرة في بعض غرف شارع (الكريدينال ليون) تمتنظر زوجها الشاب ووضعت الحرب أوزارها ، وعاد فيرلين الى باريس ، ولكنه كان قد تغير ، كان لا يزال على عهده من الحب لزوجته ، ولكنه عاد سيرته الاولى ، مستغرقاً ، في حمأة نقائصه ، عاد فيرلين الى باريس ولكنه فقد وظيفته الاولى ، وكان الاسراف قد اودى بأموه الى الفاقة والعوز ، فاضطر فيرلين ان يغادر باريس ، صحبة امه وزوجه الى « شارفيل » لا ليشاركوا والذي (ماتيلد) غرفتهم الوحيدة خصب ، بل ليعيشوا ايضاً عائلة عليهما

ولم يكن هذا كل ما أعدته الاقدار لفيرلين في (شارفيل) فقد بدأت أخطر دقائق حياته من الاقتراب ، وكانت النكبة التي لوّث حياة هذا الشاعر المسكين ، في خطاب تلقاه من شاب شاعر يدعى « آرثر رامبو » Rimbaud ضمنه إعجابه الذي لا حد له بأشعار فيرلين كما ضمنه شيئاً من اشعاره هو وهكذا وجد فيرلين في هذا الخطاب رجلاً يرفعه الى مصاف العبقرين ، كما وجد في هذا الرجل شاعراً مبدعاً ، في شعره قوة جديدة وصوت جديد وخيال جديد

فاندفع فيرلين يدعو صاحبه الى (شارفيل) دون روية أو أمان ، وحل رامبو ضيفاً على هذا الخليط المزدهم ، يشاركهم نومهم ويقظتهم ويساهمهم زادهم وشراهم . وكان رامبو شاباً في السابعة عشرة من عمره ولكنه كان مخلوقاً غريباً حقاً ! ! ... كان مديد القامة ، قدر الثياب ، وكان طاملاً ايضاً ، وكان مخبره أخط من مظهره ، كان شريراً بكل ما في كلمة الشر من المعاني ، وكان رجلاً سكيراً ، فظاً ، كثير اللجاج ، محبباً للمشاكسة ، فلم تستطع ماتيلد وأنها صبراً على هذا الضيف وسرعان ما تخلصا منه ولكن رامبو وجد مأوى آخر ، واستطاع أن يتصل بالكثير من الشعراء اصدقاء فيرلين ، فسرعان ما أثر فيهم وتسلط عليهم ، ومن ثم وقع فيرلين روحاً وعقلاً تحت سلطان هذا الساحر . اما ما انتهى اليه امر هذه العلاقة بين الشاعرين فقد اختلف في اكتناه اسراره الكتاب والمؤرخون ، وإن أجمعوا على أنها العلاقة الشاذة التي يتأثر بها اثنان من جنس واحد . وهو اتهام لم يفرغ النقد من تحقيقه حتى اليوم ^(١) . اما الذي لا سبيل الى الشك فيه فهي النتائج الحزنة التي انحسرت عنها

(١) [المقتطف] علمنا من الاستاذ علي محمود طه صاحب هذا المقال ان لدى الدكتور طه حسين بحثاً طريفاً يقوم ما تواضع عليه النقد من امر العلاقة بين رامبو وفيرلين . فبذا لو أتاح الدكتور لقرأ « المقتطف » الاستمتاع بهذا البحث الجديد . ونغتنم هذه الفرصة لنحجي الاديب الكبير ونهني كلية الآداب بعودته الى احضانها

مأساة هذه العلاقة ، ولا ندحة من ان نمنسها مساً رقيقاً ، فقد جعلت حياة ماتيلد مع فيرلين أمراً مستحيلاً فدفعته الى هجرها ، ثم ساقته وصاحبه رامبو الى انكلترا ، ثم الى بروكسل ثم اورثنه إدمان الخمر ، فبالغ في نشوته الى حد نال من صحته ، وأوهن أعصابه ، ووقعه في مرض « الباسومانيا » Pasomania . ثم استمرت المأساة في عملها ، فدفعت الشاعرين الى الخوصام الشديد ، ثم رفعت يد فيرلين بالنار يطلقها على صاحبه مرات ، فاذا صاحبه جرح ، واذا فيرلين رهين سجن « مونز » ثم تخلص المأساة من رامبو ، لتتصل بحياة فيرلين وحده ، فيخرج من السجن بعد عامين ويعود الى فرنسا ثم يحصل على وظيفة مدرس بأحد المعاهد ليفقدها بعد زمن قصير ، ثم يضيق به الحال ، فيذهب بأمه الى (إردن) مؤثراً فلاحه الارض ، ولكنه لا يصيب حظاً من النجاح ، فيغادر فرنسا كلها ويعود الى انكلترا للمرة الثانية ، ثم يحن الى وطنه فيرجع اليه عام ١٨٧٨ ويظفر بمنصب استاذ في كلية « رتل » Rethal ومنها الى باريس ، واذا بالمتشرد الكبير يظهر مرة اخرى في الحي اللاتيني ، ويتصل بأصدقائه القدماء ، من الشعراء الرمزيين ، روّاد هذا الحي . ثم يبسم له الحظ قليلاً فينشر مجموعة جديدة من شعره وكتاباً آخر في تصوير بعض الشخصيات الادبية ، فيصيب من وراءها بعض المال ، وكثيراً من الشهرة والمجد ، ثم يعبس الحظ له الى الابد ، فيتخطف الموت أمه عام ١٨٨٦ ويقع فيرلين تحت وطأة المرض هيكلاً محطماً ، ولكنه رغم هذا لم يقلع عن إدمانه الخمر ، ثم تذهب به المأساة الكبرى الى نهاية الشوط ، فتأبى ماتيلد الصفع عنه ، وترفض لقاءه ، وتستأجر وحدها بطفلها الوحيد ، وهكذا يقف فيرلين حيال العالم وحده ، ثم تعبر به عشر سنوات أخرى وهو يضرب في هذا التيه الغامر والعذاب المطلق حتى يصادف « اوجيني كرانس » فيؤلف بينهما البؤس ويصدق بلبل الحب فوق طلل هذا القلب الموحش الحزين ، فيفتعش قليلاً ولا يكاد يخفق للحياة الجديدة ، حتى تتألب عليه الامراض فيعجز عن مقاومتها ، فيصرعه الموت ، وبذلك تنتهي حياته او مأساته المفجعة عام ١٨٩٦

كان فيرلين شاعراً غنائياً محبوباً ، وقد ظهر ميله الى الشعر ايام دراسته الاولى فظهر في قرصه مقدرة ونبوغاً لا يتكافى معهما عمره الصغير . اما ديوانه الاول « قصائد طابسة » فقد كانت عملاً فنياً رائعاً ، وكانت كلها شعراً غنائياً تضطرد به الموسيقى اضطراداً عجيباً ، تجد في بعضها الانافة والجمال وفي بعضها الآخر العظمة والركة . ولعل أجملها قصيدته في الخريف أرجحها شعراً وان كانت الترجمة تفقدها اجل ما فيها وهو الموسيقى

تهنيدات الرياح

رتيبة النواح

تجرح قلبي بها قيثارة الخريف

وتم صوت طائر

من السنين الغواير

للهاثف المطيف

يهزني فأصغي

ويستقيض خيالي

بالذكريات الخوالي

بالمدمع الذريف

انشدها فأبكي

وعند ذا تحملني

كورقة من فنن

قد ذبلت وانطلقت في العاصف الشفيف

وما كاد ديوانه الثاني « أعياذ مرحة » يظهر في المكاتب ، حتى اقبل عليه الادباء ، وكان حظه عظيماً من الناقد الكبير « سان بيغ » فبدأ يكتب عن فيرلين الشاعر ، كما كتبت عنه الكاتب الكبير فرنسوى كوبيه فوصفه بأنه خالق شعراً يمتاز بطابعه الفردي ، ويسترعي ارق اهتزازات العصب الانساني ، وان قوافيه واوزانه تجمع بين الحرية والترسل في اسلوب كله قوة وكله عذوبة واستعارات رائعة وموسيقية فريدة

والحق ان ديوانه الثاني « أعياذ مرحة » كان له من عنوانه نصيب عظيم ، فكانت قصائده اكثر احتفالاً بالبهجة ، وهكذا تكون روح الشاعر ، فغنائها يترجم دائماً عن شعوره بالحياة ، وتأثره بأفراحها وأتراحها ، فهي في ديوانه الأول تغشاها الكتابة ، وهي في ديوانه الثالث *Romances sans Parole* الذي نظمته في السجن ، تتجاوب بأصداء الألم الذي تضطرب به روح الطائر الحبيس ، وهي في ديوانه الثاني مرحلة تصدح بالفرح ، وتغرد بالأمل الجميل . وكما انطق البؤس فيرلين كذلك انطقه الحب ، ولم يكن غرام ماتيلد عبثاً محضاً ، فقد ألهم فيرلين أرق اشعاره وأعذب أغانيه وكشف عن جوهر روحه الصافية ، وإبداع عقله ، فن العيون الضاحكة ، ومن الشعر الاشقر الممتوج ، ومن هذا الصوت الرخيم ، استمد فيرلين الوان خياله المتلاثلة ، ومرح قوافيه ، وروعة الغامه ، ولعلك تحس هذا كله في هذه القصيدة — :

هذا هو القمر الفضي يملأ الغابة نوراً

وتم صوت ساحر يهتف تحت كل فرع

ومن ذؤابة كل غصن « يا محبوبتي »

هذا هو الغدير الرقراق كصفحة المرأة

يسبح فيه خيال الصفصافة السوداء

حيث تنث الريج

ألا فلنحلم يا حبيبتي فتلك ساعتنا

فالكون يلفقه السكون ويهفو به الحنان
كأنما تُسلسِلُ اللانهاية المشرقة الوانها
ألا انها الساعة المنتظرة

وليست اشعار فيرلين كلها بهذه البساطة ، نعم ان منها ما يعد من الاغاني الشعبية ، ولكنه أيضاً كان شاعراً رمزياً عميقاً ، ومن الواضح ان فيرلين تأثر في مستهل حياته بالخط الكلاسيكي ، ايام اتصاله بجماعة « ليكونت دي ليل » ولكنه لم يستسغه ، ولم يرض عنه وجدانه ، فصدف عنه الى طبعه الاصيل . ولكن من الواضح جداً ان فيرلين تأثر ببودلير الى حد ما ، فقد أسلفنا القول ان بودلير سبقه بنحو عشرين عاماً ، ولعل الجانب الرمزي في بودلير هو الذي استهوى فيرلين ، بيد ان الفرق بين الرجلين كان بعيداً جداً ، فهما يختلفان في الطبع وفي النظرة الى المرأة ، فقد كان لفيرلين طبع لين ، ونفس رقيقة رغم مزاجه الحاد ، ثم انه كان يحب المرأة حباً اقرب الى الروحانية منه الى الشهوة المجردة ولم تفسد المرأة حياته ولكنه الذي افسد حياتها . ولكن بودلير كان شهوانياً الى حد بعيد ، وكان ذا فلسفة خاصة فقد رمى القدر في احضانه بنسوة يستمرئ متعة الجسد ، فراح ينشد من وراء فاسفته « حواء » اخرى لا تتصل بطريدة الجنة . لقد كان بودلير ضحية المرأة اما فيرلين فكان ضحية الحجر ان اهمية شعر فيرلين في موسيقاه ، تلك الموسيقى التي وصفها النقاد بالموسيقى الموزارية نسبة لموزار الموسيقي الالماني العظيم ، فقيرلين من هذه الناحية من طائفة فيلون ، وهابني ، وادجار إلن بو ، ولكنه زاد عليهم تلك اللغة البارة التي استحدثها في شعره ، فهي لغة لها اهمية موسيقاه . لقد سكب فيها كل ما اضطرم به قلبه من الامل والحماسة والحب والقوة ، وكل ما اضطرب بين جوانحه من الاحلام والكآبة والمرح . ويجدر بي القول قبل ان أختتم هذه الدراسة ، ان فيرلين لم يعش خامل الذكر في جيله ، ولا منكور الأثر ، فقد رأى بعينه تألق نجمه في عالم الشعر ، وشهد أشعاره مترجمة الى غير لغة واحدة ، وسمع أغانيه تملأ افواه الشعب الفرنسي ، كما سمع الكثير من إعجاب أعظم كتّاب جيله شأنًا وأخطرهم رأياً ، وكان الاعتراف بمكانته من المدرسة الرمزية الحديثة أمراً مسلماً ، ولكن املاً واحداً من آماله الكثيرة الضائعة ، لم يتحقق ، فأضاف إلى عذابه الروحي وشقائه المادي ، شقاء آخر وعذاباً جديداً ظل يحز في قلبه حتى وقف عن ضرباته . فقد دفعه بؤسه ، وطار علاقته برامبو ، أن يخلص منها ويمحوها بترشيح نفسه « للاكاديمي فرنسيز » ويشير بعض النقاد إلى أسباب أخرى ترجع إلى غروره في ايامه الاخيرة واعتداده بنفسه ، ولكن من المحقق أنه كان يطمح الى الظفر بقوة الاحترام ، وإلى مكافأة الاكاديمية الضئيلة لينعم بالراحة بين دنان الحجر ، وكان يرى في تحقيق هذا الامل مجداً خطيراً يتوج حياته بالخلود . وقد وصف النقاد ذلك بأنه « كوميديا خطيرة » كما عابوا عليه طموحه « لذلك القبر المزخرف البغيض الذي يئد القرينة ويطفئ النبوغ » . ولكن الزمن حقق بعد مماته ما معجز عنه في حياته فرفعه الى مصاف العبقريين وكتب اسمه في ثبت الخالدين

عقيدة عالم كبير

للسر آرثر كيث

احس في قرارة نفسي بإحجام عن بسط عقيدتي في الانسان والحياة وما بعد الحياة وقد يكون الباعث على ذلك ولادتي في اسكتلندا ونشأتي الدينية بحسب طقوس فريق «البرسبيترين» من شيعة البروتستانت . وقد يكون لهذا الإحجام صلة بعمرى ، فقد تخطيت السنة السادسة والستين وأصبت قسماً يسيراً من الحكمة العالمية . ولكن الباعث الحقيقي على إحجامي انما هو الخشية او الخوف . فانا بحكم الطبع احد الناس . واخشى كما يخشون القطيعة الاجتماعية . ولا ريب في انني اسير في سبيلها يوم افك الختم عن حرّم نفسي وأبيح للناس المعتقدات المسيطرة على سلوكي ونظري الى الكون . ولا ريب في ان عملاً كهذا ينطوي على خطر . فهذه المعتقدات موسومة بسمة الشعور العنيف ، لانها اصبحت جزءاً منا ، وانا لنعجز عن المناقشة العلنية فيها من دون ان نهجم على رجال ونساء نحن في حاجة الى الاحتفاظ بحببتهم وصدقاتهم . لذلك يؤثر معظمنا ان يلتزم جانب الصمت في هذه الناحية

ولكن طلب المحرر حملني على ان اخرج على خطتي هذا . وهانذا اكتب وقد وُطنت العزم على ان اصارح نفسي وقرائي معاً . اقول هذا وأنا اعلم ان بعض قرائي قد يمتعض لما اقول ، ولكنني ارجو ان يكون اعترافي هذا سبيلاً الى تعزية آخرين

تباين المعتقدات

انا لست وحيداً في هذا العالم . بل ثمة في هذه الدقيقة نحو ١٧٥٠ مليوناً من الناس ، سائرين في طريق الحياة . ومنهم ملايين ، مثلي ، بدأوا الرحلة بارث مجيد من المعتقدات الصالحة ، ولكنهم بعد ان رأوا مارأوا وسمعوا ماسمعوا وتعلموا ما تعلموا اخذوا ينبذونها معتقداً معتقداً . اما انا فلم يكن الانقلاب الذي وقع لي انقلاباً فجائياً او رؤياً من نوع الرؤيا التي ظهرت لشاول في طرسوس . ولكن توالي اختباراتي وتجاربي اليومية ، اقنعتني رويداً رويداً بأن العقل دون الايمان هو رائدي في الحياة

ولسنا نجد بين الناس اثنين يقطعان رحلة الحياة في طريق واحد . فقد تحدث لاثنين او اكثر منهم الحوادث نفسها ، ولكن اجتماع هذه الحوادث وتفرقها ، يختلفان في حالة كل واحد منهم

عنهما في حالة الآخر . حياة كل انسان انما هي مغامرة فذة تختلف عن مغامرة الآخر . واذا كانت عقائدنا تختلف باختلاف الطريق التي نقطعها في حداثتنا ، فعقائد الناس يجب ان تختلف اليوم اختلافاً بيّناً او يسيراً ، فلا تماثل منها عقيدتان كل التماثل

وما زال الانسان مطبوعاً بطابع السؤال والبحث ، فمن المتعذر ، ان تصيب اتفاقاً تاماً في العقائد . وبقدر ما تختلف سبلنا في الحياة تختلف عقائدنا كذلك . ومعظم الناس مقضي عليه بأن يسير في السبيل الممهدة امامه . وهم في الغالب لا يملكون من الفراغ او الرغبة ما يمكنهم من دراسة ما يعرض لهم من ضروب الاختبار وتمثيلها . وقليل من الناس من يتاح له ان يختار طريقه ويخططها لا ريب في ان الكنيسة تستميل الى ناحيتها عقول الاحداث الجادة التواقه الى الكشف عن اسرار الكون والحياة . فهي تمهد لهم الطريق الفذة الى الحقائق الازلية ، او تبدوا كأنها تمهد لهم تلك الطريق . وقد يتاح للكهنة ان يستخلص افضل ما للفكر الانساني عن طرائق الله . بل هو يستطيع ان يتبين في رعيته الطرق التي يسلكها الناس الى الله ، فيقتنع ان قلوب الناس تنطوي على رغبة ملحة في الوصول الى عقيدة راسخة

وقد مضت قرون على الكنيسة وهي تستميل الناس اليها من هذه الناحية . ولكن العلم اخذ ينافسها في ذلك في العصر الحديث ، حتى ليدھش الباحث اذ يرى كثرة الشبان الذين يقفون حياتهم على طلب المعرفة وتوسيع نطاقها . وقد مضوا في كل سبيل يرودون ويستطلعون وعادوا بحصاد غني من الحقائق . ونحن لا يسعنا ان نغضي عن حصادهم هذا لانهم لا يستطيعون ان يتبينوا اسرار الكون والخلق من دون ان يبدعوا نظماً فلسفية لتعليل ما شاهدوا وحققوا . ومما لا ريب فيه ان التحوّل في نظر الرجال والنساء الذين ساروا في هذه السبل الجديدة اعظم من التحوّل الذي اتى على غيرهم ، وهم لذلك لا يستطيعون ان يتمسكوا بالصور الفلسفية القديمة الخاصة بالمادة والعقل وهذا القول يصدق بوجه خاص على رجال مثلي قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في دراسة المادة الحية ، وبوجه خاص اذا كانت تلك المادة مفرغة في قالب الجسم البشري

وقد اتاحت لي الطريق التي سلكتها فرصاً قلما تتاح لغيري . فقد قادني الى حيث تمكنت من فحص المكتشفات الخطيرة المرتبطة بنشأة الانسان ومكنتني من دراسة احدث واتم ما عرف عن جسم الانسان ودماغه . وحقي الوحيد في ان اعرض فلسفتي الخاصة للقراء ، قائم على ما اصبته من الخبرة في هذا السبيل الذي سلكته

ولكن قبل ان ابدأ اعترافي ، اودّ ان اشير الى مسألة اخرى على سبيل التمهيد . فقد قلت اننا لسنا نجد اثنين من ملايين المواليد ، يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة . ومما لا ينازع فيه كذلك اننا لسنا نجد اثنين يستهلان رحلة الحياة بزاد واحد من قوى الجسد والعقل . فعلى كل وجه سمه شخصية خاصة ، عند انبثاقه من الرحم . وكل طفل حين يهل على الارض يهل ببصمة على انامله خاصة به دون

غيره . وما يصدق على وجوه المواليد وبصمات اناملهم يصدق على ادمغتهم كذلك . ففي الدماغ ١٨٠٠٠ مليون خلية عصبية دقيقة لا ترى الا بالمكروسكوب . وهذه الخلايا مقسمة طوائف كل طائفة منها متصلة بالطوائف الاخرى ، وخطوط الاتصال بينها زري با كبر لوحة تليفون واكثرها تعقيداً . فلتستجد بين هذه الخلايا العصبية خلية واحدة منعزلة عن الاخرى . وجميعها يشترك في تناول الرسائل التي تنهال على الدماغ عن طريق العيون والآذان والاصابع والاقدام وغيرها من اعضاء الجسم هذا السيل المتدفق من الرسائل يبدأ عند الولادة ولا يقف حتى الموت وهو اساس اختبارنا فاذا تفهمنا هذه الصورة لبناء الدماغ وصلته بخبرة الانسان وتجاريبه ، سهل علينا ان نفهم كيف ان هذه الصورة الجديدة تؤثر في تغيير معتقداتنا او في بعضها على الاقل

هل الدماغ مزدوج التركيب ؟

عني المشتغلون بالمباحث الطبية عناية خاصة بدماغ الانسان . فوجدوا تركيبه معقداً كل التعقيد وطرق تأديته لعمله مبهمه يصعب الكشف عنها . ومع ذلك ثبتت لهم حقيقة عامة ثبوت الشمس في رائعة النهار هي ان تعقيد تركيب الدماغ ومقدرته على تأدية عمله يسيران جنباً الى جنب . فالعقل له اساس مادي . راقب دماغ الطفل من ولادته الى المراهقة ترى دماغه يكبر حجماً ويزداد تركيبه تعقيداً وانه كلما نما كذلك اتسع نطاق عمله . فاذا اصاب الدماغ في مرتبة من مراتب النمو بعلّة اوقفت عن النمو ظلت مقدرة صاحبه العقلية حيث هي لا تنمو ولا ترتقي . كذلك ترى ان مرضاً من الامراض اذا اصاب هذا الجانب من الدماغ او ذاك عطل الملكة العقلية التي مركزها في ذلك الجانب المريض . فالتهاب الدماغ السحائي اذا اصاب دماغ طالب في المدرسة اوقف نموه العقلي وترك في خلقه اراً باقياً هو دائماً اترسيء ولن يكون اثراً صالحاً قط . فانتظام العقل لا يمكن ان يتم الا اذا كان الدماغ صحيحاً في بنائه سليماً من الامراض والآفات . وفي امكان الاطباء ان يحددوا الدماغ فيضعفوا عمل بعض اجزائه فتضعف الملكات المتصلة بها وان يحقنوا بعض الاجزاء الاخرى بمواد مختلفة فيغيروا بذلك عقل الرجل وتصرفه . وبكلام آخر ان الدماغ آلة حية تحرق الوقود وتحول القوة التي تنجم عن ذلك الى شعور وفكر وذاكرة وغيرها من الملكات العقلية والنفسية . فاذا امسكنا عن الدماغ مصادر الوقود الذي يحرقه --- اي الاكسجين --- وقف الدماغ عن العمل كما تحمد النار اذا حُسرس عنها الهواة او نفذ الوقود . ولذلك لا يرى المشتغلون بالمباحث الطبية سبيلاً الى الاعتقاد بان الدماغ عضو مزدوج التركيب مؤلف من مادة وروح . لان كل حقيقة تمكنوا من امتحانها وثابتها تحتم عليهم القول بان العقل والروح انما هما مظهران من مظاهر دماغ حي كما ان اللهب مظهر من مظاهر شمعة تحترق . فاذا اصاب الدماغ والشمعة ما حالهما الى عناصرهما المستقلة بطل وجود العقل واللهب وجوداً مستقلاً . ومهما تعارض هذا الرأي مع التقاليد والآراء المنقولة فرجال

الطب لا يستطيعون ان يروا غير هذا الرأي اذا صدقوا ما تثبتته حواسهم . ولولا ذلك لما كان في امكانهم ان يشخصوا الامراض العقلية وغيرها ويصفوا لها طرق العلاج والوقاية . فالروح اذا في نظر رجال الطب تقيم في الدماغ والجهاز العصبي المعقد التركيب ولا يمكن فصلها عنهما . على ان هذا الرأي لا يستلزم به طائفة من رجال العلم الذين اشتهروا ببراعتهم في الكشف عن اسرار المادة وبنائها وعلاقتها بالطاقة . وفي مقدمة هؤلاء السر القرد ليج . ان نظره الى دماغ الانسان قائم على الاعتقاد بأن الدماغ اداة مادية لوحدة غير مادية يسميها الروح والروح في رأيه متميزة عن الدماغ تميز الموسيقى عن القيثارة الذي يعزف عليه . وهو مسوق الى هذا الاعتقاد لانه يستطيع ان يفسر به اكثر المظاهر التي يعتقد في صحتها اصحاب المذهب الروحاني . فالروحانيون يعتقدون ان العقل او الروح يجيء من الفضاء فيأخذ بتلايب البروتوبلازمة الحية ويجعل منها جسداً حياً ثم يستعمل هذا الجسد أداة لمظهره ثم لا يلبث ان يتجرد عن هيكله المادي ويرجع الى الفضاء . والفرق بين الرايين ان البيولوجي العصري يقدم الجسم والشمعة على الروح والالهب والروحاني يعكس الأمر ويقدم الروح على الجسد والالهب على الشمعة

خلود الحياة

أنا أرى ان الحياة نسيج خالد . وأرى اني والسر القرد ليج وجميع المخلوقات البشرية على الارض لسنا سوى دقائق لا ترى لصغرها في هذا النسيج الفسيح . فنسيج الحياة الذي نراه الآن على نول الزمان انما هو القطعة الاخيرة من ثوب سابق متصل الاجزاء بدأ في جوف الزمان المتقلقل في القدم وهو كذلك القطعة الاولى في ثوب لاحق متصل به لا نستطيع ان نرى نهايته . اقول هذا ولا اجعل ان علماء الهيئة الذي درسوا الشمس وعمرها يرون انه لا بد ان يحلّ زمن تصبح فيه هذه الارض داراً غير صالحة للاحياء امثالنا . ولما كانت هذه الضربة لن تحلّ فيها قبل انقضاء ملايين من السنين او عشرات ومئات الملايين فيصح القول بان خلود الحياة الانسانية عليها امر مقرر بالنسبة الينا . انا او من بالخلود . والسر او القرد ليج يؤمن به كذلك . ولكني او من بخلود الحياة الانسانية على المنوال الذي قدمت . فاذا خلدنا فانما نحن نخلد في ابنائنا واحفادنا . وكل انسان يولد وفي جسده عناصر الخلود . ولكن السر او القرد ليج يؤمن بخلود الشخصية المستقلة

على ان السر او القرد ليج قائد مجرب له مقام رفيع بين جنود العلم الطبيعى الذين يحاولون ان يسلبوا الطبيعة اسرارها ويسيطروا على قواها . وانا لست سوى جندي في جيش الاطباء الذي يحاول ان يسيطر على الامراض ويدل من سطوتها على حياة الانسان . ونحن نرى اننا لن نفلح في حربنا مع الجراثيم الا اذا درسنا الحياة واساليبها في اعضاء الانسان على اختلافها ودماغه واحدها . ولا ريب في انه فرض واجب علينا ان نستعين باخواننا علماء الطبيعة وما كشفوا عنه من اسرار

المادة وتركيبها وخصوصاً بناء المادة الحية. ألاّ اننا نرى ان تأليف مجلس علمي للنظر في حياة الانسان لا بدّ انّه يحتوي بين اعضائه على الاطباء ولا بدّ ان يكون لهؤلاء كلمة مسموعة فيه

طبيعة الموت

اذا فحص طبيب قلب مريض ووجد انه وقف عن الضرب وان رثتيه توقفتا عن التنفس حمّ بان الرجل قد مات . ولكن الحقيقة انه لم يمّت في نظر العلم . لانه اذا استطاع الطبيب ان يبني اداة تمكنه من حقن شرايين هذا الرجل الميت بدم جديد فيه عنصر الاكسجين عاد الى الرجل رشده وذاكرته وعقله وتمتع بهما ما زال هذا الدم الجديد يحقن في عروقه . ولكن اذا وقف الدم بما فيه من الاكسجين عن الدوران عشر دقائق انتقلت ملايين الخلايا التي يتألف منها الجسم الى هوة الموت السحيقة من غير امل في العودة منها

والقلب يبقى حياً بعد موت الدماغ — قد يبقى حياً ساعتين او اربع ساعات او اكثر من ذلك حتى بعد صدور الشهادة الشرعية بمحصول الوفاة . وقد يؤخذ قاب من جسد ميت وتعاد اليه الحياة بوسائل صناعية فيعود ينبض كأنه في صدر صاحبه الحي . كذلك تبقى اغشية الشرايين تبدي دلائل الحياة اربعين ساعة بعد موت صاحبها . والجسم الحي مكوّن كما لا يخفى من الوفاة الخلايا الدقيقة التي لا ترى الا بالمكروسكوب وقد ازال علماء الطب بعض هذه الخلايا من فتي ميت وحفظوها حية في معاملهم الطبية زمناً كان فيه الجسم الذي اخذت منه قد عاد الى التراب

فالوت لا يحدث في لحظة تخطف البرق . والجسم الميت يموت تدريجاً كما يفنى شعب من الجوع في مدينة محصورة ، الضعاف يموتون اولاً ثم يموت الباقون بحسب ضعفهم وقوتهم على مقاومة الجوع . فاذا كان سبب الموت ، كما يعتقد السر الثرلديج ، خروج الروح من الجسد وجب ان يكون هذا الخروج في لحظة واحدة اي من جميع اعضاء الجسد وخلاياه في آن واحد . ولكنه كما رأينا فعل تدريجي . واذا كان اساس الحياة في الانسان روحاً غير مادي فكيف يحتاج الى اشياء مادية كالهواء والماء والغذاء لحفظ الحياة . اذا دخل روح الى بيتي في الليل ووجدت في الصباح انه أكل طعامي وكرع خري وسرق نقودي حكمت ان هذا الروح مادي لا اثيري . هذا هو المبدأ الذي يبني عليه البيولوجي نظره الى روح الجسد البشري . انه يرى انه يحتاج الى غذاء مادي وانه يجب ان يتفق المادة ويحول القوة وان الوعي والشعور والذاكرة والارادة وكل المدارك التي تجمعها لفظة العقل تزول من الدماغ الحي اذا حبسنا عنه الاكسجين . فالحياة كما نعرفها لها أساس مادي والعالم الفسيولوجي لا يستطيع ان يتصور كيف يمكن وجود الحياة منفصلة عن المادة . فحياة العقل وخلوده لا يمكن ان ينمّا من غير حياة الجسد وخلوده

الجسد الميت شمعة قد طفئت . فاذا نعرف عن الشمعة المشتعلة المضيفة — ماذا نعرف عن الجسم منيراً بشعلة الحياة ؟ اننا نعلم كيف تثار شمعة الجسم الحي اذ يلزم لها نور شمعة اخرى حتى

تنيرها وقد تقدمنا كثيراً في هذا الميدان من ميادين العلم . لقد مر قرن واحد فقط منذ رأى الانسان للمرة الاولى في التاريخ دقيقة من البروتوبلازما تدعى البيضة التي منها تنشأ كل حياة انسانية ونحن نستطيع الآن ان نتبع كل درجة من الدرجات التي تمر بها هذه البيضة حتى تصير رجلاً او امرأة . فقد تتبعنا في رحم المرأة كل تغيير يطرأ على جسم الجنين من بنائه البسيط بعيد التلقيح الى هذه الاجسام التي تحير اللب في تعقيد بنائها ونموض الاسرار التي تحتجب وراء افعالها ووظائفها . كل منا يبدأ خلية من البروتوبلازما لا تكاد ترى بالمكروسكوب لصغرها . وكل منا ينتهي بحجم مؤلف من الوف الوف الخلايا . وفي استطاعتنا ان نرى جواهر من هذه الخلايا مسوقة لتقوم بعمل الجهاز العصبي وجواهر اخرى بنات عم لها تبنى منها الآلات العضلية الحية واخرى تبنى منها العظام واخرى يتركب منها الدم او الجلد او غير ذلك من النسجة الجسم واعضائه . كذلك نستطيع ان نراقب نشوء عضوي الحس الدقيقين في تركيبهما ووظيفتهما أعني العين والاذن . حتى في ساعة الموت تكون بعض الخلايا قد اشرفت على الولادة والبعض قد اشرف على الموت والخلايا الاخرى فيما بين هذين الطرفين في مراحل مختلفة بين الولادة والموت . فكأن جسد الانسان يولد ويموت كل يوم . وفي كل ساعة ترى روح الحياة او قوة الحياة تتحول اعمالاً صالحة او طالحة

فكيف نستطيع ان نعمل هذه التغيرات العجيبة التي تطرأ على خلية واحدة من المادة الحية فتحولها الى رجل عاقل ؟ اصحیح ما يذهب اليه السر القرد لدج من ان وحدة اثيرية ، او روحاً بشرية دخلت هذه الذرة من البروتوبلازما وحركت دقائقها وجعلتها تمر في ادوار النمو والنشوء المعقدة لكي تبتني لها داراً ارضية زائلة . انها لا تكاد تشرع في تكوين هذه الدار حتى تدخل عناصر التحلل تفسد عليها عملها عاجلاً او آجلاً . كلاً انه لا سهل ولا قرب للعقل ان نعمل الحقائق المعروفة عن الحياة بانها افعال وتفاعلات حيوية مادية بدلاً من ان ننسبها الى فعل وحدة خفية غير مادية كالتي يذهب اليها السر القرد لدج

لماذا يبدأ كل من البشر حياته في رحم امرأة ؟ إذا صح ما يذهب اليه السر القرد لدج من ان الجسم ليس سوى دار للروح فاننا لا نستطيع ان نعمل التلقيح وتكوين الجنين في رحم الانثى . ولكن اذا قبلنا مذهب النشوء — والادلة على وجوب قبوله كثيرة — استطعنا ان نعمل ابتداء حياة كل انسان في خلية الانثى بعد اتحادها بخلية الذكر وكيف ينمو جسم الجنين ويتطور لان مذهب النشوء يقتضي خطوات الانسان منذ ظهور الحياة على الارض . وتاريخ الانسان الجنيني يلخص هذا التاريخ المديد . فالبيولوجيون يحسبون نوع الانسان جزءاً من نسيج الحياة الذي تغلغت اوائله في جوف الزمان . فما يصح على الانسان يجب ان يطبق على الاحياء الاخرى التي تتكوّن منها اجزاء هذا النسيج فاذا قلنا بروح غير مادي لتعليل حياة الانسان لم نستطع ان نمسك عن تطبيق هذا التعليل على حياة الاميبا وهي ادنى الاحياء وابسطها تركيباً

النسودة الصباح

يا كائنات افسحي ويا دجى زحزحي
ويا سماء سبحي
الفجر لاح

ويا بحار انشدي ويا طيور غردي
ويا مسافر اهتد
هذا الصباح

سلام على الكائنات سلام يحدّ فيها قواها العظام
ويبعث فيها الهدى والسلام

مناظر الجبال بالنور والظلام
في باذخ الجلال
تعظم

وغورها المريب بعيدة قريب
وسجره العجيب

يلسم

تهرج في الافق الوانه وعاد الى القلب ايمانه
وزالت عن الصدر اشجانه

يا نائمين استيقظوا من نومكم واتعظوا
الكون هب يلفظ
شكر الاله

تنفّس الصباح وانطلق المراح
واحمد السراح
الى الحياه

فبعداً ليل قضي وامحى وقرباً لنور زها موضعا
واهلاً وسهلاً بشمس الضحى

منبر الرسول وتطور المنابر

المقصورة والمحراب المجوف

بقلم جناب الكبت كرسويل استاذ الهارة الاسلاميه بالجامعة المصرية
ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

(١) المنبر

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يخطب وهو مستند الى جذع نخلة^(٢) مثبت في الارض ولكن في سنة ٧ هجرية (٦٢٨/٩ م) كما روى الطبري او في سنة ٨ او ٩ هجرية كما روى آخرون اتخذ منبراً من خشب الائل الذي كانت تنمو اشجاره بوادي الغابة^(٣) ويقال ان الذي صنع هذا المنبر روي يدعى باقوم او باقول^(٤)

وكان هذا المنبر كرسياً ذا ثلاث درجات^(٥) يجلس النبي على الدرجة الثالثة منه وهي العليا واما قدميه على الدرجة الثانية . وكان ابو بكر الخليفة الاول يجلس على الدرجة الثانية ثم لما تولى عمر الخلافة صار يجلس على الدرجة الاولى واما قدميه على الارض . وقد كان هذا المنبر الذي لصادف

(١) رغب الينا اخواننا في ان نردف احداث جناب الكبت كرسويل التي نترجمها عنه ببعض النصوص العربية من المصادر المعترف بها عند المسلمين . فنزولا على رغبته قد أضفنا الى هذا البحث بعض النصوص العربية التي وجدنا فائدة في اضافتها . وفي كثير من الاحيان وجدنا هذه النصوص مكررة في كثير من الكتب فآثرنا ان نثبتها او نصين وان نشير الى البعض بذكر الكتاب ومؤلفه ورقم الصفحة والجزء وصرنا صفحاً عن الباقي (المغرب) (٢) . . . عن ابن عمر « كان النبي (صلم) يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه . . . الخ » صحيح البخاري طبع ١٣١٤ جزء ٤ ص ١٩٥

... وعن جابر بن عبد الله قال « كان النبي (صلم) يخطب الى جذع قبل ان يتخذ المنبر . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء اول ص ٢٤٩ وايضا سنن الدارمي جزء اول ص ٣٦٧
... وعن جابر بن عبد الله قال « كان جذع يقوم اليه النبي (صلم) فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل اصوات العشار . . . الخ » صحيح البخاري جزء ٣ ص ٩ (المغرب)

(٣) . . . عن سهل بن سعد قال « كان من أئمل الغابة يعني منبر رسول الله صلعم » مسند احمد بن حنبل جزء خامس ص ٣٣٥ (المغرب)

(٤) يؤكد آخرون ان هذا الروي هو الذي وضع للكعبة سقفاً عند ما أطادت قريش بناءها وانه لم يصنع المنبر وانما صنعه نجار آخر من المدينة

(٥) . . . عن سهل بن سعد انه سئل عن المنبر من أي عود هو ؟ قال « أما والله اني لاعرف من عمله واي يوم صنع واي يوم وضع ورأيت النبي (صلم) يوم جلس عليه . ارسى النبي (صلم) الى امرأة لها غلام نجار فقال لها مري غلامك النجار ان يعمل لي اعواداً اجلس عليها اذا كنت الناس فامرته فذهب الى الغابة فقطع طرفاء فعمل المنبر ثلاث درجات فارسلت به الى النبي (صلم) فوضع في موضعه هذا الذي ترون فجلس عليه اول يوم وضع . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء ٥ ص ٣٣٩ وانظر ايضاً صحيح البخاري جزء ١ ص ٩٣ وجزء ٢ ص ٩ وجزء ٣ ص ٦١ و ١٥٤ (المغرب)

الآن لأول مرة في الاسلام موضوع دراسة قام بها بكر^{*} Becker نلخصها فيما يلي
اتخذ محمد المنبر حينما شأنه وصار يستقبل الوفود من جميع الانحاء . وكذلك كان ابو بكر
الخليفة الاول يأخذ البيعة في حفل عام وهو جالس على منبر . وهكذا كان يفعل الخلفاء من بعده
عقب انتخابهم للخلافة مباشرة وولاية الاقاليم في البلاد التي فتحها الله على العرب فكان الوالي عقب
توليهِ منصبه يعتلي المنبر . ويشيرون الى ذلك عادة بقولهم « واعتلى فلان المنبر في جهة كذا » .
وكان هذا ضرورياً قبل مباشرة مهام عمله^(٦)

ويستنتج « بكر^{*} » من ذلك ان المنبر الذي رأيناه كان في اول امره مقعداً ذا درجتين ولم تكن له
معنى او دلالة دينية في الايام الاولى للاسلام . فلم يكن سوى المكان الذي يجلس فيه النبي صلى الله عليه
وسلم وخلفاؤه الاولون عند عقدهم المجالس او في ايام الاعياد . فكان بذلك نوعاً من العرش يجلس
عليه رئيس المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت

وكان المنبر معروفاً في العصر الجاهلي ولم يكن في اول امره سوى المقعد الذي يجلس عليه
رؤساء العرب القدماء . فلما جاء الاسلام اتخذ مقعداً يجلس عليه الحكام المسلمون . ولعل هذا ناشئ
الى حد ما من تأثرهم بفكرة اتخاذ العروش وهي فكرة شرقية قديمة . فكان يجلس عليه الرسول
وخلفاؤه من بعده عند ما ينظرون في الشؤون العامة

وحينما نهى عمرو بن الخطاب عمر بن العاص عن اتخاذ منبر بالفسطاط كان ذلك لما للمنبر في تلك
الايام من الدلالة القديمة اذ كان يعتبر العرش المقدس الذي يجلس عليه خليفة رسول الله

وكان المنبر والعصا هما علامتا الشرف اللتان يتميز بهما الوالي او القاضي في صدر الاسلام وربما
كان ذلك متمعاً ايضاً في عصور الوثنية السابقة ثم تطورت العصا حتى صارت صولجاناً وساعد على
تطورها ما كان عند الفرس والروم من الصوالج وخاصة بعد وفاة الرسول وفي عهد بني امية

ويرى « بكر^{*} » ان تطور المقعد الى منبر قد بدأ حينما أضيف الى المصلي ويعزي ذلك الى معاوية
(٦٦١/٦٨٠ م) او الى مروان واليه على المدينة . اما عن مصر التي لدينا الكثير من اخبارها وتاريخها
فاننا نعلم ان جميع مساجدها في القرى قد اضيفت اليها المنابر في سنة ١٣٢ هجرية (٧٤٩/٥٠٠ م)^(٧)

ومن ذلك يستنتج « بكر^{*} » ان المقعد القديم قد تحول تحولاً تاماً الى منبر وعم استعماله في المدة
الواقعة بين حكم معاوية وسقوط الدولة الاموية ٧٥٠ م

(٦) يرى لامنس Lammens انه بعد الفتح كان للكوفة والبصرة وغيرها من مدن العراق منابر .
وكذلك كانت توجد المنابر في اجناد الشام . مثال ذلك انه بعد ان انشأ يزيد الاول جند قنسرين مباشرة سمعنا عن
وجود منبر هناك . كما ان عمرو بن العاص كان قد اتخذ منبراً بالفسطاط عقب فتح مصر ولكن عمر بن
الخطاب نهاه عن اتخاذه وانكر عليه ذلك (٧) جاء بالمقريري جزء ٤ ص ٨ ما يأتي : ولم يكن يخطب في القرى
الا على العصا الى ان ولي عبد الملك بن موسى بن نصير اللخمي مصر من قبل مروان بن محمد فامر بالتخاذ المنابر في
القرى وذلك سنة ١٣٢ هـ (المغرب)

اصل كلمة منبر

اما عن اصل كلمة منبر فقد اوضح شوالي Schwally ونولدك Nöldeke انها من اصل اتيوبي (حبشي) وهذا لا يدهشنا كثيراً لأنه توجد الفاظ كثيرة في القرآن نفسه من اصل اتيوبي اُضيف الى ذلك ان بلالاً مولى رسول الله كان عبداً حبشياً وان ام سلمة احدى زوجات النبي كانت ممن هاجروا الى الحبشة قبل هجرة الرسول الى يثرب بيضع سنين وان اهل مكة كانت لهم علاقات تجارية دائمة مع الحبشة ومينائها مصوع التي كان الوصول اليها بحراً امراً ميسوراً

تطور المنبر

كان عمرو بن العاص قد اتخذ منبراً فكتب اليه عمر بن الخطاب رسالة شديدة اللهجة ينهيه فيها عن اتخاذ المنبر ويعزم عليه في كسره^(٨) وقد جاء بها (اما يحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك) فكسره عمرو وقد سبق ان اشرنا الى هذه الحادثة^(٩) . وفي خلافة عثمان بن عفان ظهر المنبر ثانية في مصر وقد روى ابن دقاق والمقرئزي وأبو المحاسن ان زكريا بن مرقى (او مرقنا) ملك النوبة المسيحية اهدى منبراً الى عبد الله بن سعد بن ابي السرح والي مصر من سنة ٢٤ - ٣٦ هـ و (٦٤٤ الى ٦٥٦ م) وبعث معه نجاراً حتى ركبته يدعى بقطر من اهل دندرة وبقي هذا المنبر في مسجد عمرو حتى ازاله قرة بن شريك ونصب منبراً جديداً سواه^(١٠) . ويقول ابن دقاق والمقرئزي وابو المحاسن ان هناك رواية اخرى بأن المنبر الذي ازاله قرة لم يكن قديماً وأنه منبر عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ / ٧٠٥ م) ويضيفون الى ذلك عبارة هامة هي ان هذا المنبر حمل اليه من بعض كنائس مصر^(١١) وهذا يدلنا على ان الشكل الذي كان عليه المنبر في المساجد الاسلامية مستمد من المنبر المسيحي ويؤيد ذلك المنبر ذو الست الدرجات الذي عثر عليه كويبل Quibell في سقارة وهو في رأي كويبل النموذج الذي صنع على مثاله المنبر الاسلامي وبناء على ذلك فنحن نرجح ان المنبر في الاسلام قد اتخذ الشكل الذي هو عليه (عدا منبر محمد) من منبر الكنيسة المسيحية الشرقية

المقصورة

يقول ابن خلدون في مقدمته ص ٢٣٤ : « فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سجاجاً على الحراب فيحوزه وما يليه فأول من^(١٢) اتخذها معاوية ابن ابي سفيان حين طعنه

(٨) مقرئزي جزء ٤ ص ٦ (٩) يضيف المغرب انه ورد بمقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ نص هذه الرسالة كما يلي (اما بعد فقد بلغني انك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك فغزمت عليك الا ما كسرت) (١٠) مقرئزي جزء ٤ ص ٨ (١١) نصب المنبر الجديد سنة ٩٤ هجرية وقد اشار الى ذلك السيوطي في كتابه حسن المحاضرة جزء ٢ ص ١٣٤ (١٢) جاء بكتاب خطط المقرئزي جزء ٤ ص ٧ ما يأتي : ذكر عمر بن شبة في تاريخ المدينة ان اول من عمل مقصورة باين عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها الى الامام . . . الخ « وعلى ذلك فقد يكون عثمان هو اول من اتخذ المقصورة وليس معاوية بن ابي سفيان ولا مروان بن الحكم

الخارجي والقصة معروفة . او قيل اول من اتخذها مروان بن الحكم^(١٣) (٦٨٣/٥ م) حين طعنه الجاني ثم اتخذها الخلفاء من بعدها وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة . وانما هي تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن احوال الابهة كلها . وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف . واما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظها من الترف وجاء ابو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده »

هذا هو التفسير المقبول عادة لاتخاذ المقاصير ولكن لامنس Lammens يعارضه وهو يرى ان المقصورة كانت في مبدأ امرها غرفة خاصة بالحاكم في مسجد الجماعة يقصد اليها للمشاورة او الراحة بين اوقات الصلوات وان ما قيل من انها اتخذت لرغبة الخلفاء في العزلة والبعد عن العامة او على سبيل الحيلة لسلامتهم الشخصية فكل هذه ليست من الاسباب المقبولة في نظره

اولاً — لان الخليفة بمكانه على المنبر كان مميزاً تمييزاً كافياً عن العامة وجمهور المصلين

ثانياً — لان الامويين كان لهم حرمهم الخاص في المسجد

وقد اوضح ايضاً ان سنة ٤٤ هـ (٦٦٤/٥ م) التي يروي اليعقوبي انه اتخذ فيها المقصورة سابقة في تاريخها لمحاولة الخوارج اغتيال معاوية ولذلك لا يكون تفسير ابن خلدون في نظره تفسيراً مقبولاً . فاذا سلمنا بقول لامنس هذا ، فانه مع ذلك تبقى امامنا تلك الحقيقة التاريخية الثابتة وهي ان ثلاثة من الخلفاء الراشدين الاربعة قد قتلوا ، وان اثنان منهما كان قتلها بالمسجد . وعلى ذلك فقد كان لدى معاوية من الاسباب ما يسوغ اتخاذه الحديقة وانشاء المقصورة بالمسجد . اما عن قول لامنس انها كانت غرفة خاصة ، فليس بين المقصورات الآن ما ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي ، لانها كانت جميعاً حتى النصف الاول من القرن الحادي عشر عبارة عن حازر مكشوف من المشربيات كما في القيروان . وكذلك كانت المقصورة التي بالقرطبة مكشوفة وكانت تتكوّن من اعمدة تعلوها حجارة منقوشة بلغت الغاية في جمالها وروعها

المحراب المحوف

اعادة بناء مسجد المدينة سنة ٨٨ — ٩٠ هجرية و٧٠٧ — ٩ م

يقول البلاذري^(١٤) « كتب الخليفة الوليد الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم

(١٣) جاء بكتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢ عند كلامه عن مسجد المدينة ما يأتي : « وكان اول من اتخذ (مسجد المدينة) المقصورة مروان بن الحكم بن العاص بن امية بناها بحجارة منقوشة . . . — الخ المغرب »
(١٤) البلاذري ص ١٢ وما بعدها (كتاب فتوح البلدان) (المغرب)

المسجد وبنائه وبعث اليه بعال وفسيفساء ورخام وثمانين صائعاً من الروم والقبط من اهل الشام ومصر فبناه وزاد فيه وولى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك سنة ٨٧ ويقال سنة ٨٨ وروى اليعقوبي ان الوليد امر عمر بن عبد العزيز ان يهدم المسجد فهدمه وهدم كذلك حجرات زوجات النبي ووسع المسجد باضافة ارض هذه الحجرات اليه . وان امبراطور الروم ارسل مائة الف منقال من الذهب واربعين حملاً من الفسيفساء وانه فرغ من بناء المسجد سنة ٩٠ هجرية وروى السمعوني (١٤٨٨) نقلاً عن الواقدي المتوفى (٨٢٣) ما يأتي : —

« عن عبد الله بن يزيد قال : بنى القبط مقدم المسجد وبنى الروم جوانبه ومؤخره » ذكرنا هذه الروايات لما لها من المكانة في تاريخ بناء هذا المسجد واشارتها الى العمال والصناع الذين اشتركوا في بنائه والجزء الذي بنته كل طائفة منهم . ونتقدم بعد ذلك لمعالجة موضوع الحراب الجوف . فقد استحدث هذا النوع من المحاريب لأول مرة في المساجد الاسلامية في مسجد المدينة في عهد عمر بن عبد العزيز . وقد روى ابن دقاق والمقرئ (١٥) نقلاً عن الواقدي « ان اول من احدث الحراب الجوف هو عمر بن عبد العزيز حين اعاد بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم » وهذه العبارة مع شيوعها وكثرة اقتباسها والاستشهاد بها فع الاسف فان النص الذي يشير اليه المقرئ ليس هو النص الذي يعزى اليوم الى الواقدي ولذلك لا يمكننا ان نحزم بصحتها . ولكن نظراً لأهمية الموضوع الذي نحن بصدد فاننا نميل الى الاخذ بها لورودها في كتاب ابن بطوطة (١٣٢٦) وفي الترجمة الفرنسية لكتاب المرتضى (١٦) الذي كتبه مؤلفه بعد وفاة السلطان الكامل بقليل اي حوالي ١٢٤٠ م . على اننا يمكننا ان نرجع الى مؤلفات ابعده عهداً من هذه في القرن الثاني عشر فقد نقل ابن شاكر المتوفى سنة ١٣٦٢ عن ابن عساكر المتوفى ١٧٦ م انه بعد ان فتح خالد بن الوليد دمشق صلى فيما يعرف الآن بالمسجد الاموي بدمشق وان اصحاب الرسول كانوا يصلون في المكان الذي يعرف بمحراب الصحابة وان هذا الحراب لم يكن مجوفاً

وهذا يدل على ان المحاريب المجوفة لم تكن معروفة عند ما فتح المسلمون دمشق فلما بنى المسجد الاموي بدمشق في عهد الوليد بن عبد الملك جعلت به المحاريب المجوفة وفي هذا المسجد الآن اربعة محاريب مجوفة يعرف احدها وهو الواقع بالنصف الشرقي من الحائط الجنوبي باسم محراب الصحابة تيمناً بذلك الاسم القديم الذي كان يطلق على محراب الصحابة عند فتح العرب دمشق

(١٥) خطط المقرئ من ٥ جزء ٤ وحسن المحاضرة للسيوطي ص ١٣٤ جزء ثان
(١٦) يشير المرتضى الى ذلك بقوله : ان عمر بن عبد العزيز هو اول من احدث الحراب الجوف ولكنه لا يذكر المكان الذي احده فيه اذا كان بالمدينة او غيرها . ويلاحظ ان كتاب المرتضى هذا قد ضاع ولا يوجد الآن الا ترجمته الفرنسية التي ترجمها فاتييه Vattier من نسخة مخطوطة كانت محفوظة بمكتبة الكردينال مازارين ونشرت بباريس سنة ١٦٦٦ (المغرب)

محراب جامع عمرو

ولما هدم قرة بن شريك (٩٢ - ٩٣ هـ) جامع عمرو بالفسطاط واعاد بناءه ووسعه جعل به محراباً مجوفاً كان يعرف بمحراب عمرو ولو انه لم يكن من عمله (لانه كان في سمت محراب المسجد القديم الذي بناه عمرو) . « وكانت قبلة المسجد القديم عند العمدة المذهبة وهي اربعة اثنان منها في مقابلة اثنين وكان قرة اذهب رؤوسها ^(١٧) » لتكون دلالة على موضع المحراب القديم ومن ذلك يتضح ان المحراب المجوف لم يكن معروفاً بالمساجد الاسلامية بمصر قبل قرة بن شريك

اصل المحراب المجوف

ان تلك العبارة التي يرويها السهمودي نقلاً عن الواقدي واثرتنا اليها من قبل تعتبر في نظرنا ذات شأن اساسي لحل هذه المسألة لان وقوع المحراب في الجزء الذي قام ببنائه الاقباط بمسجد المدينة بحملنا على الاعتقاد انه من اصل قبطي مسيحي وهذه النظرية التي تقررناها يسلم بها كثير من الكتاب والباحثين وقد نقل لامنس Lammens عبارة هامة عن مؤلف للسيوطي ملخصها انه في اوائل القرن الثاني الهجري كانت الصلاة في المحراب المجوف محرمة عملاً بالاحاديث والسنة « لانه من شأن الكنائس » وان اتخاذه في المساجد هو من علامات اقتراب الساعة . وقد اشار « بكر » Becker الى مؤلف آخر ^(١٨) من مؤلفي القرن الرابع عشر كان يقول ان المحراب هو اقل اجزاء المسجد قداسة . وكان ينهي الامام عن الصلاة فيه . والجزء الوحيد المجوف في الكنيسة القبطية هو الهيكل . فاذا اخذنا قليلاً من الامثلة القديمة لذلك وليكن مثلاً هيكل دير الانبا ارميا Apa Jeremias بسقارة فان الشبه بينه وبين المحراب القديم واضح جداً حتى اننا لا نتردد في قبول ما رواه هذان المؤلفان المسلمان الاذان اشرنا اليهما من قبل . ويتضح من ذلك ان المحراب المجوف قد امتد من اصل مسيحي واتخذ في المساجد الاسلامية مع بعض الكراهة وعدم الرضى من المسلمين

اصل كلمة محراب

وردت هذه الكلمة في أشعار العرب قديماً غير انها لم يكن لها معنى ديني في تلك الايام بل كانت تدل على اشياء دنيوية . ويرى نولدك Nöldeke انها كانت تعني بناء الملك او الامير وقد حاول رودوكونا كيس Rhodokonakis في تعليقه على كتاب نولدك ان يحدد معنى هذه الكلمة وان يوضح الجزء الذي يطلق عليه هذا الاسم من بناء الملك او الامير فذكر انه هو المكان الذي يختص لوضع العرش فيه (كما في قصير عمرة مثلاً)
فاذا كان هذا صحيحاً سهل علينا ان نعرف لماذا اطلقت هذه الكلمة على المحراب المجوف الذي انشأه الاقباط الذين كانوا يشتغلون بمسجد المدينة على مثال هيكل كنائسهم !!

(١٧) مقريري جزء رابع ص ٩ (١٨) هذا المؤلف هو ابن الحاج وكتابه يسمى المدخل وقد توفي سنة ١٣٣٧ م (كما اخبرني بذلك جناب السيوفيت)

السر سعيد شقير باشا

للحياة في ابنائها مآرب ، تعبد هذا العلم ، وذاك للفن ، وتهب ذلك للوطن يخوض ميادين السياسة والاقتصاد او معترك النضال والسيوف في سبيله . ولها في تحقيق مآربها اسرار ، نعجز عن اكتناهاها او امانة اللثام عنها ، فنرى الرجال مسوقين في سبيل اذا حاولنا تبين مداها بعقولنا القاصرة ارتدّ العقل قليلاً عاجزاً . ولكنها سبل تفضي دائماً الى ما تريد ان تحققه الحياة بواسطة ابنائها ، ولو شطت الصلة بين الطريق في اولها والغرض في نهايتها . والا فكيف نستطيع ان نفهم مثلاً سيرة رجل كنبوليون وكلد في اجاشيو وجزيرة كورسيكا لم تكذب نخرج من حكم الطليان ومات منفياً في جزيرة القديسة هيلانة ، بعد ان دوّخ اوربا وثلّ عروش ملوكها ونصب لنفسه عرشاً ناطه بالنجوم . وكيف يستطيع عقل بشري ان يتبين في السبيل الاول الذي طرقه الملازم بونابرت ذلك المجد العريض وتلك النهاية المفجعة ؟ ولكنها الحياة ارادت ان تذيع الاركان التي قامت عليها الثورة الفرنسية فسأقت نبوليون الى طولون ومنها الى باريس . ثم لما قضت منه لبانها ، وقام هو يمتن تلك المبادئ التي نشرها ، خطت له سبيلاً يسير فيه من باريس الى واترلو الى جزيرة القديسة هيلانة . والامثلة على ذلك كثيرة قد يتعذر حصرها

ولعلّ أحدثها في شرقنا العربي يتجلى في سيرة السر سعيد شقير باشا رحمه الله . فمن كان يدري ان فتى شقيرياً ولد في بلدة الشويفات اللبنانية في العقد السابع من القرن الماضي ، تسير به الحياة في سبل مختلفة ليس بينها وبين السودان صلة ما ، الى ان تجعل اسمه مقترناً بتاريخ السودان الحديث . ثم تدفعه في سبيل القاهرة فينال من خديوي مصر وسلطانها الرتب والوسمة والنياشين ، ففي طريق لندن فيمثل بين يدي جلالة الملك جورج فيقلده وساماً كبيراً من أوسمة الامبراطورية ولقباً شريفاً من القابها . ولو لم ترده الحياة لذلك لما حدث ذلك الخلاف بينه وبين احد تلاميذه في جامعة بيروت الاميركية - الشيخ يوسف الخازن - مما حمله على ترك التعليم الى الابد ، بعد ان تنبأ له رؤساؤه بمستقبل مجيد فيه . ولو لم ترده الحياة لذلك ، لما هيأت له ان يدرس اللغة العربية للمستر ملنر مستشار المالية المصرية (لورد ملنر بعدئذ) اذ كان يعمل في قلم التحرير في ادارة المقتطف والمقطم . هذه الصلة بين المستشار الانكليزي ومدرسه الشويفاتي اللبناني مهتدت لسعيد شقير دخول السودان . وهناك وقفت الحياة تنظر من على ، الى خلق سعيد شقير ، وذكاؤه ، وهنئه ، وجلده ، تتم الباقي ، في خروجه من منصب مترجم في سواكن ، الى مقام الرجل المسيطر على مالية السودان بعد ان نظمها واقامها على اساس متين

وليد الفقيد في الشويفات بلبنان من اسرة عرفت في تلك البلاد بنباهة الشأن وكرم المحدث ونفع منها افراد في الادارة والسياسة والتجارة والادب . والشويفات معروفة على الساحل اللبناني ، بكثرة المدارس والمعاهد وقد تخرج فيها طائفة من حملة وحاملات لواء الادب والعلم في الأقطار الشرقية . فترعرع في جوٍّ يحترم فيه العلم ويرفع مقام الادب ، فكان ذلك حافزاً لما انطوى عليه خَلْقُهُ من ملكات كامنة . فلما كبر طلب العلم في جامعة بيروت الاميركية ، وامتاز في عهد الطلب بالذكاء والنشاط وقوة الشكيمة ، وبعد ما نال شهادتها النهائية سنة ١٨٨٦ دعي الى التدريس فيها ف قضى في ذلك ثلاث سنوات ألف في خلالها كتاباً في الصرف بالاشتراك مع صديقه يوسف افيتموس وآخر في النحو وترجم ثالثاً عنوانه التقدم الذاتي . وقد وصفه احد تلاميذه (١) في ذلك العهد وصفاً بليغاً قال فيه :

« عرفت سعيد شقير لما تلمذت له وهو شاب في مقتبل العمر ومطلع ربيع الحياة تسيل القوة من عطفه ويسطع الذكاء في عينيه . ويري ناظره في اسارير وجهه ما ينم على عزم صادق يلطف من حدته ثغر باسم وميل فطري الى بهجة الحياة الصحيحة . فما لبثت هذه الاخلاق ان اخذت تقوى وتعتز وتوثي ثمرها وصاحبها يتدرج في معارج العمل ويرقي في منازل النجاح والفلاح فيجد في كل منها مجالاً متسعاً لمواهبه الكثيرة فلا يزيده النجاح إلا اقداً ولا يخلق فيه الفوز سوى توطيد العزم على المضي في هذا الطريق بهمة لا تني ورغبة تدفعها القوة ويدكي نارها الشباب

« كان يدرسنا اللغة العربية وقد احبها حباً جماً ويسعى ليطلعنا بطابعها فلا يطنف عليها تيار اللغات الاجنبية التي كانت تنافسها في الدروس والفصول فينشئ فينا الميل الى محاسنها وارتداد مجاهلها وكشف مزاياها . . ولطالما استوقفنا ساعات في فناء الجامعة في بيروت يطرح علينا الاسئلة في النحو والاعراب وبذلكي فينا نار الحماسة لهذه اللغة وقد ضرب فيها بسهم وافر واصاب منها حظاً كبيراً وله من كتابه الموسوم باسم « طيب العرف في علم الصرف » وما جبر من رسائل وما ترجم من كتب وما خطب في ذلك الحين وما بعده دلائل على شدة عنايته واتجاه ميله وعاطفته »

وجاء الى مصر في سنة ١٨٨٩ واشتغل اولاً محرراً في ادارة المقتطف والمقطم وكان إذ ذاك المستر الفرد ملنر (لورد ملنر بعدئذ) مستشاراً مالياً للحكومة المصرية فطلب من أصحاب المقتطف والمقطم ان يرشدوه الى من يدرسه اللغة العربية فبعثوا اليه بسعيد شقير فأعجب ملنر بذكائه وسرعة خاطره ومقدرته وكان أول من تنبأ له بمستقبل باهر حافل بالخدمة والاعمال المجيدة

وحدث في أثناء الثورة المهدية بالسودان أن احتفظت الحكومة المصرية بسواكن وسواحل البحر الاحمر وعينت لها محافظاً عسكرياً فاحتاجت في سنة ١٨٨٩ الى مترجم بارع ليعمل مع المحافظ فأرشد ملنر الى سعيد شقير فعيّن مترجماً للمحافظة في أول سبتمبر سنة ١٨٨٩ فتجلّت

(١) خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم في المقطم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٤

مواهبه ومقدرته حالاً فرقي الى منصب سكرتير للمحافظة في سنة ١٨٩٢ وأنعم عليه بالرتبة الثالثة سنة ١٨٩٢ وبالثانية سنة ١٨٩٧

وكان بين الذين تقلدوا منصب محافظ للبحر الأحمر المرحوم اللورد كتشنر (قبل ان يصبح سرداراً للجيش المصري) والسر رجينالد ونجت باشا (قبل ان يصبح مديراً لقسم المخابرات بالجيش المصري) فأعجب كلاهما به واعترفا بذكائه واجتهاده فوسعا سلطته وجعلاه المتصرف المطلق بجميع أمور المحافظة ما عدا العسكرية منها . فلما تم فتح السودان واصبح اللورد كتشنر حاكماً عاماً له تذكر ذلك الموظف النشيط فاستدعاه لمصر وعهد اليه في الاشتراك في تنظيم مالية البلاد ووضعها على اساس ثابت . قال له اللورد كتشنر اني قد استدعيت خبيراً مالياً انكليزياً اسمه المستر هرمن ليكون سكرتيراً لمالية السودان انما ارغب في ان يكون معه رجل خبير باحوال البلاد فاذا كنت ترى المقدرة في نفسك والكفاءة لذلك فاني اعينك مساعداً له مع العلم بانني سأتكفل عليك انت في نجاح العمل واجعلك مسؤولاً مع المستر هرمن عن تنظيم المالية فاذا وفقت الى ما به خير السودان بنيت لنفسك مستقبلاً باهراً والا . . . قال كتشنر : هذه مهمتك فاما ان ترفعهك واما ان تضعك ، فهل انت لها ؟ فاجاب سعيد بك انه مستعد ان يضطلع باعباء العمل وانه واثق بالنجاح وخلف السر رجينالد ونجت اللورد كتشنر حاكماً عام للسودان واستعفى المستر هرمن من مالية السودان فلم ير ونجت باشا ضرورة لاستدعاء خبير مالي جديد لاعتماده على سعيد باشا فعين احد الضباط الانجليز (المرحوم السر ادجار برنار باشا) سكرتيراً مالياً حاكماً ان الامور ستسير على احسن منوال بمقدرة سعيد باشا وحمته وفعلاً لم تمض بضعة سنوات حتى برهن سعيد باشا على نبوغه وكفاءته فنظم ايرادات البلاد الجديدة ونفقاتها على احسن ما يرام وشهد بذلك كل من كان له اتصال بمالية مصر والسودان . وظل يدأب على تنظيم هذه المالية من دون ملل او كلال متقللاً بين مصر والخرطوم من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٢ عند ما وجد ان ذهابه الى السودان لم يعد ثمة ضرورياً فبقى ماثراً على عمله بها وهو بفرع المالية في وكالة حكومة السودان بمصر اما عن نزاهته ونشاطه وثباته على العمل فحدث ولا حرج فانه كان اول من يحضر الى دائرة العمل ولا يتركها قبل الساعة الثانية او الثالثة بعد الظهر ثم يعود اليها في نحو الساعة السادسة ولا يغادرها قبل الساعة التاسعة وذلك في ايام العمل العادية اما اذا حان موعد انجاز الميزانية فانه كثيراً ما كان يبقى في الديوان الى منتصف الليل او بعده ولم يكن ينقطع عن العمل في يوم عيد او عطلة على الاطلاق . وكان الموظفون يشكون عدم الانتظام في اوقات العمل والراحة وانما كان يحفزهم الى النشاط مشاهدتهم رئيسهم في الطليعة . كما ان عطف سعيد باشا عليهم واهتمامه الدائم بمصلحتهم كانا ينسيانهم ما قد يعانونه من إرهاق في العمل ولم يكن خافياً على كل من كان له اتصال بحكومة السودان ان جميع المشروعات والتقارير والمذكرات

المالية ذات الشأن بدون استثناء كانت من عمله ولذلك كان رؤساء المصالح والمديرون الانكليز في السودان يتصلون رؤساً به في جميع الامور التي كان يهمهم انجازها وكانوا يسعون الى ارضائه بجميع الوسائل فاذا سافر هو او احد افراد أسرته على سكك حديد الحكومة او سفنها كانت تصدر الاوامر من رؤساء هذه المصالح بالاعتناء التام براحتهم . وكان اذا مرض هو او أحد افراد أسرته يبادر رئيس المصلحة الطبية بنفسه الى عيادتهم . وقد حاز بمجده وباستقامته ونزاهته ومقدرته احترام جميع موظفي حكومة السودان ومحبتهم من انكليز ومصريين ووطنيين . ونال في اثناء خدمته رتبة التمايز في سنة ١٩٠٢ ورتبة الميرميران والباشوية سنة ١٩٠٩ والنيشان المجيدي الثالث سنة ١٩١٣ والنيشان المجيدي الثاني سنة ١٩١٤ والنيشان النيل الثاني سنة ١٩١٧

وكان الفقيد مصطفىاً في لبنان سنة ١٩١٣ فدعاه متصرف لبنان يوهانس قيوجيان باشا الى بيت الدين وطلب اليه ان ينظر في ميزانية لبنان ويضع له تقريراً عنها ، فنزل هو وقرينته الفاضلة ضيفين على المتصرف في سراي الحكومة اياماً تفرغ فيها سعيد باشا للبحث في الموضوع ووضع تقريراً نفيساً فيها . وندب في سنة ١٩١٩ لمراقبة مالية حكومة المرحوم الملك فيصل لان وزارة الحربية الانكليزية في ذلك العهد أمدت الملك فيصل بمبالغ جسيمة من المال لتساعده على استقرار حكمه في سوريا ولم تجد من يقوم بمهمة مراقبة المصروفات وتنظيمها افضل من سعيد باشا . ولما احيل على المعاش سنة ١٩٢١ انعم عليه بنيشان الامبراطورية البريطانية من درجة فارس مع لقب سر

ورغبت حكومة السودان في الانتفاع بخبرته فجعلته مستشاراً لها بمصر فضى في القيام بعمله الى اليوم الذي أصيب فيه بالضربة القاضية التي اودت بحياته الثمينة خمسة ايام بعد ذلك ^(١) قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة علمية ادبية وقد ظل الى آخر حياته الحافلة كلفاً بالادب والشعر واللغة ، حريصاً على الدرس والمطالعة يحفظ من جيد الشعر طائفة من خير ما جادت به قرائح الشعراء النقدمين والمتأخرين وكان المتنبى اقربهم الى نفسه . وما رح يشجيه الشعر العربي كما يطربهُ الغناء الشرقي مع انه الف العيش في الاوساط الغربية بحكم عمله وصلاته

وقد قرن الصحافة الى الادب فاشتغل في تحرير المقتطف والمقطم قبل انتظامه في خدمة حكومة السودان بسواكن ، وفي اثناء اقامته بسواكن كان يكتب شركة روتر فيوافيها باخبار الثورة الهدية ، وكان اول من طير الى اوربا خبر انتصار الاحباش على الجيش الايطالي في معركة عدوة الشهيرة . فذاع الخبر في اوربا قبل ان يبلغ الحكومة الايطالية رسمياً ، فاستاءت حكومة ايطاليا وارسات تطلب من حكومة انكلترا ان تنشر شركة روتر تكذيباً لما نشرته . ولكن في اليوم نفسه ورد على الحكومة الايطالية خبر الهزيمة ، فكان في ذلك الحادث الصحافي مفعرة لروتر ولمكاتبه بسواكن اما بصره في الادب العربي فكان بصر العالم المصقول الطبع النافذ النظر القوي الحجة . وكثيراً

(١) معظم الحقائق عن عمل سعيد باشا في السودان مبني على مذكرة اعدتها صاحب العزة صموئيل بك عطية

ما كان يطلب الى كاتب هذه السطور ان يقرأ له شيئاً مما يكتب فكان يقف في الفينة بعد الفينة ويقول اظن ان صحة هذا اللفظ كذا وينهض من ساعته الى المعجبات في خزائنه العامرة يراجع مطولاتها ، وقد كان دائماً في جانب الصواب . ومما يشهد له بثقوب البصر في الادب ان المغفور له شوقي بك كان قد بعث الى المقتطف في ديسمبر سنة ١٩٢٣ بقصيدته الفلسفية البليغة في « النفس » معارضاً فيها قصيدة ابن سينا التي مطلعها « هبطت اليك من المكان الارفع » فقرأ المرحوم الدكتور صروف القصيدة معجباً بمعانيها الفلسفية وصورها الشعرية ، ولما عاد ذات يوم الى داره لتناول الغداء اخذ تجربتها معه « ليرى لسعيد » . وبعد تناول الغداء صعد الى « بيت سعيد » وراجعا القصيدة معاً معجبين بها كل الاعجاب . الا انهما ما كادا يصلان الى البيت الذي يقول فيه شوقي

ما بال احمد عي عنك بيانه بل ما لعيسى لا يقول ويدعي

حتى توقف سعيد باشا وقال هذا لا يستقيم معنى لان المقصود نفي القول والادعاء معاً عن عيسى ، وهنا يفهم انه لا يقول ولكنه يدعي . فاضطرب الدكتور صروف وقال ما العمل المزمرة في المطبعة والوقت ضيق ما العمل لتصحيح الشطر ؟ فتناول سعيد باشا التلغون وخطب شوقي بك في داره مبيناً له رأيه فوافق شوقي بك عليه وقال بحضور ذهن عجيب : طيب ياسيدي « قول كده »

ما بال احمد عي عنك بيانه بل ما لعيسى لم يقل او يدعي

وهذا هو النص الذي ظهر به البيت في القصيدة في الصفحة السادسة من مقتطف يناير سنة ١٩٢٤ وله قصيدة عصماء في الانقلاب الدستوري الذي وقع في تركيا سنة ١٩٠٨ . فقد كان سعيد باشا من الذين تحمسوا لاجل جمعية الاتحاد والترقي لانه اعتقد حينئذ ان عهد الظلم في سوريا قد انقضى وقام على انقاضه عهد نور ومساواة ، ولما احتفل اللبنانيون بالانقلاب احتفالاً عظيماً في عاليه في صيف تلك السنة نظم هذه القصيدة السياسية فكان لها وقع عظيم في النفوس ومما قاله فيها

اذا دعا الموت فرداً هب كلهم	حتى كان المنايا الكاس والحبيب
ظن الطغاة سكوناً منهم جزعاً	لكنهم سكنوا حيناً لكي يثبوا
ما قدّموا حذراً او ردّهم خطر	وان يكن في جبين الليث ما طلبوا
ولا اشتريهم وعود ملؤها ذهب	ولا ثنائهم وعيد ملؤه الغضب
ولا استأهمهم مجد يكون به	ظلم العباد ولا غرّتهم الرتب
قالوا وقد شهروا الصمصام واندفعوا	كل رعد يقصف في احشائه اللهب
للشعب حق اتينا اليوم نطلبه	اما نذوق الردى او يصدق الطلب
عشنا بعصر عجيب ان يعاش به	لولم نعش فيه قلنا انه كذب
فالحر مضطهد والامن مضطرب	والعرض منتهك والرزق منهب
فاستل سيفاً نيازي كله لهب	وقال انور قولاً دونه الذهب

الدين لله دينوا كيف شاءكم أما لدين هوى الاوطان فاعتصبوا
هذي يدي اننا والله اخوتكم وليس يفرقنا دين ولا نسب
وقد كان في السنوات الاخيرة يعدّ المعدات لشرح ديوان أبي تمام ، ووضع جدول واف بالالفاظ
العربية التي استعملت لاغراض جديدة وبيان تطور استعمالها قديماً وحديثاً وتقديمه الى المجمع الملكي
للغة العربية. وكان شوقي وفوزي المعلوف أحب الشعراء المحدثين اليه. ثم انه علاوة على عنايته بالادب
العربي، كان يعنى عناية خاصة بالزجل اللبناني وله فيه «مطالع» جيدة، نذكر ماعلق بالذاكرة من احدها

يا جفن عيني ليش فايلض مدمعك	ويا قلب مالك في خفوق شو يبو جمعك
اوعى تكون وقعت في نار الغرام	علمي بانك تبت شو عاد وقّعك
اوعى تكون وقعت في نار الغرام	ظنيت اننا نور ما فيها ضرام
ورحت حليم حولها حوم الهوام	تخمين نسيت قديش كانت تلذعك
تخمين نسيت يا قلب شو قضيت سقام	تا وقعت وقعه ما بقاش منها قيام
مش كل مرة ترجع الجرّه بسلام	وخايف بها المرة تلاقي مصرعك
من مرجي شو بيمنعك تا تنطفي	ناري وعيني من البكا ما تكتفي
ان كان قلبي بحفظو تا تكون فيه	وان كان عيني بصونها تا تقشعك
ان كان عيني بربدها تا تشوف سنالك	هي وقلبي وكل شيء بملك فداك
انت ماشي وما بهمك في سمالك	ونفسي على كبرا ذليلة بتتبّعك
نفسي على كبرا السبب في ها الفشل	حطت بوكدا البدر كيف بدّا تصل
واللي جهل ها الحب شو بيعمل عمل	خليه يجبي ويشوف شو صار لي معك
خليه يجبي ويشوف شو قضيت عذاب	ما نالني في محبتك الا التعب
وفي اللي بقي في العمر لي عندك طلب	انك مجيني بس مرة تا قشعك

ولم يحل انهما كه باعماله الرسمية دون الاتصال والالتفات الى كل ما يهم الجالية السورية في مصر
والسودان . فكان رئيس شرف للنادي السوري في الخرطوم في خلال اقامته بالسودان . ولما مرّ
المسترو زفلت رئيس الولايات المتحدة السابق في الخرطوم سنة ١٩١١ الف وفدًا من كبار
السوريين فقابلوا المستر روزفلت في قصر الحاكم العام وقدم له خطاباً شكر فيه بلسان السوريين
حكومة الولايات وشعبها لما يلقاه السوريون هناك من الحرية والراية . وكان رئيساً للنادي الشرقي
في القاهرة وأميناً عاماً لصندوق جمعية متخرجي الجامعة الأميركية ببيروت . وله في الجمعيات
والاندية خطب كثيرة جمعت الى الحكمة الاجتماعية البلاغة الادبية وحسن المحاضرة . رحمة الله عليه

ألوان الخيل وشياتها

للمبر مصطفى الشهابي

يهم هواة الخيل والغواة بسباقها الذين يرغبونها لهذه الغاية ، او يترددون على ميدان السباق في عين شمس مراهنين على المجلي او المصلي منها ، ان يعرفوا ألوان الخيل وشياتها مما تتحلى به الصفات الجياد ، ومما يكون لها علامات يتميز بها بعضها عن بعض . وكثير من الذين درسوا هذه الموضوعات بلغات اجنبية لا يعرفون الالفاظ العربية المختصة بها ، او لا يعرفون وضع اللفظة العربية مقابل اختها الفرنسية . ولما كانت دارنا لا تخلو من فرس او اكثر ، كنت حققت هذه الالفاظ تحقيقاً علمياً ونشرت معظمها منذ عشر سنين تماماً في مجلة مجمعنا العلمي العربي بدمشق . وقد رغب اليّ اليوم أحد الاختصاصيين بالزراعة في مصر ان أنشرها في مجلة المقتطف شيخة مجلاتنا العربية لكثرة تداول الايدي لها بين طبقة المثقفين من الناطقين بالضاد ، ولأن تلك الالفاظ ضرورية لأساتذة مدارس الزراعة والبيطرة وتلامذتها ولكل من يهتم بتربية الخيل من أرباب الزراعة أو من هواة هذا الحيوان الذكي النافع

﴿الالوان﴾ يراد بالوان الخيل ألوان الشعر النامي على جلدها عدا العُرف والسَّيْب والنَّسْن (١) فهي كثيراً ما يكون لونها مخالفاً للون سائر شعرات الجياد . وليس لون الخيل (اي ثوبها) من الصفات المرفولوجية الثابتة بل هو يتحول بالانتخاب والبيئة والسن وطرز التربية وغيرها من المؤثرات . ويكون لون المهر خلاف لونه الاساسي بعد ان يكبر . ويندر في المهر الشعر الابيض واذا وجدت فيه شعرات بيض حوالي عينيه وصدغيه دلت على ان لونه سيكون مشتقاً من اللون الابيض . ويكون لون الذكور ازهى من لون الاناث . ولقصول السنة تأثير في الشعر فتراه في الشتاء اطول وألح منه في الصيف

يقسم ثوب الخيل الى قسمين بسيط ومركب . فالاول ما تخلص شعراته بلون واحد والثاني ما تجمع شعراته لونين او اكثر . ومن القسم الاول الشُّقْرَة والهُمَة والبياض والكمُتَة . فالشُّقْرَة

حمرة ضاربة الى صفرة . والفرس الاشقر يدعى بالفرنسية Alezan وتكون اطرافه شُقرًا . وكذا
 العرف والذنب . وفي الشُقر الوان منها الأَشقر المذهب Alezan doré والسِلْفند A. clair اي
 الذي خلصت شقرته والأَمغر A. cuivré وهو الذي تعلو شقرته مَغْرَة
 والذهمة هي السواد يقال إدهامّ الفرس يدهامّ ادهيامًا . وتكون اطراف الأدهم وعرفه وذنبه
 سوّدًا من لون شعره . والأدهم الغهب Noir de jais هو الشديد السواد الذي يلمع من فرط سواده .
 والأدهم الشاحب Noir mat هو الذي لا يلمع . ويسمى بعض العرب البياض شهبة كما يدعون
 السواد خضرة . وللفرس الابيض الوان منها الابيض الشاحب والابيض القضي
 وأحب الألوان الى العرب على قول الأصمعي هي الكمّة ولا ريب انها من أحب الألوان في
 يومنا هذا . والكُمَيْت Bai أشد حمرة من الأشقر وبينهما الوَرْد (ج و راد) . ويكون عرف
 الكميت وذنبه اسودين وكذا القوائم في الغالب . يقال إكمت الفرس يكمت كُمَيْتًا أو جمع الكُمَيْت
 الكُمَيْت . وفي الكمّة ألوان منها الكميت الأحمّ Bai foncé وهو الذي تعلو حمرة سواد والكميت
 المُدَمَّى B. cerise وهو الذي تشتد حمرة وأشد منه الأحمر . والكميت المذهب B. clair وهو
 الذي تعلوه صفرة

وفي القسم الثاني من الألوان شهبة وحوة وصفرة وبُلْقة
 فالأشهب يدعى بالفرنسية Gris وهو الفرس الذي تكون شعراته على لونين ابيض واسود على
 ان تتفرق فلا تجمع واحداً من اللونين شعرات تخلص بلون واحد كقدر النكتة فما فوقها . ويعرف
 الأشهب أيضاً بقولهم انه الابيض الشعرة ليس بالبياض الصافي وسببه اختلاط الشعرات السود بالبياض .
 وفي الشَّهْب الوان فقد يكون الأشهب قليل الشعر الأسود ضارباً الى البياض Gris clair او على
 العكس من ذلك G. foncé ويكون حديدي اللون G. de fer او أبرش G. saler وهو الأشهب
 الذي فيه لَدَع بياض أو أرمَد G. cendré وهو الذي على لون الرماد . أو أغبر G. rouanné وهو
 الذي شمات شهبته شقرة

والحَوَّة صفرة الى سواد او شقرة الى سواد Robe louvet يقال فرس أخوى وفرس حَوَّاء .
 اما الصفرة Robe aubère فهي في الخيل اختلاط شعرات بياض باخرى ضاربة الى الحمرة وفي المخطوطات
 القديمة بياض تعلوه حمرة ويقول الأصمعي لا يسمى الفرس اصفر حتى يصفر ذنبه وعرفه . والبُلْقة
 Robe pie هي ان يكون في جسد الفرس بقع كبار مخالفة لونه . او هي اجتماع مختلفين فالفرس أبلق
 أو مُلَمَّع أو أْبَقَعَ أو أشيم والبُلْقة في اللغة مختصة بالسواد والبياض وهي بالفرنسية Pie-noi او
 Noir-pie حسب قلة السواد او كثرتة . واذا كان الفرس احمر او اشقر وعليه بقع بياض فهو احمر
 أْبَقع Rouge-pie او اشقر أْبَقع وهكذا

﴿ الشيات ﴾ — هي كل لون يخالف لون معظم الفرس . وهي على نوعين عامة وخاصة .
 فالأولى تكون في جزء ما من ثوب الفرس اما الثانية فتكون في اجزاء معلومة
 فمن الشيات العامة ان يكون الفرس مُدَنَّرًا اي ان يكون في شعره نُكُتٌ تخالف سائر لونه
 كالاشهب المدنر فهو بالفرنسية Gris pommelé اي الذي يخالط الشهب فيه نُكُتٌ سود . وهو لون
 كثير من الخيل العرب في بلاد الشام ولا سيما الاشهب الذي يكثر السواد في اطرافه (ازرق مبقج)
 ويقول كثير من علماء الغرب ان هذا اللون هو اللون الاصلي للخيول العربية وهو في نظري اجل
 الالوان وان خالفتُ بذلك قول الاصمعي

وقد يكون اللون الابيض او الاشهب ارقط Moucheté اي ذا رقطة وهي نقط سواد مبعدة
 في الثوب . واذا ضرب اللون الى السواد وتخلله نكت بيض فاللون ثلجي

وتكون الشيات الخاصة في رأس الفرس وقوائمها وفي غيرها

فبياض الجبهة هي العُرَّة والفرس أغرّ Marqué en tête . واذا صغرت العُرَّة فهي قُرْحَة
 والفرس أقرح Légèrement en tête واذا سالت العُرَّة على قصبه الانف وعرضت في الجبهة فهي
 سائلة Liste en tête واذا دقت وسالت في الجبهة وعلى قصبه الانف ولم تبلغ الجحفلة فهي شُرَاخ
 Petite liste . واذا سال البياض على قصبه الانف دون ان يبلغ العينين فهو اليعسوب
 Liste incomplète . والرؤمة ان يصيب البياض الجحفلة العليا . اما اذا اصاب الجحفلة السفلى فهي
 اللُصْطَة . واذا اسودَّ رأس الفرس دون سائر اعضائه فهو أدْرَع Cap de Maure

والبياض في قوائم الفرس هو التحجيل Balzane قلّ او كثر فالفرس مُحَجَّل . واذا كانت له يد
 على لون البدن مثلاً فالفرس محجل بثلاث طليق تلك اليد او طليقها او مَطْلَقُها . اما اذا اصاب البياض
 القوائم كلها فالفرس محجل الاربع

ووضح القوائم اي تحجيلها على انواع . فاقله الخاتم وهي شعيرات بيض Príncipe de Balzanes
 واذا جاوز ذلك حتى يكون البياض واضحاً فهو إنعال Trace de Balzanes اما اذا جاوز الارساع
 فهو تخديم Petite Balzane واذا صعد البياض في القوائم ولم يبلغ الركبتين والعرقوين فهو التجيب
 Grande Balzane والفرس مجبَّب فاما اذا بلغ التجيب الركبتين والعرقوين فهو مُسْرُوْل
 B. haut-chaussée حتى اذا خرج من الذراعين والساقين فالفرس أخرج

هذا قليل مما وضعه العرب في ألوان الخيل وشياتها مع ما يقابله بالفرنسية وفيه فائدة يستفيدها
 الذين يعنون بشئون الخيل في البلاد العربية والذين يعنون بالمصطلحات العلمية من فقهاء اللغة

الفلاحة الفرعونية

الحرث والبذر

للمركنور حسن كمال

وكيل القومسيون الطبي

تقسيم الاراضي * يبدأ الفلاح بعد زوال الفيضان في تنقية حقله من الاعشاب والاحجار المتخلفة عادة من الفيضان النيل . وكثيراً ما يرسم الفلاح منذ اقدم الأسر قائماً بهذا العمل الجليل الشاق كمقدمة لزراعة الارض . والمعروف ان هذه العناية كانت محصورة بادىء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت ايضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الانتفاع بكل بقعة في وادي النيل تحقيقاً لهاتين الغايتين الهامتين . وهذا هو سر استئصال الغابات في القطر المصري وقد اخبرنا ميتن (Meten) من عهد الاسرة الثالثة ^(١) انه حوّل جميع اراضي والده الى ارض زراعية . والباحث في الآثار يجد ان عملية تطهير الاراضي من الاعشاب وخلافها استمرت حتى عهد الاسرة الثانية عشرة كما يشاهد ذلك في نقوش زاوية المتين التي اوردها البسيوس (دنكيلرج ٢ لوحة ١٠٨ - ١٢٦) . واستعمل الفلاح في هذه العملية البلطة واستعان على اباداة الاعشاب بالغنم وتشاهد النباتات المائية مرسومة بوضوح في بعض مقابر طيبة فقبرة (نحت) تمثل نهر النيل والاعشاب نامية على شاطئيه والفلاح المصري يقتلعها بالفأس . قال هيرودوتس (ج ٢ - ١٤) وبودورس (ج ١ - ٣٦) ان الفلاح بعد ما يستأصل الاعشاب والنباتات البرية من ارضه يعمد الى تسميدها باطلاق الخنازير فيها . لكن هذا القول قوبل بالنقد الشديد من الاثريين خصوصاً اذا لاحظنا ان مصاطب المملكة القديمة لم تحو رسوماً لهذه العملية لأن . لكن يوجد في مقبرة بطيبة (ب امون 98 pl. tix de trav. Rec) منظر لقطيع من الخنازير يسبق فلاحاً يقلب الارض بفأسه * طريقة استعمال الفأس * سبق ان ألمعنا في مقال آخر الى طريقة استعمال الفأس في العهد السابق لعهد الفرعنة واوردنا رسماً لذلك . ثم تكلمنا في التحسينات التي ادخلت على هذه الآلة العظيمة التي تعتبر بحق رمز مصر والتي حافظت على وجودها مدى التاريخ . واكثر استعمال هذه الآلة كان في الاحوال التي تتطلب تغليق الارض بدقة دائمة . لذلك كثيراً ما نجد رسوم الفلاحين على الآثار تمتازهم قابضين على الفؤوس الواحد تلو الآخر قائمين بعملية الحفر المطلوبة . وذلك

(1) Meyer II. transl. Moret p. 216.

في عهدي المملكة القديمة والامبراطورية . وكثيراً ما يكتب اعلامهم عبارة معناها « انزل به » - اي احفر بالنّاس (مقبرة تي بسقارة) وقد اورد مارييت في كتابه عن المصاطب (ص ٣٤٦) رسماً لامرأة تحفر الارض بنشاط وشجاعة

وفي مقبرة (تي) المذكورة حفر الحفار منظراً لثلاثة رجال يستعملون النّاس في حفر الارض بهمة وفوقهم نقشتم النشودة كانوا ينشدونها وقت قيامهم بهذا العمل الشاق اليك ترجمتها : « الحفار في المياه وسط الاسماك يناجي سمك الصّبور ويتبادل النحية مع سمك العبيدي - ايها الغرب ان حفارك هو حفار الغرب ^(١) » . والتمثال الصغير الذي عثر عليه جهة مير يفسّر هذه الانشودة اوضح تمثيل . لانه يمثل الفلاح يحفر الارض بفأس باخلاص بين كما يستدل من غور قدميه في الطين حتى كعبيه ولما كان وقت الحفر بالفأس هو في اليوم التالي لوال القيسان كان السمك حينذاك يغدو ويروح حول القائمين بهذه العملية على ما يدل نص الانشودة

✽ استعمال المحراث ✽ يشاهد استعمال المحراث في فلاحة الاراضي بنسبة تفوق كثيراً استعمال النّاس وذلك منذ عهد الاسر الاولى ، ومنه يستدل على ان الاراضي كانت تزرع بانتظام منذ تلك العصور . وصغار الفلاحين الذين كانوا لا يمتلكون بهائم لجرّ المحارث كانوا يقومون بذاتهم بهذه العملية (مقبرة باحري) والعادة ان المحراث كان يجرّ بشورين او ببقرتين وذلك بواسطة فأس مستعرض مثبت في قواعد القرون بوثق قوي . لكن هناك مقبرة بمنف تمثل الناف مثبتاً في اعناق الثيران ^(٢) . وهناك عدة قراطيس بردية تحوي رسوماً تمثل تثبيت الناف في الاعناق . واورد برليس Prisse ^(٣) رسماً لمحراث يجره جوادان . وهناك مقبرة ببني حسن (لبسيوس ودنكمار ٢ - ١٢٧) تحوي نقوشاً يستدل منها على ان ثيران صاحب المقبرة كانت مدربة احسن تدريب حتى انها كانت تقوم بعملية الحرث بمجرد ربطها في المحراث واعطائها الاشارة للبدء بالعمل . والعادة ان هذه البهائم كانت لا تحتاج الى ارشاد وقت الحرث الاّ ساعة ادارة الآلة وتغيير خطة السير . وبديهي ان محارث هؤلاء القوم كانت لا تشق الاّ الطبقة السطحية للحقول كما يستدل من طبيعة محارث تلك الأزمنة وكما هو وارد ايضاً في رواية ديوسقوريدس (جزء ١ - ٣٦)

والباحث في صور المحراث الواردة على الآثار يجد ان هذه العملية تمثل برسم محراثين او ثلاثة محارث الواحد خلف الآخر . والقصد من رسمها بهذه الصورة هو ايضاح طريقة استعمال عدة محارث على حذاء واحد وفي بقعة واحدة . لكن رسام تلك الصور عسر عليه رسمها رسماً مجسماً فاضطر ان يوضح مراده برسم المحارث بعضها تلو بعض . وهناك احتمال آخر في تفسير تعدد المحارث في مناظر حرث الاراضي يتلخص في ان الارض التي كانت تزرع كتناً او فولاً كانت تحرث مرتين او

(1) Maspero Etude egyptienne t. II p. 74 trad. (2) Descrip. de l'egypte. Ant. V. p. 17

(3) Mon. Egypt. pl. 35

ثلاثاً قبل زرعها قمحاً . وهذه العادة اتبعها اليونانيون في فلاحتهم ^(١) . فهل كان الحراث يقصد بتعدد رسم الحراث اثبات مرات حرث الارض ؟ هذا السؤال تصعب الاجابة عنه اجابة قاطعة ويلاحظ في بعض المقابر مثل مقبرة (نخت) بالاقصر ان الرسام اوضح طريقة تجزئة الاراضي الى حقول متعددة بالطريقة التي كانت متبعة في عهده . فهناك ترى حقليْن تفصلهما شجرة صغيرة كما تشاهد ايضاً الحراث الذي يستعمل في حراثة احد الحقليْن مقابلاً للحراث ثان لحراثة الحقل المجاور والبقرتان الجارتان لكل محراث تتقابلان مع بقرتي الحراث الآخر عند الحد الفاصل للحقلين . ويضطر الفريقان بحكم تقابلهما من تولية ظهورهما لبعضهما البعض والرجوع بالتالي الى الجهة المضادة والحراث المصري القديم (وهو لا يزال مستعملاً الى الآن) يتطلب عناية كبيرة من الفلاح فعلى هذا الاخير قبل استعمال الحراث ان يضغط عليه بكل قواه ليرسل حده في التربة الى ابعد مدى ممكن وان يستمر في ضغطه هذا طول مدة الحرث متكثراً على زاوية الحراث بيديه حانياً ظهره طول الوقت . وقد يقوم فلاح واحد بهذه العملية . لكن الغالب ان فلاحين يقومان بهذا العمل احدهما يضغط على الحراث وآخر يسوق البقرة من الامام او الجنب بحسب ما تقتضي الاحوال (مقبرة في) وثمة في مقبرة (پاخرى) انشودة كان الفلاحون ينشدونها وقت الحرث ترجمتها : « انه ليوم بديع ! وبوم سعيد . فالثيران تجر المحاريث . والجوابق على مرامها ، ونحن نؤدي واجبنا نحو سيدنا ! » وبعد الفراغ من الحرث يبدأ الفلاح في تكسير الكتل الطينية الناجمة من الحراث . فيعمد بالفاس او العصي الغليظة او القادوم فيقت هذه الكتل الى قطع صغيرة ممهداً بذلك الحقل لعملية البذر ومستهلًا في الوقت نفسه طريقة الري

﴿ السداد ﴾ معلوم ان مياه الفيضان تحمل مقداراً كبيراً من الغرين الذي هو سداد طبيعي . قال بلينيوس (١٩ - ٥) ان قدماء المصريين كانوا يوزعون على اراضي حقولهم مادة آزوتية بقصد التسميد للنباتات المتأخرة النضوج . وروى الاستاذ ولكنسون في كتابه عن عادات المصريين (جزء ٢ - ٣٩٥) انهم كانوا يضيفون الرمال لتلطيف تربة بعض الحقول وجعلها صالحة لنمو بعض النباتات كالغنب ﴿ طريقة البذر ﴾ وبعد الفراغ من عملية الحرث يبدأ الفلاح في بذر حبوبه ثم تغطيتها بالتراب قال هيردوتوس (جزء ٢ - ١٤) ان الاراضي التي كانت تغمرها المياه معظم السنة كانت تبذر فيها الحبوب حال زوال الفيضان منها بدون حرث على الاطلاق بشرط ان تكون هذه الاراضي قد سبق زرعها . وليس هذا بمستبعد لان شمس مصر المحرقة وخصوصاً في صعيدها تجفف الارض بعد زوال الفيضان عنها في مدة لا تتجاوز عدة ساعات

أما الاراضي التي تحرث حرثاً اصولياً بقصد زراعتها قمحاً مثلاً فان الفلاح كان يتبع ساعتئذ سلاح الحراث واضعاً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخوين من أن « الارض حالما تخلصت من مياه

(1) Iliade XVIII, 547.

الفيضان اخذ الاخ الاكبر قيادة المحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل مصحوباً بالحبوب لبذرهما . وتشير هذه القصة ايضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها ان الكمية الاولى من الحبوب نفدت فأرسل الاخ الاكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة أخيه فناداهما قائلاً « هيا اسرعيا واعطيني الحبوب لأن أخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً » فاعتذرت اليه السيدة وقالت « يتعذر عليّ القيام الآن لأنني اسرح شعري واخشى ان يتلبك قبل الفراغ منه . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة » . فدخل الصبي الاهراء وملاً زلعة كبيرة من الحبوب لأنه كان في نيته ذلك . وكانت الحبوب قمحاً وشعيراً . وحملها على كتفه . فلما هم بالخروج بادرت زوجة أخيه سائلة — ماهي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ — فاجابها — ثلاثة مكايل من الشعير ومكيالان من القمح فيكون الكل خمسة مكايل . هذا هو ما أمحله على كتفي — (راجع قرطاس اوربيني لوحة ٣-٩ ، لوحة ٣ سطر ٥) . ومنه يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

ودلتنا النقوش البارزة بمقابر سرة القوم وكبار الموظفين ان الحكومة كانت تحافظ جداً على عدم التبذير في الحبوب ومحصولات الاراضي . لأن مرتبات العمال والموظفين كانت تدفع شعيراً او قمحاً وجرت العادة على ان الاهالي كانوا يستدينون بعضهم من بعض ما تتعادل قيمته مع مقادير معينة من الحبوب لان الحبوب وقتئذٍ اصبح لها قيمة مالية تضارع قيمة النقود في عصرنا هذا ^(١) وكانت هناك طائفة كبيرة من الكتاب تقوم بتسجيل الصادر والوارد في شئون الحكومة من الحبوب . واعتاد الرؤساء ان يرسلوا مفتشين لجرد محتويات هذه الشئون وذلك لكيل محتوياتها وتسجيلها في سجل خاص تحت اشراف كاتبين . يقوم احدهما بمراقبة عملية الكيل ويقوم الآخر بقيد مقاديرها (راجع مقبرة الشيخ سعيد للاستاذ ديفيز . ص ١٩٠ ومقبرة اورارنا لوحة ١٦) . واورد لبيسوس في (الدينكايلا ج ٢ لوحة ٥٦ مقبرة نوفر بيوپتاح) نقوشاً يستدل منها على طريقة اخذ الحبوب من الشئون بواسطة الفلاحين القائمين بعملية البذر . ومنها يتضح ان هؤلاء كانوا يملأون اكياسهم حبوباً من فتحة الشونة السفلى ويحملونها على اكتافهم تحت اشراف كتبة يقومون بعملية القيد لكل صغيرة وكبيرة . وجاء في عدة قراطيس بردية من العهد الصاوي (٦٦٠ — ٥٢٥ ق . م) . ما يشير الى ان بعض فلاحي ذلك العصر كانوا يقترضون كميات التقاوي اللازمة لهم من متيسرهم على ان يردوها من محصول الارض عند الحصاد

وقد حافظ كيس التقاوي على شكله من عهد الاسرة الاولى (٣٤٠٠ — ق م) ^(٢) . وكان هذا

(1) Revue egyptologique 1813 3o année, Revillont, Les prête de blé p 25.

(2) Wilkinson, Manners etc. Vol. II p. 369

الكيس يصنع من الصفصاف (water-willow) ويحمل عادةً فوق الكتف اليسرى ويقف حامله جوار الحرائن او الحفارين . فاذا ما بدأ الاخرون عملهم تبعهم الشخص القائم بعملية البذر قابضاً على الكيس بيده اليسرى ومالئاً قبضته اليمنى حبواً ليبذرهما في الشقوق المتخلقة من الفؤوس او المحارث (مقبرة تي لوحة ٣)

وجاء في ميدوم رسمٌ لفلاح يقوم ببذر الحبوب مزين بأوراق النبات وحامل لكيس مربع الشكل تقريباً له يد مجدولة مثبتة بمنطقة الكتفين ومرسل الى خلف الابط الايمن . ويعتبر هذا الرسم الوحيد من نوعه على الآثار للآن

وجاء بمقبرة (باحري) رسم لعملية البذر يتلخص في شخص تابع لحفار او حرّاث يبذر الحبوب على طول باعه . ولما كانت العادة عند القوم وقتئذٍ اذا ارادوا ان ينقشوا عملية البذر على مقابرهم ان يرسموا الرجل القائم بهذا العمل ثانياً ذراعه . لذلك استنتج بعضهم ان الحبوب المقصود بذرهما بمقبرة (باحري) المذكورة هي غير حبوب القمح وانها لا يبعد ان تكون حبوب الكتان (راجع كتاب مقبرة (نحت) لديفيز لوحة ١٨)

واهتم الرسامون كثيراً بتلوين مناظر البذر اهتماماً فاق اهتمام الحفارين في نقش هذه العملية^(١) **تغطية الحبوب** * ولما كانت احوال القطر الطبيعية تحتم على الفلاحين تغطية حبوبهم بعد بذرهما منعاً لتعرض احد جانبيها للارض الرطبة والاخر لاشعة الشمس الحارقة ومحافظة عليها من الطيور والحشرات كما يستدل على ذلك من النص الوارد بقراطس انسطاسي (٥ لوحة ١٥) من « ان القراشات تأكل اعشاب الحديقة . والحيوانات الاخرى تأتي على بقية الزراعة » . وتعمل التغطية في الارض الرطبة بجذع نخلة يحجره ثوران لكن في مقابر المملكة القديمة (تي لوحة ٣) كانت هذه العملية تؤدّى بسوق الغنم او الخنازير التي تغرز الحبوب في الوحل مغطيتها اياها في الوقت نفسه . وكان الفلاح يشجع احياناً هذه الحيوانات على هذا العمل بترغيبها بحفنة حبوب في يده وطوراً يرغمها على ذلك بالعصى والسياط (تي لوحة ٣ — الشيخ سعيد لوحة ٨) . وقد نسب هيرودوتس هذه الطريقة الى اهالي الوجه البحري (٢ — ٢٦)

اما عملية تغطية التقاوي في الارض الصلبة فكانت تؤدّى بتكرار الحرث (باحري) كما يستدل ايضاً من نقوش واردة فوق محراث بمقبرة بالجيزة ترجمتها: « اضغط على المحراث لتغرز الحبوب في الارض » (دنيكابل ٢ — ٥١) . وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة انتشرت هذه الطريقة بين القوم فكانوا يحجرون حد المحراث على الزيشة القائمة بين كل شقين فيشطرها السلاح شطرين يغطي كل منهما الحبوب في الشق المجاور . ووردت على الآثار رسوم تبين استخدام العبيد في جر المحارث للقيام بهذه العملية (باحري)

ضمانات المجرمين

النفوذ الى ضمير المجرم وحمله على الاعتراف بفعله كانا ولا يزالان غرض المحاكمات الجنائية في العصور القديمة والعصور الحديثة على السواء . وقد كان المجرم يعرض في العصور القديمة لالوان من التعذيب يقشع لها الجسم لما تنطوي عليه من قساوة ووحشية ، ولا يزال بعض هذه الوسائل شائعاً في بعض البلدان بعد تعديله تعديلاً يسيراً . بل ان المجتمع الانساني نفسه لا يكاد يصدق ان هناك وسائل لاستلال سر المجرم من بين شفتيه ، اشد رافة به وافعل أثراً من وسائل التعذيب المشهورة . ولكن العلم اختط طريقاً في ميدان ظنه الناس ممتنعاً على العلم ، فاستنبط الاساليب جديدة اراف بالمجرمين ، وهم ناس يتألمون ويتعذبون ، واهدى الى الغرض المقصود في أقصر وقت وعلى أيسر حال . ومع ان القوانين الجنائية ، لم تعترف بعد بهذه الاساليب ، نرى رؤساء دوائر التحقيق الجنائي يعتمدون عليها في بعض البلدان ، ويبلغون في الاعتماد عليها نتائج باهرة ، وهذا كفيلاً بأنه لا ينقضي وقت طويل عليها حتى تصبح سلاحاً مشروعاً من أسلحة رجال البوليس والنيابة ولعل أشهر هذه الاساليب العلمية الجديدة وأفعلمها آلة تعرف باسم « بوليغراف كيلر » وهي آلة غرضها الكشف عن كذب المجرم وامترائه عند التحقيق . والمبدأ الذي بنيت عليه هذه الآلة هو قياس ضغط الدم . فهي لا تختلف في أركانها عن الجهاز الذي يستعمله الطبيب لقياس ضغط الدم عند مريض يخشى تصلب الشرايين . ولكن بدلاً من الابرة المتحركة في الجهاز الخاص بضغط الدم ، هناك ريشة ترسم خطاً على ورقة مناسبة من لفة ورق متحركة . فيجلس المتهم وهذه الآلة ملفوفة على ذراعه ، فيوجه اليه الباحث الاسئلة في صوت طبيعي لا يجهش في وجهه ولا تهديد في نبراته . فيجيب عنها المتهم بما يراه ، وكلما أجاب كذباً ارتفع ضغط دمه وظهر أثر هذا الارتفاع في الخط الذي ترسمه الريشة على الورقة المناسبة

ولكنك قد تسأل : لماذا يرتفع ضغط الدم عند ما يقول كذباً . او لماذا يؤخذ ضغط الدم دليلاً على ان المتهم يمترى في جوابه ؟ ان سرّ الجواب عن هذا السؤال في التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الجسم عند ما يكون متأثراً او منفعلاً انفعالاً عنيفاً . فالانسان اذا واجه خطراً ما ، استعد جسمه من الوجهة الفسيولوجية لدفع الخطر ، فتطلق الكريات الحمر من الطحال الى مجرى الدم حيث تتصل بالفرزات التي تفرزها الغدد الكلوية وغيرها من الغدد ، وغرضها جميعاً ان تبعث في الجسم

النشاط للكفاح او للفرار . فكان أعضاء الجسم تبعث في الجسم نشاطاً غريباً عند ما يواجه خطراً يهدده . فينشأ من هذا كله زيادة خفقان القلب وارتفاع ضغط الدم في الشرابين فاذا واجه الانسان خطراً ، متمثلاً في سؤالٍ موجهٍ اليه عن جريمة من الجرائم ، كان الأثر الاول الذي يحسُّ به الخوف من الكشف عن صلته بتلك الجريمة ، لان هذا الكشف يفضي الى معاقبته بالغرامة او بالسجن او بالتشهير او بالاعدام . فنستعدُّ جميع أجهزة جسمه للدفاع عن الجسم وهذا الدفاع يتخذ في هذه الحالة شكل محاولة التستر على فعلته او الكذب في الرد على السؤال .

ولكن مهما يبرع المجرم في كبت انفعاله ، حتى لا تبدو آثاره في نظره وكلامه وحركاته ، فإنه لا يستطيع ان يمنع احتشاد قوى جسمه الداخلية لهذا الدفاع . وهذه الآلة الجديدة تستطيع ان تبين أثر كل هذا في ضغط دمه ، فتري الريشة ترسم خطأ متعرجاً شديد التعرج . عند ذلك يبادر المحقق اليه فيطلب منه ان يفسر هذا التقلب الغريب في ضغط دمه كما يبدو في الخط المتعرج على الورقة المناسبة . وفي ٧٥ في المائة من الحوادث ، ينصرف المتهم عن محاولة الانكار الى الاعتراف عند ما يرى الدليل المادي قائماً على أنه يخفي شيئاً . فاذا أصرَّ على الانكار وجهت اليه أسئلة اخرى متفرقة ومنوعة ، ومن أرها في ضغط دمه يستطيع الباحث ان يهتدي الى بيّنات تقوده الى الحقيقة ،

فالآلة تبين صدق المتهم وكذبه . وقد جربت حتى الآن في ١٥٠٠ حادثة فأصابت فيها جميعاً لم تدخل هذه الآلة الى الدوائر القضائية رسمياً ولكن طائفة كبيرة من البنوك والمؤسسات العامة تستعملها لتتبيّن صغار المختلسين ومن اليهم من عمّالها وموظفيها . فقد استعمل احد بنوك شيكاغو « بوليفراف كيلر » هذا في امتحان ستة وخمسين من موظفيه لاستكشاف من اختلس منهم مبلغ خمسة آلاف ريال ، فكشّف عن الرجل ، ولما كشف عنه اعترف . واهتدى اصحاب البنك الى تسعة من الموظفين كانوا قد اختلسوا مبالغ يسيرة من المال لا علم للمديرين بها ، وهم يمتحنون الآن جميع الموظفين بهذه الآلة مرة كل سنة .

وثمة طريقة اخرى استنبطها الاب سمرز احد اساتذة جامعة فورد هام الاميركية تدعى « سيكوغل فانومتر » اي المقياس الكهربائي النفسي . وهي مبنية على اساس كهربائي . فيمسك المتهم بقطعة معدنية بيدِهِ ثم يسري في جسمه تيار كهربائي ضعيف مستمر من بطرية واحدة . واذا يكون في هذه الحالة توجه اليه الاسئلة المطلوبة ، بعضها لا صلة له بالموضوع المطلوب البحث فيه ، وبعضها له صلة وثيقة به . فاذا سئل سؤالاً له صلة بالموضوع ، وكان على علم بذلك ، يحدث شيء غريب في جسمه . فاذا كانت صلته اجرامية حفزت غدد العرق فيه الى افراز العرق متأثرة باستعداد فؤاده الداخلية لدفع الخطر عن جسمه . وهذا العرق الذي يفرز قليل ، ولكنه كاف لتغشية القطعة المعدنية القابض عليها فتقل مقاومتها للتيار الكهربائي الساري في جسمه ، فيظهر ذلك على جهاز خاص . ومن المستحيل ان تحتال على هذه الآلة لانه اذا رفض المتهم ان يجيب عن السؤال الموجه

اليه ، يعجز عن السيطرة على غدد العرق فيه ، فلا يستطيع ان يمنعها من افراز عرقها ، فكان افرازها صوت صارخ في وجهه وشاهد على فعلته

وقد ذهب احد الكتاب العلميين الى الاب سمرز وطلب اليه ان يجرب آلتة هذه فيه فجرىها بان اتى بمجموعة من ورق اللعب وطلب اليه ان يختار احدي ورقاتها وان يعيد الورقة الى المجموعة . ثم اختيرت تسع ورقات اخرى وضمت الى هذه الورقة وعرضت على الكاتب ، وسئل عن كل ورقة منها هل هي الورقة التي اختارها فاجاب « لا » على الورقات العشر . واعيدت هذه التجربة ثلاث مرات . وهو يجيب « لا » اجابة مطردة . فدلّت الآلة على الورقة التي كذب في الاجابة عنها ، بزيادة سريان التيار الكهربائي في جسمه . واخيراً اعترف الكاتب بكذبه فقال له الاب سمرز : اذا كان هذا مبلغ فعل الآلة ، في حالة الكذب عن ورقة لا شأن لها فكيف بها والمتهم يحاول ان يخفي جريمة او فعلة شنعاء

وهناك طريقة ثالثة استنبطها الاستاذ كروسلاند وهي عبارة عن ساعة دقيقة لقياس اجزاء الثواني ، واسئلة توجه الى المتهم تحتوي على كلمات بعضها لا علاقة لها بموضوع البحث وبعضها له علاقة وثيقة بالموضوع . وهذه الطريقة لا تكشف عن كذب الكاذب ، بل تكشف عن شعوره بالاثم الذي اقترفه . وقد جرب الاستاذ كروسلاند طريقته في سبع حوادث ، فحصل على اعتراف اصحابها جميعاً فاعترف خمسة منهم بالسرقة وواحد بالتزوير والخامس بالغش في الامتحانات

ولنفرض ان الوزر الذي نريد ان نبحثه هو سرقة محفظة تحتوي على عشرة جنيهات ، من جيب احد الموظفين في مكتب تجاري . فيؤتى بجميع موظفي المكتب وتلى على كل منهم بحضور الآخرين قائمة من الكلمات فيما يلي : — شارع . لبن . محفظة . مجلة . مكتب . جيب . ثلاثة أمتار . محرر . حاسب . عشرة جنيهات . قلم وهكذا . فبعض هذه الكلمات لا صلة له بالثبته بسرقة المحفظة . والبعض الآخر له صلة كل الصلة بها . ويطلب الى كل واحد ، ان يذكر اول كلمة تخطر على باله عند ذكر كل كلمة من هذه الكلمات امامه على حدة . ولما كان الوقت السوي الذي يجب ان ينقضي على ذكر الكلمة وذكر الكلمة التي تدعوها في ذهن المسؤول ثانيتين ونصف ثانية ، فكل تأخير عن هذه المدة يعني ان المسؤول يحاول ان يختار الكلمة التي يجب بها ، بدلاً من ان يقول الكلمة التي تخطر له بدهاه ، او ان هناك اضطراب نفسي حمله على التأخر . وتعين المدد التي يستغرقها كل فرد في الاجابة بواسطة الساعة الدقيقة ، ثم يوضع جدول بها فيطلق سراح الارباء وتعاد الكرة في سؤال الذين تقوى الشبهة عليهم . وقد استعملها الاستاذ مورتيمر احد اساتذة جامعة كولومبيا في فرقة مؤلفة من خمسين طالباً فلم تخطيء

وثمة طريقة اخرى مبنية على قاعدة بسيكولوجية تعرف باسم طريقة «حجرة المرايا» . فخذ ان هذه الحجرة مصنوعة من مرايا يجاس المتهم في وسطها وتوجه اليه الاسئلة من حجرة مجاورة عن طريق نقب في

الجدار . وفي اثناء توجيه الاسئلة اليه ، تحول انوار الحجره حتى يصير لونها ضارباً الى الخضرة . فينظر المتهم يمينا ويساراً فلا يرى الا وجهه في المرايا التي حوله وقد علاه لون شاحب كأنه ممتقع . فيظن اذا كان مجرمًا ، ان لون وجهه قد نهم عليه فيعترف في الغالب . وقد اصابته هذه الطريقة قسطاً كبيراً في النجاح في سؤال المجرمين العصبيين او الجهال . اما العصبيون فلا أنهم يعجزون عن الصمود لسعة الاجرام تملو وجوههم فيعترفون ، واما الجهال فلا أنهم لا يستطيعون ان يفهموا سر هذا اللون فيقعون في خفه . ومن الآلات التي لم تتقن بعد آلة استنبطت لقياس سرعة التنفس وهي تستعمل في الغالب مع مقياس ضغط الدم المعروف باسم « بوليغراف كيلر »

ذكرنا حتى الآن الاساليب العلمية التي تمكن البحوث من تبين الشعور بالاثم او بالاجرام . ولكن بعض علماء الاجرام يستلمون بان ام هذه الوسائل قد لا يكفي لانتزاع الاعتراف بالجرمة من فم المجرم الجرب . ولذلك استنبط العلم لهذا الطراز من الجناة مركب « السكوبولامين » المعروف بمصل الحقيقة وهو دواء يفعل فعلاً خفياً في الدماغ فيعترف المجرم بالحقيقة

والسكوبولامين هذا عقار مستخرج من السيكران او الحشيشة الفارسية اكتشفه الدكتور هوس R. E. House احد اطباء ولاية تكساس في عملية جراحية نسائية . فتبين أنه يخذل او يفعل فعلاً مخدراً في بعض مناطق الدماغ ، ولكنه لا يضعف ذاكرة من يتناولها ولا سمعه ولا مقدرة على النطق . وبعد موالاة البحث تبين ان منطقة الدماغ التي تتأثر به هي المنطقة التي تمكننا من اختلاق الاقوال في سبيل الدفاع عن النفس . وكذلك كشف ان الانسان الذي يحقن بالسكوبولامين يظل محتفظاً بجميع حواسه ولكنه يفقد القدرة على الاختلاق والكذب

وقد جربته العالم الاجرامي الاميركي المشهور — الكولونل كالفن غودرد — فتبين فعلة العجيب . ذلك ان الكولونل غودرد طالب الى احد زملائه ان يدعى على عشرين سؤالاً بسيطاً وجهها اليه . مثلاً : هل تلعب البردج ؟ هل تنكلم الفرنسية ؟ ثم حقن هذا الزميل حقنة تحت الجلد بجرعة من السكوبولامين ، فلما فعل العقار فعلة في الجسم ، وجهت الاسئلة نفسها الى الرجل . فتبين انه كان صادقاً في ١٩ سؤالاً منها . واما السؤال العشرون فكان « هل قبض عليك لمخالفة ارتكبتها بسيارتك » ؟ فكان جواب الیقظة التامة عليه « لا » واما الجواب والرجل تحت فعل العقار فكان : « نعم لما كنت طالباً في المدرسة التجهيزية في فرجينيا » . ولما استيقظ وسئل عن هذا التناقض صرح انه كان قد نسي كل النسيان تلك الحادثة ، الى ان نبشها السكوبولامين من خبايا الذاكرة . وقد استعمل وكيل نيابة برمنغهام بولاية ألاباما هذه الحقنة في التوصل الى سر سلسلة من جنایات الاغتيل بلغ عددها خمسا وعشرين . فضبط عصابة مؤلفة من اثني عشر رجلاً واستعمل هذا العقار في الاهتداء الى حقيقتهم . ولما كانت المحكمة لا تسلم بدليل من هذا القبيل اعتمد على الحقائق التي انزعها منهم وهم تحت فعل العقار في الفوز باعتراف صريح منهم

فردريك وهلر

Friedrich Woehler

الكيمائي يباري الحياة

من نحو مائة سنة حدث حادث خطير ، في معمل كيمائي الماني ، كان لا يزال في العقد الثالث من عمره . ذلك ان فردريك وهلر كان قد عاد حديثاً من استوكهلم عاصمة السويد حيث تعلم للكيمائي السويدي العظيم برزيليوس^(١) . وفي خلال طلبه للعلم في المانيا والسويد كان قد سمع في الدوائر العلمية التي زارها ، بمحدث قوة حيوية خفية تتخلل الاجسام الحية ، فحمل ذلك على التفكير . وها هو ذا في منصبه الجديد ، يدرس في مدرسة التجارة الجديدة ببرلين ، وفي ثنايا ذهنه فكرة ، كأنها بذرة في تربة خصبة تستعد الانتاش

كان الرأي السائد حينئذ ، ان في اجسام النبات والحيوان ، شعلة قوة حيوية خفية ، تمكن هذه الاجسام من بناء مركبات معقدة كاصناف السكر والنشاء والزال ، من مواد بسيطة التركيب . وان هذه القوة الخفية لا اثر لها في الجوامد . وكان الناس يعتقدون ان المواد التي تتركب منها النباتات تختلف عن المواد التي تتركب منها الاجسام المعدنية في ان الاولى لا يمكن تركيبها تركيباً صناعياً في معامل الكيمائيين . واذن كان من المستحيل في رأي ذلك العصر ، على الانسان ان يحاري هذه القوة الحيوية في ابداعها . حتى لقد ظن بعضهم ان هذه المركبات العضوية ، لا تخضع لنواميس الكيمياء . ذلك كان رأي الدوائر العلمية في سنة ١٨٢٨

بل كان برزيليوس نفسه ، قد اشار في بعض ما كتب وحاضر ، الى الهوة التي لا يمكن ردها بين المواد العضوية والمواد غير العضوية . وكان ليوبولد جيلين^(٢) ، استاذ وهلر في جامعة هيدلبرج ، ثابت اليقين في ان المواد العضوية لا يمكن تركيبها تركيباً صناعياً . ولكن وهلر كان شاباً وفي اندفاع الشباب شك في ما يقال . ولذلك فضّل ان يحاري قول الكيمائي الفرنسي شفرول^(٣) في ان القول بوجود فارق مطلق غير قابل للتغيّر مناقض لروح العلم . بل كان في قرارة ذهنه يعتقد ان عبارة « القوة الحيوية » ليست الا ستاراً لما نجهل ، وان التسليم بها تسليماً مطلقاً يعيق الكيمياء عن الارتقاء

(١) جونز جاكوب برزيليوس كيمائي سويدي Berzelius (١٧٧٩ — ١٨٤٨) (٢) ليوبولد جيلين فرد من اسرة المانية كبيرة اشتهر رجالها بالكيمياء والطب . وكان هذا استاذ الكيمياء في جامعة هيدلبرج (١٧٨٨ — ١٨٥٣) (٣) كيمائي فرنسي (١٧٨٦ — ١٨٨٩)

ففى وهلر يبحث ويجرب في معمله ، وهو لا يكل ولا يمل . وكأنه كان يقول في نفسه : آه لو تمكنت من تركيب احدى هذه المواد التي لم يؤثر تركيبها قبلاً إلا في الجسم الحي ! انه لو استطاع ذلك لضرب الفكرة السائدة ضربة قاضية ، اقوى من الضربة التي دالها لافوازيه^(١) لفكرة الفلوجستون !

كان فردريك وهلر قد طالع مؤلفاً جديداً لشفرول اثبت فيه ان كثيراً من الادهان التي تتكوّن في أجسام النبات تماثل الادهان التي في أجسام الحيوان . وكذلك أزال الحاجز الفاصل بين النبات والحيوان من هذا القبيل . وكان ملهماً بمباحث رول Rouelle^(٢) معلم لافوازيه في كيمياء أجسام الحيوان كان الغرض الذي وضعه نصب عينيه جليلاً أحداً يستهوي الافئدة . ففى يجرب تجربة أثر تجرية وهو لا يبلغ منها لبانةً ما . ولكنه مضى في تجاربه اربع سنوات متوالية . وفي ذات مساء حدثت العجوبة !

تصور دهش هذا الباحث الفتى ، وقد وقع بصره على مركّب صنعهُ في انبيقٍ من مواد غير عضوية . هاهو ذا يرى في انبيقه ما وزنه غرام من بلورات بيض مستطيلة كالابر ، كان رول معلم لافوازيه قد وجدها قبل خمسين سنة في البول ودعاها فوركروي « يوريا »^(٣) . لم يعرف من قبل ان هذا الملح الابيض يمكن ان يركّب خارج الجسم الحي !

ولم يكن غريباً ان يتبين وهلر طبيعة هذه البلورات عند مشاهدتها . ذلك انه كان قد بدأ دراسته العلمية طالباً للطب . واذ كان يكتب رسالة عن نقايا الجسم في البول اتصل علمه « باليوريا » فتحمس لما شاهد . بل أنه رأى نفسه بعين خياله واقفاً على عتبة عصر جديد في الكيمياء وقد قضى بتجربته على نظرية جميلة ولكنها لا تقوم على أساس . انه ادرك في الحال ، انه كان أول من صنع مادة عضوية خارج الجسم الحي . فتمثل لنفسه الميادين الواسعة والآفاق الجديدة التي يهد السبيل اليها هذا المركّب الصناعي . ولكنه ظلّ محتفظاً برباطة جأشه لان معلمه برزيلوس كان قد حذّره من التعجل . فخلل المادة التي بين يديه ليتثبت من انها وبلورات اليوريا التي تركيبها « القوة الحيوية الخفية » في الجسم ، شيء واحد

فلما تثبت من ذلك كتب الى برزيلوس فقال : يجب عليّ ان انهي اليك انني استطيع ان اركب « اليوريا » من دون ان احتاج الى كليتي انساني او كلب . فتحمس السويدي لهذا النبأ الخطير وأخذ يذمّه في الدوائر العلمية ، فسرت رعدة كهربائية فيها . ولما تناهى النبأ الى شفرول رحّب به أعظم رحيب . هاهو ذا وهلر قد ركب « اليوريا » من مواد غير عضوية . فاذا يمنعه او يمنع غيره من العلماء ان يركبوا السكر او الزلال او حتى البروتوبلازمة نفسها أساس الحياة الغروي ؟ ولكن دعاء

(١) كهاوي فرنسي قتل في الثورة الفرنسية (١٧٤٣ — ١٧٩٤) (٢) كهاوي فرنسي (١٧٠٣ — ١٧٧٠) (٣) مادة بيضاء يمكن بلورتها توجد في البول ولحم والمغنا . وهي المادة التروحينية الرئيسية في البول

المذهب «الحيوي» اعترضوا على كل ذلك ، فقالوا لعل «اليوريا» مادة متوسطة بين المواد العضوية والمواد غير العضوية . ثم إن تركيب اليوريا يقتضي استعمال الامونيا . والامونيا من أصل حيوي . فانكار القوة الحيوية خطأ ، لانها كامنة في الامونيا التي صنعت «اليوريا» منها . ولكن همس الحيويين ضاع بين صيحات التهليل المرتفعة من كل حذب وصوب ، بأن عصرآ جديداً قد أهدأ على عالم الكيمياء

نشر وهلر مذكرته عن تركيب اليوريا سنة ١٨٢٨ وبعد انقضاء قرن كامل عليها ، فاز الاستاذ بيكتيه Pictet وهانز فوغل من اساتذة جامعة جنيف بتركيب سكر القصب . فأخذ بيكتيه الايدروجين وثاني اكسيد الكربون وصنع منهما الكحول الخشب ثم حوّل هذا الكحول الى مادة الفورملدهيد^(١) ، ومن هذه المادة استخرج الغلوكوز ومن الغلوكوز^(٢) استخرج السكروز وهو قصب السكر . فلما تمّ له ذلك كان قد انقضى نصف قرن والعلماء يبحثون عن اسلوب لصنع قصب السكر بالتركيب الصناعي

كان السر جيمز كولوهون ارثين وكيل جامعة سانت اندروز الاسكتلندية قد قضى عشرين سنة يعالج هذا الموضوع وكاد يفوز ببغيته . فلما اتاه نأبأ فوز بيكتيه قال لتلاميذه . «يوسفني ان لا يكون هذا التركيب قد تمّ في معامل جامعتنا . ولكن يسرّني ان يحوز بيكتيه هذا الفخر . انه لنصر عظيم ، وانه خطوة كبيرة في الكيمياء العضوية والكيمياء الحيوية»
ما احفل القرن الذي انقضى بين «يوريا» وهلر «وسكروز» بيكتيه ، بالعجائب ! لقد تمّ تركيب ٤٠٠ الف مركب جديد في هذا الفرع من الكيمياء ، والعلماء يضيفون اليها ما متوسطه ٤٠٠٠ مركب جديد كل سنة !

وليد فردريك وهلر في مستهل القرن التاسع عشر على مقربة من مدينة «فرنكفورت اون ماين» وكان والده أوغست متفقها في العلم والفلسفة . فتلقى فردريك ، بادئ العلم من والده ، فحب اليه درس الطبيعة ونشأه على الميل الى الرسم وجمع نماذج من المعادن . فكان فردريك يتبادل مع رفاق صباه نماذج المعادن كما يتبادل بعضهم طوابع البريد . وحافظ على هذه الخطة مدى حياته . وقد لقي بفضلها غوته في شيخوخته اذ كان الشاعر العظيم يفحص بعض حجارة معدنية في دكان بفرنكفورت يختلف اليه وهلر

ثم ما لبث ان اضاف الكيمياء الى الامور التي يهوى متابعتها . واتصل عن طريق ابيه بصديق للامرة يملك خزانة كتب غنية ومعملاً كيمائياً خاصاً ، فاذن له في ان يختلف الى الخزانة للمطالعة

(١) فاز مركب من الكربون الايدروجين والاكسجين (ك ٢ دك) يصلح للتطهير محلوله سائل طيار لالون له

(٢) سكر العنب ويوجد في الدم واللحفا وفي بول المصابين بداء السكر

والى المعمل لتجربة التجارب . فبنى اعمدة كهربائية فولطائية من الواح من الخارصيني (الزنك) وبعض النقود الروسية النحاسية التي جمعها . واهدى اليه مدير ادارة سك النقود بالمانيا ، فرناً يستعمله في تجاربه فخرق اصابعه بالفصفور مرة ، وكاد يقضى عليه مرة اخرى لما تحطم بين يديه وماء زجاجي يحتوي على غاز الكلور السام

بعد ذلك ذهب الى جامعة ماربورغ حيث تلقى ابوه العلم . فانتظم في سلك طلاب الطب ونال جائزة على رسالة وضعها في « نفايا البول » . وما يؤثر عنه انه جرب تجارب خطيرة في كلبه وفي نفسه وهو معني بأعداد تلك الرسالة . ولكن الكيمياء كانت لا تزال الموضوع الذي فتن لبته . فابتنى معملأ كيميائياً صغيراً خاصاً به ، وحضر فيه « يودور السيانونجن » فكان اول من حضره . فلما جاء بهذا المركب الى استاذة فرزر أنبأه لانه يضع وقته في التجارب الكهربائية بدلاً من الانصراف الى دروسه الطبية . فامتعض الفتى لهذا التائب ولم يحضر بعد ذلك محاضرات استاذهم

وكان في جامعة هيدلبرج عالم مشهور يدعى ليوبولد جملين Gmelin فرغب في ان يتلقى العلم عليه ، فانتظم في جامعة هيدلبرج حيث اتم دروسه الطبية ونال شهادته فيها ، واعد معداته لزيارة اشهر المستشفيات في عواصم اوربا قبل ممارسة صناعة الطب . ولكن جملين كان قد راقبه يجرب التجارب في المعمل الكيميائي . فقال له في احد الايام انه من العبث ان يحضر دروسه لان البحث في المعمل الكيميائي اجدى عليه . ولما قدم التلميذ لمعلمه رسالته في تحضير « الحامض السيانيك » قرأها هذا معجباً بها ولكنه لم يخطر له حينئذ ان هذه الرسالة ستفضي بعد بضع سنوات الى تركيب اليوريا ففتتح عهداً جديداً في علم الكيمياء . بيد ان جملين عزم حينئذ ان ينظم وهلر في سلك خدمة الكيمياء . فخدمه في الموضوع باسطاً ما في عمل الكيماوي من اللذة . وكان وهلر لا يحتاج الى بلاغة للاقتناع بذلك لانه كثيراً ما أغري بترك الطب لكي يتفرغ لدراسة اسرارها . وذكر له استاذة اسم برزيلوس وما احرزه من شهرة في دوائر اوربا العلمية . فتحمس وهلر ، على امل ان يقبله برزيلوس في عداد تلاميذه ومساعديه . فكتب الالماني الى السويدي في ذلك فرد برزيلوس وفي رده تجلى وداعة العلماء الحقيقية فقال : « ان من درس الكيمياء على جملين فلما يستطيع ان يتعلم مني شيئاً . ولكنني ارجب في معرفتك فتعال متى شئت » . فطرب وهلر لذلك . وخف الى استاذة ليطاعه على كتاب برزيلوس وشرع لدقيقته يعد المعدات للسفر الى عاصمة السويد

فلما وصل الى ثغر لوبك على بحر البلطيق قيل له ان لابد من الانتظار ستة اسابيع قبل اقلاع السفينة الى استوكهلم فضايق صدره بذلك ، ولكنه تمكن بواسطة صديق له كان يتبادل واياه نماذج المعادن ، من الاتصال بمعمل كيميائي هناك حيث حاول ان يكشف اسلوباً متقناً لتحضير مقادير كبيرة من البوتاسيوم وهو العنصر الذي كان السرهمفري دايشي^(١) قد استفرده قبيل ذلك

ولما نزل من الباخرة الى البر السويدي ، وعرف مأمور الجوازات انه قادم من المانيا لتلقي العلم على برزيليوس رفض ان يأخذ منه الرسم المألوف وقال : « ان احترامي للعلم ولمواطني الممتاز يأتني علي ان آخذ مالا من رجل حمله حبه للعلم ان يرسل هذه الرحلة الشاقة للدرس عليه »

وصل الى استوكهلم ليلاً ، فاصدق ان طلع الصباح حتى هرع الى بيت برزيليوس . قال : « وفي الصباح وقفت وقلبي خافق امام بابه اقرع جرسه ، ففتح لي الباب رجل سمين قوي البنية ، وكان الفاتح برزيليوس نفسه فلما تقدمني الى معمله تصورت انني في حلم »

وفي الحال اعطى الاستاذ تلميذه الجديد بوثقة من البلاطين ، وزجاجة ، وميزانا ، وعهد اليه في دراسة بعض المعادن . فلما تعجل وهلر في العودة الى استاذ له ليطلع على النتائج التي حصل عليها قال له الاستاذ محذراً « اسرعت يا دكتور ولكنك لم تُجيد » . فلم ينس وهلر هذا التحذير طول حياته . وبعد تحليل المعادن عاد فعني بالحامض السيانيك فحضر منه « سيانات الفضة »

كان في خلال ذلك الوقت شاب الماني آخر يدعى ليبغ ، منتظماً في معمل غاي لوساك^(١) الكيائي بباريس ، ومنصرفاً الى البحث في المفرقات الكيميائية

وفي خلال بحثه ركب مادة كيمياوية غريبة كانت العناصر التي ركبت منها هذه المادة نفس العناصر التي ركبت منها مادة « سيانات الفضة » التي ركبها وهلر وفي نفس المقادير . ولكن مركب ليبغ كان يختلف في خواصه الطبيعية والكيميائية عن مركب وهلر . فظن اولاً ان وهلر على خطأ في ما قال ، ولكنه بعد الامتحان الدقيق ثبت له انه ووهلر على صواب . فكتب اليه في ذلك مستظلاً رأيه ، فسأل وهلر استاذهُ برزيليوس ، فكان هذا السؤال مهداً للكشف عن ظاهرة « الايسوميري » في الكيمياء وهي ما يمكن ترجمته « بظاهرة النظائر » اي المواد الكيمياوية التي تتشابه تركيباً كيمياوياً ولكنها تختلف في خواصها

وقد اجتمع وهلر وليبغ بعد عودتهما الى المانيا وتوثقت اواصر الصداقة بينهما ، وكثيراً ما كانا يجتمعان ويتناقشان في الموضوعات الكيميائية التي تدور عليها بحوثهما ، واشتركا في بحث بعض المسائل واصدرا مذكرات علمية باسميهما معاً . وبلغ الاخاء العالمي بينهما اعلى ما يمكن ان يبلغه الاخاء الحقيقي ، فلم يضمن ليبغ على صديقه باسناد كل الفضل اليه في جميع بحوثهما المشتركة . قال : « يعود الفضل في بحثنا الحامض البولييك وزيت اللوز المر اليه . سرنا معاً يدي بيده ، لا غيره ولا حسد . وكثير من الرسائل التي حملت اسمينا معاً كانت من عمله وحده »

وفي ١٨٣٠ توفيت زوجة وهلر ، بعد انقضاء سنتين على زواجهما . فزن حزناً شديداً حتى ظن ان حزنه قد يحول دون مضيه في بحوثه . ولكنه ما لبث ان وجد في معمل صديقه ليبغ بلسماً لجرحه . فاكباً معاً على بحث زيت اللوز المر ، وبعض المركبات المؤلفة من كربون وايدروجين

واكسجين ، واتجهها خاصة الى درس خاصتها الغريبة وهي انها لا تتغير بتغير المواد التي تدخل هي في تركيبها . فأطلقا عليها اسم «بنزويلات» (جمع بنزويل Benzoyl) فلما قرأ برزيليوس بحتهما هذا رأى انه خبر يوم جديد في علم الكيمياء فأطلق على هذه الطائفة من المواد اسم بروينات (جمع بروين Proin) ومعنى اللفظ المفرد « الفجر »

بعد ذلك عاد وهلر الى مسقط رأسه ، حيث تزوج ثانياً ، ولكن شهرته كانت قد ذابت فلما توفي الاستاذ « شترومير » كاشف عنصر الكدميوم ، اختير وهلر ليحل محله استاذاً للكيمياء في جامعة غوتنجن . وكان لينغ من الذين ذكروا لهذا المنصب ، فلما عين صديقه فيه بعث اليه بتهنئة حارة

وشيد وهلر في غوتنجن معملًا كيميائيًا كبيراً ، فطارت شهرته في جميع الآفاق ، وهرع طلاب الكيمياء الى تلقي العلم عليه . ومن هؤلاء اميركي يدعى جوت Jewtt استاذ الكيمياء في كلية اوبرلين الاميركية . فلما عاد جوت الى اميركا حمل معه نبأ الكشف عن معدن الالومنيوم الفضي الخفيف الوزن . وكان جوت يميل الى التحدث مع طلابه عن هذا العنصر العجيب ، والمقادير الكبيرة منه في صخور الارض ، والثروة العظيمة التي يمكن جنبها من استنباط وسيلة رخيصة لتحضيره . واذ كان يقول هذا القول في أحد الايام ، نغز أحد الطلاب رفيقه وقال : « سوف يكون تحضير الالومنيوم بغيتي » . كان هذا الطالب تشارلز مارتن هول . وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٦ أتى الفتى هول الى استاذيه بحبة من معدن الالومنيوم المحضر بطريقة كهربائية رخيصة كان قد استنبطها . فكان ذلك مفتتح استعمال معدن الالومنيوم في مئات الاغراض الصناعية ، وجنى هول الثروة العظيمة التي تنبأ بها استاذاه جوت ووهب مليوني جنيه منها في وصيته ، للمعاهد الاميركية في الشرق الادنى وكذلك ربط سلك العلم بين وهلر الألماني وطلاب العلم في الشرق الادنى ، عن طريق جوت وهول الاميركيين !

ومن الغريب ان لينغ ووهلر انصرفا عن ميدان العلم الجديد الذي فتحاه ، بعد ان أحرزا انتصاراتهما العظيمة الاولى . فاتجه لينغ الى كيمياء الزراعة وتبعه في ذلك السر جون لوز الكيماوي الزراعي البريطاني ، واسس محطة روثامستد للتجارب الزراعية ، وهي اشهر محطة في العالم من هذا القبيل . وانصرف وهلر الى دراسة المعادن التي استهوت في حديثه فاستفرد البريليوم والأتريوم بعد استفراذه الالومنيوم في صباه . وكاد يكشف القناديوم ولكن الباحث سفستروم سبقه اليه فكتب اليه برزيليوس في هذا الصدد « . . . ان الكيماوي الذي استنبط طريقة لصنع مادة عضوية لم تصنع قبلا الا في جسم حي ، يسهل عليه ان يتنازل عن شرف سبق الى كشف عنصر جديد . فمن المستطاع كشف عشرة عناصر جديدة من دون الاحتياج الى ذرة من العبقرية »

وفي خلال ذلك كانت الكيمياء العضوية تسير بخطوات الجبّار الى الامام . فذهب مرسيلان

برتيلاو الفرنسي الى النملة وتعلم سرها ، اذ ركّس في معمله الحامض النملّيك formic acid وهو من المواد العضوية. وحضر كولب^(١) Kolbe الحامض النملّيك من دون الاستعانة بالبكتيريا التي تحدث التحميف الخلي. وصنع بركن^(٢) الانكليزي صبغ «الموف» فكان الاول في سلسلة من الاصباغ العجيبة المستخرجة من قطران الفحم الحجري . وكشف كيكوله^(٣) عن تركيب البنزين . ونفذ فون باير الالماني الى سر الصبغ النيلي فركبه تركيباً صناعياً ولما شرعت شركة الباديش في صنعه صناعاً تجارياً قضت على زراعة النيلة في الهند

واطر هذا التقدم واتسع بعد وفاة وهلر في سنة ١٨٨٢ . بل ان وهلر عاش حتى شاهد بام عينيه بعض العجائب في تركيب المواد العضوية التي تلت التركيب «اليوريا» . وحديث هذا التقدم شبيه بصفحات منتزعة من غرائب الف ليلة وليلة . ففي المانيا قام اميل فشر ، بعد ان رفض العمل في تجارة الحطب بحسب طلب ابيه ، وركب عشرات من المواد العضوية المعقدة في معمله الكيميائي . وقد كتب فشر عند ما فاز بجائزة نوبل الكيميائية ، معرباً عن اسفه ان والده لم يعش ليرى ابنه الخيالي ، فائزاً بهذه الجائزة

وفي سنة ١٩١٠ عرض كياوي الماني في نيويورك نموذجاً من «مطاط» ركه تركيباً صناعياً ولكن صنع المطاط صناعاً تجارياً لم يتم بعد . ولا تزال الجائزة التي عرضتها حكومة السوفيت في سنة ١٩٢٨ لمن يستنبط طريقة تجارية لصنع «المطاط» بالتركيب الصناعي ، محفوظة في خزنتها ولم يحجم الكيماويون العضويون عن التقدم الى مجارة الاعضاء الحية في تركيب مفرزاتها . فدرسوا مفرزات بعض الغدد الصم وركبوا الابينفرين (الادرينالين) سنة ١٩٠٦ والثيروكسين (افراز الغدة الدرقية) من قطران الفحم الحجري ، والانسولين (افراز الغدة الحلوة البنكرياس) الذي كشفه بانتغ ومكلود في جامعة تورنتو سنة ١٩٢٢ وعشرات بل مئات من العقاقير الجديدة التي كان صنعها وفقاً على اجسام الحيوان والنبات

ان العقل ليقف حائراً امام مبدعات الكيمياء العضوية . فقد كانت الكيمياء قبل وهلر وخلال حياته وبعبدها وصيفة الصناعة ، فاصبحت سيدة الطب ، وقد تكون سبيلنا للنموذ الى سر الخوبل وسر الحياة نفسها

وقد توفي وهلر في السنة الثالثة والثمانين من عمره ، بعد مرض دام ثلاثة ايام فدفن في غوتنجن ، ونقش على قبره ، وفقاً لرغبته هذه الكلمات : «فردريك وهلر : ولد في ٣١ يوليو سنة ١٨٠٠ وتوفي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢» . وقد كان مصاب العلم في تلك السنة مزدوجاً لان تشارلز دارون صاحب مذهب النشوء والتطور كان قد سبق وهلر الى دار البقاء قبل خمسة اشهر

(١) كياوي الماني (١٨١٨ — ١٨٩٤)

(٢) كياوي انكليزي (١٨٣٨ — ١٩٠٧)

(٣) كياوي الماني (١٨٢٩ — ١٨٩٦)

محاكمة ماتا هاري

الجاسوسة الكبيرة تواجه المحكمة العسكرية الفرنسية

فصل من تاريخ التجسس في الحرب الكبرى

لعل « ماتا هاري » أشهر جواسيس الحرب الكبرى على الإطلاق . بل هي حتماً أشهر الجواسيس الذين كشف أمرهم وحوكموا وأعدموا . ولدت في هولندا سنة ١٨٧٦ وبدأت حياتها العملية راقصة في باريس . وكانت ترقص في أحد مسارح برلين قبيل الحرب الكبرى لما انتظمت في سلك التجسس الألماني ووسمت برقم (H 21) والراجح أن أشهر فعالها تنكرها بلباس ممرضة في الصليب الأحمر وذهابها الى فيتل حيث اتصلت بطياري الحلفاء وانتزعت منهم أنباء عن الطرق التي كانوا يعمدون اليها في ازال جواسيس الحلفاء وراء خطوط الألمان . ثم أصبحت حظية بعض الضباط الفرنسيين في باريس فاطلعت بواسطتهم على المعدات التي يعدها الحلفاء لهجوم كبير على الجبهة الغربية . ثم كشف الجواسيس الفرنسيون أنها استعملت بريد السفارة الهولندية الدبلوماسية لارسال معلومات الى رؤسائها الألمان . وبعد ذلك طلب اليها ان تكشف اسماء جواسيس الحلفاء في البلجيك فاقدمت بجرأة نادرة على ان تنتظم في سلك التجسس الفرنسي وطلبت ان تتصل بجواسيس فرنسا في البلجيك ، فاعطيت قائمه فيها اثنا عشر اسماً لم يكن الا واحد منهم جاسوساً فرنسياً . فلم تنقض الا ثلاثة أسابيع حتى قبض على هذا الرجل وأعدم رمياً بالرصاص . وفي خلال ذلك كانت قد فادرت فرنسا الى انكارتا ناوية ان تذهب الى هولندا ولكن البوليس الانكليزي وضعها على باخرة مسافرة الى اسبانيا فاصبحت في مدريد حظية الملازم فون كرون رئيس الجواسيس الألمان في عاصمة اسبانيا . ولكن رؤسائها أمروها بالعودة الى باريس . ولما كانت في حاجة الى المال بعث فون كرون برقية لاسلكية الى امستردام يطلب فيها ان يرسل الى (H 21) مبلغ ١٥ ألف فرنك بواسطة السفارة الهولندية في باريس . فالتقطت هذه البرقية وحلت رموزها ولما وصلت ماتا هاري الى باريس قبض عليها وحوكمت وحكم عليها بالأعدام . وفيما يلي وصف المحاكمة . وقد اودعت بعض حوادث حياتها فلماً مثلته جريتا جاربو

... واخيراً اذف الوقت لتقديم ماتا هاري للمحاكمة العسكرية لمحاسبتها على فعالها . وكانت المحاكمة مؤلفة من ضباط فرنسيين كانوا اخوان الضباط والجنود الذين ساقتهم الى الموت الزؤام بما افشت من اسرار حركاتهم العسكرية لقيادة الجيش الألماني . في هذه المحاكمة كشفت ماتا هاري عن عقلها وروحها كما كانت تكشف عن جسدها في أبهاء الرقص في الحواضر الاوربية . وكان لا ندحة عن ان تسبقها شهرتها الى منصبة القضاء ، لان بعض قضاتها سمع بها حتماً اذ كانت كوكباً متألقاً على مسارح الرقص حيث اشتهرت بانها امرأة لا تقيم وزناً لاحكام الشرف والفضيلة . ولا ريب في انهم احسّوا بسحر ابوتها كما احس به غيرهم من الرجال الذين انتقادوا لها ، والراجح ان كلاً منهم تعجب في ما بينه وبين ذات نفسه ، سائلاً اي المقادير ساقطت هذه المرأة الفتاة الى الانتظام في سلك التجسس . بيد ان

ظلال التفكير التي تقيم وزناً للاعتبارات الادبية في سلوك الانسان لم يُقَمِّمْ لها وزن في محاكمها. فاعضاء هذه المحكمة كان يهمهم ان يصلوا الى حقائق حياتها وصلة تلك الحقائق بمتابعة الحرب واحراز النصر فكان هذا ديدنهم في استطلاع خفاياها

ولا يظنُّ احد ان قضائها وقفوا منها موقف الظالم المستبدِّ ، لما تناهى اليهم من انباء فعالها في التجسس على فرنسا لحساب المانيا ، فعاملوها في خلال المحاكمة معاملة قائمة على كرم النفس وادب السلوك . فاذا رأيت في خلال وصف المحاكمة انهم وجَّهوا اليها اسئلة تتعلق بحياتها الخاصة وعلاقتها بالرجال الذين فتنوا بها ، فاذا ذكر انها اختارت ان تبني دفاعها على كونها امرأة حظيَّة . ولكن القائمين بالبحث لم يسمحوا الحائل ما ان يحول بينهم وبين الحقيقة ، وانما لسنا نجد فيما كتب عنها ، قولاً واحداً يؤخذ منه ، ان ماتا هاري او المحامي عنها ، احتجَّ في خلال المحاكمة على ان القضية والبحاث حادوا عن جادة العدل . نعم انها توسلت الى قضائها في بعض ادوار المحاكمة ، ولكنه كان توسل سيِّدة تطلب ان تعامل كسيِّدة لا كجاسوسة . وقد أثار مورنيه Mornay — السيف المصلت في خلال الحرب فوق رؤوس الجواسيس — غضبها احياناً ولكن ثورتها جاءت من ادراكها انه استروح الحقيقة التي حاوت اخفاءها في كلام خامض فاهت به ، لا من اتسام اساليب بروح الظلم والعدوان

وكان قد تقدم للدفاع عنها الاستاذ كلونه Clunet وهو من كبار المحامين الفرنسيين وقد تعدَّ شهرته حدود بلاده . طلب الاستاذ كلونه ان يعهد اليه في الدفاع عنها . وكان هذا غير مألوف في محاكمات الجواسيس . اذ قلما فاز جاسوس بمحام كبير من طبقة كلونه في الدفاع عنه . ولكن لاسباب خاصة قبل طلبه . فقد كان كلونه رجلاً كيساً على اساريه جلال الشيخوخة ، ويعلم رأسه شيبه صالحة ، وعلى صدره وسام الحرب السبعينية . فكان كل ذلك من البواعث التي تحمل المحكمة العسكرية على احترامه . ثم ان كلونه كان قد عشق ماتا هاري ، لما كانت في اوج عزها وجمالها . وظلت الصلة بينهما صلة وثيقة بضع سنوات متوالية ، فهذه الصلة القديمة بين المحامي وموكلته ومقام الرجل في سلك المحاماة يضمنان لموكلته اربع دفاع يستطيع محام على الاطلاق

جلست المحكمة العسكرية الثالثة ، في دار محكمة الجنايات . وكان الرئيس جندياً قديماً محترماً ، يدعى الكولونل سمپرون ، رئيس الحرس الجمهوري سابقاً . وعقدت الجلسات في غرفة مقفلة الابواب لان طبيعة الاقوال التي قيلت في الاتهام والدفاع ، كانت تقتضي بقاءها في طي الكتمان . حتى حراس حجرة المحكمة لم يسمح لهم بالدنو منها . ولم تحتو الحجرة الا على اعضاء المحكمة وممثل الاتهام والمحامي كلونه وضابط آخر وحارس المتهمه ، وهذا بحكم الطبع علاوة على الشهود الذين دخلوا الى حرم المحكمة لسماع اقوالهم

اما ذلك « الضابط الآخر » ، فكان الكولونل ماسار Massard من ضباط اركان الحرب . ومعظم

الحقائق عن محكمة ماتا هاري منتزعة من كتابه الذي عنوانه « جواسيس باريس »

هنا في حجرة بعيد عن صخب الحياة الباريسية ، وقفت ماتا هاري تواجه التهم الموجهة اليها بأنها كانت على «صلة اخبارية بالعدو» : وهذه العبارة هي العبارة الرسمية التي يراد بها «التجسس» . ويقول الكولونل ماسار ، انها وقفت هناك طويلة القامة نحيفة ، زرقاء العينين نجلاويهما ، انيقة الثوب والقبعة ، ولكن شفيتها كانت تعلوها بسمة ترفع وسخرية وفي عينها قساوة لا تحد . على ان الكولونل ماسار لم يأخذ بقولهم انها امرأة فاتنة ، بل وصفها بقوله انها كانت المانية قلباً وقالباً بيد ان كل من رآها ، اعجب بالحزم والثبات اللذين قابلت بهما قضاتها ، والذكاء الخارق الذي كشفت عنه في اقوالها وردودها . فقد كانت تملك جواباً جاهزاً لكل سؤال . فكانت تسلم بكل ما تنهم به من الفعال ، ولا تنكر الا ما تنهم به من البواعث التي حملتها عليها . ولما شبّهت «بمسالينا»^(١) لم تثر ثائرتها ، بل باهت باستسلامها للشهوة . سلمت بانها حظية . ولكنها انكرت انها جاسوسة . ذلك كان خطة دفاعها . وتمسكت بهذه الخطة الى نهاية المحاكمة . اما تصرفها تصرفاً يحيط به الغموض ويشير الريب في بعض الاحيان فسببه — بحسب قولها — انه كان محتوماً عليها اخفاء شخصيات الرجال الذين كانوا من عشاقها . ماتا هاري لم تكن صريحة وحسب . بل كانت تفاخر بان عشاقها من اصحاب اكبر المقامات في فرنسا ، وانهم كانوا اكراماً واسخياء في معاملتها

— قال رئيس المحكمة : في اليوم الذي شهرت فيه الحرب الكبرى تناولت طعام الغداء مع مدير بوليس برلين وبعد ذلك صحبته في جولة في المدينة حيث حيتكما الجماهير

— فقالت ماتا هاري : هذا صحيح . وفسرته بقولها ان مدير البوليس كان قد جاء الى المسرح لشأن خاص بثوب الرقص لان ثوبها هذا كان يكشف من الجسد اكثر مما تسمح به القوانين

— فاستأنف الرئيس : وبعد ذلك انتظمت في قلم الاستخبارات الالمانى . فارسلك رئيس ذلك القلم في مهمة سرية الى باريس واعطاك ٣٠ الف مارك ووسمك بالرمز (H21)

— فقالت : الواقع انني اعطيت اسماً رمزياً لاستعمله في مراسلاتي مع صديقي . ولكن الثلاثين الفاً من الماركات لم تكن اجري كجاسوسة ، بل هدية لي كحظية رئيس قلم الاستخبارات الذي تشير اليه

— نحن نعلم ذلك . ولكن يظهر ان سخاء هذا الضابط كان فوق ما يتوقع

— ثلاثون الف مارك ! أهذا ما تدعونه سخاء ؟ ان عشاقى قلما اهدوا اليّ مبلغاً اقل من ذلك ولكنها ناقضت نفسها بنفسها حين سئلت في موضوع تراسلها مع الاعداء . وغرضها من ذلك ان تستفيد من اقوالها المختلفة في تطبيقها على الاحوال المختلفة التي تعرض لها . ثم شدد الرئيس الوطأة عليها عند ما اتهمها ، بانها تنكرت بلباس ممرضة وانتزعت من الضباط الفرنسيين كيف ينزلون الجواسيس الفرنسيين وراء الخطوط الالمانية

— الواقع انني كنت اراسل مع عشيقى الذي كان قد انتقل من برلين الى امستردام . وليس

(١) الزوجة الثالثة للامبراطور كلوديوس اشتهرت بالفسق والطموح والتسلط على زوجها وقد أعدمت

الذنب ذنبي في انه كان رئيس قلم الاستخبارات الالماني . اما أنا فلم أبعث اليه شيء مما تقول
 — لما كنت في جبهة الحرب ، اتصل بعلمك نبأ معدات تعد لهجوم كبير
 — علمت من بعض الضباط أصدقائي ان معدات تعد . ولكن لو أردت إنباء الالمان بذلك لما
 استطعت . فأنا لم أنذرهم بما كان واقعاً لانني لم استطع الى ذلك سبيلاً
 وقد كان قولها غريباً في بابه ، بعد ان صرحت قبيل ذلك بأنها كانت متصلة بالمراسلة بمدير قلم
 الاستخبارات الالماني . ولكن الواجب والكذب في نظرها كانا مترادفين . فهذا التناقض لم يكن
 ذا خطر في نظرها ، ولعلها ظنت انه لم يكن ذا خطر في نظر قضاتها ، فأخطأها الظن . بعد ذلك
 نظر اليها الرئيس ، وهو يعلم انه اوشك ان يصل في التحقيق الى الادلة القاطعة فسألها في شيء كبير
 من الاهتمام عن تراسلها مع ابنتها عن طريق البريد الدبلوماسي الخاص بسفارة دولة محايدة في باريس
 فقالت : اسلم بأني كتبت . ولكنني لم اضمن كتي انباء ما عن شؤون عسكرية

الرئيس : ولكن عندنا الدليل على انك ضمنتها تلك الانباء : بل ونعلم الى من بعثت بها
 كان في هذه العبارة أول اشارة الى مدى ما يعلمه البوليس الفرنسي عن فعالها . فشجب لوها
 ولم تحاول ان تفيض في زاهة البواعث التي حملتها على ذلك . ثم سئلت عن البواعث التي بعثتها على
 التطوع في خدمة قلم الاستخبارات الفرنسي ، فدلّت أجوبتها على انها لم تجد رادعاً من نفسها لحياة
 أصدقائها سواء اكانوا ألماناً او فرنسيين . قالت : لست أجد ما يستغرب في عرضي ان اخدم فرنسا .
 وقد كانت صلاتي الخاصة مما يمكنني من هذه الخدمة . وعلاوة على ذلك كنت في حاجة الى المال .
 فقال الملازم مورني : ولكن أصدقائك بعثوا اليك بعشرة آلاف مارك عن طريق سفارة دولة محايدة .
 فقالت : كان ذلك المال من صديقي

ومما يجدر ذكره هنا التناقض في اقوالها عن اتصالها بصديقها . فهي تستطيع ان ترسله او
 لا تستطيع ان ترسله بحسب مقتضيات الحال . ولكنها لما أجابت الملازم مورني بقولها « كان هذا
 المال من صديقي » بدت في كلماتها امارات الغضب ، ولعل ذلك نشأ من كونها قالت قبل لحظة من الزمان
 مباهية بأن صديقها لم يهبها مبلغاً ما اقل من ٣٠ الف مارك . فرد مورني ردّاً جافياً : من صديقك
 رئيس قلم الاستخبارات السرية في الجيش الالماني . ثم اصبحت جاسوسة في خدمة فرنسا . فاذا فعلت ؟
 — اعطيت رئيس المكتب الثاني من قلم الاستخبارات السرية الفرنسية اسماء الالماكن التي تلجأ
 اليها الغواصات الالمانية على شواطئ مراکش وقد كان للمعلومات التي قدمتها فائدة كبيرة

— ومن اين حصلت على هذه المعلومات — قال رئيس المحكمة — فاذا كانت صحيحة ، دلّ ذلك
 على انك كنت على صلة مباشرة بالعدو . واذا كانت كاذبة دلّ ذلك على انك تخدعيننا
 هنا تضعضعت ماتا هاري وطاش صوابها . فلما حاولت ان تعلق ما لا يعلل فاهت بأقوال
 لا تستقيم على معنى . قالت انها سمعت اسماء هذه الالماكن في مأدبة دبلوماسية كانت قد دعيت

للفرق فيها . ولكنها لا تذكر أن كان ذلك ولا ممن سمعته . ولما ادرت ماتا هاري ان ارتباكها وتلاعبها اخذاً يؤثران تأثيراً سيئاً في نفوس قضاةها ، استشاط غضباً وقالت مخاطبة الكولونل سمپرون : — على كل ، بذلت لفرنسا ما استطيعه . وقد كانت للانباء التي افضيت بها قيمة تذكر . . . لست فرنسية . ولست مدينة لفرنسا بشيء . انني امرأة مسكينة ، وانتم كضباط يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . فانحنى مورنيه امام ماتا هاري الحناءة الاجلال يشوبه شيء من السخر وقال : — لتصفح عنا سيدتي . فنحن ندافع عن بلادنا ليس الا . ومما لا ريب فيه ان الجاسوسة اضطربت لهذا الهجوم ولكن بعد هنيئة من التأمل رأت ان تخفي اضطرابها ، تحت ستار قولها الآتي وقد فاهت به بلهجة المتكبر : لست فرنسية ولا المانية بل انا من بنات دولة محايدة . انتم تضطهدوني . وفي عملكم ظلم . بل اعيد ما قلته وهو انه يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . ثم نظرت الى مورنيه دقيقة بشفة مقلوبة اعربت بها عن احتقارها له ثم قالت متمرمة : — ان هذا الرجل كرية فقال الكولونل سمپرون : هدي روعك يا سيدتي . وبعد فترة قصيرة جمعت فيها امرها المتفرق قال لها : — اعطاك الكابتن ليدو وثيقة عهد اليك في ايصالها الى مندوبينا في البلجيك . فما فعلت بتلك الوثيقة . فلم تجب

فأعاد السؤال مشدداً في وجوب الحصول على جواب قائلًا : انذرين ماذا فعلت بالورقة التي عهد اليك في نقلها الى وكيلنا ؟ فقالت لا . وكان جوابها جافياً ويقول احد اعضاء المحكمة العسكرية ، ان ماتا هاري لم تكن قد تحققت مدى الخطر المحقق بها حتى انزعرت من بين شفقتها تلك اللفظة النافية ، ولو انها قالت انها تذكر ما فعلت بها ، لانهاالت عليها الاسئلة الخاصة بها . ولكن المحقق — وكان هذا معروفاً عند المحكمة العسكرية الفرنسية — انها كانت قد بعثت بها الى الالمان في امستردام قبل ان غادرت فرنسا . وفي هذه الحالة ، كان النسيان اقوم عذر تعتذر به . ولكن الرئيس لم يقف عند هذا الحد ، بل شرع في اسئلته يهدي ذاكرتها الى الحوادث التي غابت — او ادعت — انها غابت عنها . قال : ان وكيلنا الذي أمرت بالذهاب اليه في البلجيك قبض عليه الالمان في بروكسل بعد ما انقضت ثلاثة اسابيع على مغادرتك باريس ، ثم اعدم رمياً بالرصاص

ومن الواضح ان القضاة كانوا عند بلوغهم هذه المرتبة من المحاكمة ، قد اصبحوا مقتنعين بصحة التهمة الموجهة اليها . ولتأييد اعتقادهم هذا رأوا السيدة المتكبرة الواقعة من نفسها ، وقد تضعضع صوابها ، فصارت تتعثر وتتردد وتتلعث ، كلما حاول الرئيس او مورنيه ، ان ينتزعا الحقيقة من شفقتها بالاسئلة الموجهة اليها المنطوية على ما يعلم . ولكنهما مع ذلك عجزا عن ان ينتزعا منها اعترافاً صريحاً ثم وجهت اليها المحكمة الاسئلة عن مقامها في مدريد عاصمة اسبانيا : قال احدهم : — — نزلت في الفندق بمديرية في غرفة محاذية لغرفة رئيس التجميس الالمان في تلك المدينة

— هذا صحيح

— هذا المندوب البرليني نقدك مالاَ لزيارات كثيرة متوالية — وهذا صحيح كذلك

— وتلقيت هدايا منه — بكل تأكيد. لأنه كان عشيقتي. قالت هذا وفي كلامها شعور بالثقة

— انتِ تعلمين ونحن نعلم ان رسائلك الى عشيقك في امستردام كانت ممضاة بامضاء (H 21)

— فكان جوابها السريع: ليس هذا القول صحيحاً

ويذكر القراء ان ماتا هاري كانت قد سلمت قبلاً بأنها استعملت رمزاً لمراسلة حبيبها، الذي

اتفق انه كان مدير قسم التجسس الالماني، وان ذلك ليس ذنبها

— أستطيع سيدتي عذراً، ولكن ما تنفينه صحيح. والدليل على ذلك هذه الرسالة البرقية التي

بعث بها المندوب الالماني في مدريد الى زميله في امستردام طالباً مبلغاً من المال لـ (H 21) عن طريق

سفارة دولة محايدة. عند ذلك كاد يغمى عليها. فانها لما أدركت ان الفرنسيين يملكون نص هذه

البرقية، انهار دفاعها من أساسه. ولكنها تماكنت نفسها ثم صاحت: أقول لكم... أقول

لكم... ان ذلك كان ثمن.... ثمن اتصالي الوثيق به.. هذا هو ثمنى... آه يا أسياد فرنسا...

صدقوني... كونوا كراماً. فذعر الاستاذ كلونه لاضطراب موكلته وارتجافها، ففسي عمله

كمدافع عن جاسوسة، واصبح الرجل الكريم الذي يحب ان يدفع عن امرأة جميلة ما يهددها،

فقدّم لها زجاجة من الأملاح العطرية وصندوقاً من الشكولاته

فصاحت ماتا هاري في وجهه: لا حاجة بي الى هذا. لست طفلة... سأعتصم بالشجاعة

ثم التفتت الى المحكمة وفي عينيها وانفها المرفوع معاني التحدي

فقال الرئيس: ولا تستطيعين ان تنكري انك ذهبت الى السفارة وقبضت المال الذي كان الملازم

فون كرون (رئيس التجسس الالماني في مدريد) قد وعده به

— واية فائدة من انكار ذلك؟ فالملازم فون كرون لم يشأ ان يوفّي ثمن هذا التقرب بماله الخاص

مفضلاً ان يوفّيه بمال حكومته

— المحكمة تقبل تفسيرك هذا.. فانتِ تعترفين بان المال جاء من رئيس قسم التجسس الالماني في هولندا؟

— لا ريب في ان المال جاء من عشيتي في هولندا الذي سدد من دون ان يعلم دين عشيتي في اسبانيا

فاضطرب الاستاذ كلونه لهذه الاجوبة المضطربة. كيف يستطيع ان يوفق بين قولها ان

فون كرون وفّي دينه لها بمال الحكومة، وقولها ان عشيقها الالماني كان يسدد دين زميله في اسبانيا

عند هذا الحد رفعت الجلسة. وفي خلال فترة الاستراحة، طاف المحامي الشيخ مستطعاً موقف

موكلته في رأي القضاء. فلم يسمع ما يحمله على التفاؤل. ولكنه لم يقنط. ولما سأل المجاور ماسار

قال هذا انها مقضي عليها. ولكن المحامي ردّ عليه: تريث قليلاً حتى تسمع اقوال الشهود. او

تريث حتى تسمع دفاعي

فلما اعيدت الجلسة لسماع الدفاع وعرفت ماتا هاري ان بعض اصدقائها من ذوي المقام قد قبلوا ان يدلو باقوالهم دفاعاً عنها ، استعادت ثقتها بنفسها واخذت تمارس فنون فتنها . فاخرجت من كيسها القلم الاحمر ودهنت به شفقتها ، واخذت من محاميتها طاقة من الزهر قدّمها اليها . ها هي ذي تبسم كأنها تغذي في قرارة نفسها رجاء خفياً . وها هي ذي تفتح صندوق الشكولاته وتأكل منها بشمية والشهود اكان في مقدمتهم جول كامبون اول عشاقها عند قدومها الى فرنسا ، ورئيس الموظفين الدائمين بوزارة الخارجية الفرنسية . كان دبلوماسياً محسناً ممتازاً في سلوكه واثقاً من اقواله بارعاً في الاخذ والرد فقال الرئيس : ولماذا دعوتهم هذا الشاهد

فقلت ماتا هاري ، من دون ان تنظر اليه ، ولكن بلهجة كلها اغراء : انه يشغل منصباً من اكبر المناصب في الحكومة الفرنسية . انه على اتصال بجميع اغراض الحكومة واعمالها الحربية المتوقعة . لقد قابلته بعد عودتي من مدريد . وقد كان اول عشاقى بعد طلاقى . فكان من الطبيعي ان اقبله وان اغتبط لهذه المقابلة . ولقد صرفنا معاً ثلاثة ايام بلياها قبل القاء القبض عليّ . وليس عندي اليوم الا سؤال واحد اوجهه اليه : هل طلبت منه في حالة من الحالات ، او وقت من الاوقات ، ان يطلعني على شيء مما يعرف . هل توسلت اليه بالصلة الوثيقة بيننا الى افشاء اي سرّ يمكنه فردّ كامبون قائلاً : ان السيدة لم توجه اليّ اي سؤال من هذا القبيل فقال المحامي : ترون اذن انها ليست جاسوسة . ولو انها شاءت ان تستطلع الاسرار فما كان عليها الا ان تمديدها ، فتميط عنها اللثام . فقال الرئيس : ولكن ما كان موضوع حديثكما خلال ثلاثة ايام ، والبلاد في حرب الموت والحياة ؟ ان ذلك لا يكاد يصدق

فقلت : لا يكاد يصدق ! ولكنه مع ذلك هو الواقع . لقد تحدثنا في موضوع الفن الهندي فقال مورنيه : لنسلم بذلك . ولكن يجب ان تعترفوا بان المهمة كانت على جانب وافر من الذكاء مكنتها من ان تفهم انه يتعذر انتزاع المعلومات السرية من الساسة المخبرين ، انتزاعها من صغار الضباط السكارى بخمر الحرب ونشوة الحب . ويجب ان تعترفوا كذلك بان صلتها بكبار الموظفين مما يرفع مقامها في اعين الالمان . وقد قيل ان بعض الاوراق التي كتبت ماتا هاري رسائلها عليها لاصدقائها في مدريد وامستردام كان من ورق « وزارة الخارجية — مكتب الوزير » . ولا ريب في ان هذه الصلة كانت سبيلها للحصول على الاجر العالي الذي فازت به . ومجرد ظهورها في صحبة السياسي الممتاز المائل امام المحكمة احاطها بهالة من السلطة والنفوذ مكنتها من التشدد في مطالبتها ولما سئل الشاهد هل عنده ما يضيفه الى اقواله قال : لم يحدث ما يحليني على تغيير رأيي في هذه السيدة . بيد ان امارات الارتياح بدت على وجهه لما توقف مورنيه عن الكلام ، كأنه كان يخشى ان يتوسع في حديث ليس متصلًا كل الاتصال بعلاقة الصداقة التي كانت تربط بينهما . ومع ذلك ظل السيد الكريم لانه عند نزوله من موقف الشهود انحنى لها باحترام وخرج

وكان الشاهد الثاني الجنرال مسمي وزير الحربية سابقاً . وقد كان واحداً من ضحايا فتنها وجمالها . ولما كانت تبعاته العسكرية تقضي ببقائه في مقره العسكري ، بعث بشهادته مكتوبة بعد ما اقسام امام قاضي الجهة التي كان فيها بصحتها ، وفيها صرح ان المتهم لم تسأله مطلقاً اي سؤال له صلة باعمال الحرب ، او يثير اي شبهة في نيتها

ومن المتعذر ان نسوق الى القراء هنا كل ما جاء في اقوال الشهود . بل ان بعض ما قيل سوف يظل مجهولاً الى الابد لانه لم يدون لاتصاله بمقام كثيرين من اصحاب المقام بيد ان المجمع عليه ان جميع الشهود الكبار الذي دعوا للشهادة ، لم يؤخذ عليهم مطلقاً افشاء اسرار الدولة . ولكن صداقتهم كانت على كل حال — كما قال مورنيه — ذات اثر عظيم في مقام ماتا هاري كجاسوسة المانية ومقدار المال الذي نقدته جزاءً لها على عملها

وبعد ما سمع الشهود شرع الاستاذ كلونه في دفاعه . فالادلة التي جمعت ضد المتهمه في خلال المحاكمة كانت مما لا يمكن نقضه . والاستاذ كلونه لم يحاول ان ينقضه . بل اقتصر في دفاعه ، على التوسل الى القضاء ان يرافوا بامرأة بارعة الجمال سبقت الى التضحية بجمالها ومواهبها في سبيل الاجرام . فصورها اولاً ، ببلاغته الخلابة ، زوجاً شقية ، وكيف كان زوجها يضطهدا ويعذبا ومحاولتها ان تكسب رزقها من طريق الرقص . ولكن معرفة احوالها الخاصة لم تكن سبيلاً الى الغفران في نظر اعضاء المحكمة . فلما اتم المحامي دفاعه اتجه رئيس المحكمة الى المتهمه وسأها هل عندها ما تضيفه الى ما قيل فأجابت سلباً وقالت : — ان محامي قد قال لكم الحقيقة . لست فرنسية . وليس لي حق ان اتصل بصلة الصداقة بأحد من ابناء البلاد الخائضة غمار الحرب ضد فرنسا . ولذلك بقيت على الحياد . ولذلك انا اعتمد على طيبة قلوبكم ايها الضباط الفرنسيون

واختلت المحكمة عشر دقائق فقط . ولما كانت العادة في المحاكم الفرنسية ان لا تقرأ المحكمة الحكم على المتهم ، خرجت ماتا هاري من حرم المحكمة ، عند ما عادت الى الاجتماع . عندئذ اتجه الرئيس الى اصغر الضباط سنّاً وسأله رأيه ، لئلا يتأثر برأي الاعضاء الذين يتقدمونه . قال : في قرارة نفسك وخفايا ضميرك ، هل انت مقتنع ان هذه المرأة ارتكبت اثم نقل الاخبار والوثائق الى العدو ، وانها كانت سبباً في موت كثير من جنودنا . فأجاب كل من اعضاء المحكمة بدوره « نعم » ولما اتم الاعضاء توقيع الحكم ، رمى احدهم الريشة من يده وقال : كريبه عليّ الحكم بالاعدام على من كان يملك هذا الجمال ، على مخلوقة على هذا الجانب من الفتنة والذكاء ، ولكن لو اتيج لي لأعدمها رمياً بالرصاص عشرين مرة . وفي اثناء ذلك كان المحامي الشيخ قد ادرك حقيقة الموقف فقال لموكلته ان تعتصم برباطة الجأش . ولما قرى الحكم بكى الشيخ من دون خجل . وماتا هاري ! هل بكيت او اغبي عليها ؟ كلا . بل وقفت هناك هادئة الروح وعلى ثغرها بسمه . فصاح احد ضباط الحرس : يا آلهي . انها تعرف كيف تموت !

مشكلة وادي السار

تاريخها وملابسها السياسية والاقتصادية

ا في ١٣ يناير ١٩٣٥ تم استفتاء السار فاختار ما يزيد على ٩٠ في المائة من المقيمين من ابناءه ان يعودوا الى الريخ . وينتظر ان يتم ذلك في أول مارس أو قبله بحسب القرار الذي يتخذه مجلس جامعة الأمم]

ما هي مشكلة السار

طلب الفرنسيون في سنة ١٩١٩ ان يعودوا من التدمير والتخريب اللذين بليا بهما في شمال فرنسا على ايدي الالمان في الحرب الكبرى . فانشأ ممثلو الحلفاء ، مقاطعة حول نهر السار ، لاشك في المائيتها ، ومنحوا مناجمها لفرنسا تحقيقاً لرغبتها . ونصت هذه المنحة يجعل الدولة الفرنسية مالكة مطلقاً دائماً لمناجم هذه المقاطعة . ثم عهد الى جمعية الامم في الاشراف على حكمها وتعيين لجنة من قبلها لهذا الغرض . واتفق اصحاب هذا القرار على ان يستفتي اهل السار ، بعد انقضاء خمس عشر سنة على النظام الجديد ، فيختاروا اما البقاء على حالتهم الراهنة او الانضمام الى الريخ او الانضمام الى فرنسا . وهذا هو الاستفتاء الذي تم في ١٣ يناير سنة ١٩٣٥ وعرفت نتيجته

ولكن الباحث يسأل عن الباعث على نشوء مشكلة كمشكلة السار . والجواب عن ذلك السؤال بطوي في نزعة الانسان الى الحرب والكفاح . فاذا أحرز النصر طمع في الاسلاب . وقد تتغير طبيعة الانسان من حيث نظره الى الاسلاب ، فيطلبها في عصر نساء وحظايا وفي آخر ذهباً او موارد للثروة كلناجم والمصانع . ولكنها اسلاب على كل حال يطعم الظافر في الحصول عليها اذا رأى الى ذلك سبيلاً . ووادي السار من البقاع الاقتصادية التي ترنو اليها الابصار في غرب اوربا . فهو يتاخم المانيا من جهة ومقاطعتي الانزاس واللورين من جهة اخرى ولا تزيد مساحته على ٧٢٦ ميلاً مربعاً . اما سكانه فحوالي ٨٠٠ الف نسمة فهو من اكدث المناطق الاوربية سكاناً لان متوسط سكان السار في الميل المربع الواحد ١٠٨٦ نسمة ، يقابل ذلك ٩٠٠ نسمة في الميل المربع في اكدث مناطق فرنسا سكاناً . والباعث على ازدهار السكان كثرة مناجم الفحم فيه ومصانع الحديد والزجاج والخزف . فقيل الحرب الكبرى استخرج من مقاطعة السار وحدها فحم يعدل نصف ما استخرج من مناجم فرنسا فاطبة . فالصناعات السارية المختلفة نشأت بحكم الطبع حول مناجم الفحم . حتى اننا لا نجد من جميع سكانه الا نحو خمسة آلاف فقط يعنون بحراثة الارض وزراعتها

وعلى ذلك كانت مقاطعة السار لقمة شهية طمع بها الفرنسيون الظافرون في سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ بيد ان الفرنسيين لم يشيروا مطلقاً الى السار في التصريحات التي صرحوا بها في خلال الحرب . فتصريحات الحلفاء في ديسمبر سنة ١٩١٦ ويناير ١٩١٧ وقرار البرلمان الفرنسي في يونيو ١٩١٧ وبنود ولسن الاربعة عشرة ، تنص جميعها على وجوب اعادة مقاطعتي الايز واللورين الى فرنسا ، ولكنها خلوت من اية اشارة الى السار . ولكن هذا لا يفي ان الفرنسيين كانوا قد بدأوا يفكرون في ضم السار اذا آتاهم اله النصر في الحرب . فالمعاهدات السرية التي عقدت بين الحلفاء في خلال الحرب اشد كشفاً عن حقيقة اغراضهم من تصريحات رجالهم الرسمية . ففي فبراير ومارس سنة ١٩١٧ عقدت فرنسا وروسيا اتفاقاً سرياً ، منحت بمقتضاه الاستانة لروسيا ، والايز واللورين ومنطقة الفحم في السار لفرنسا . وقبل ذلك بشهر واحد كان الوزير بريان Briand قد كتب الى السفير الفرنسي في لندن في هذا المعنى . قال انه لا بد من اعادة الايز واللورين الى فرنسا بمحدودها سنة ١٧٩٠ وهي حدود تجعل وادي السار جزءاً منهما . بل ان طائفة من الرجال غير الرسميين تآدوا في الطلب فقالوا ان فرنسا خسرت فحم السار في سنة ١٨١٥ وحديد اللورين في سنة ١٨٧٠ ففقدت بذلك مكانتها الاقتصادية ، وانه في سبيل استعادة هذه المكة لا بد من مد حدود فرنسا حتى نهر الرين نفسه .

فلما التأم مؤتمر السلام كان رائد الفرنسيين مطالبهم السرية لا تصريحاتهم العلنية . وفي مارس سنة ١٩١٩ اطلق كلمنصو قنبلة الاولى على مؤتمر فرساي اذ طلب ان تجعل حدود فرنسا ما كانت عليه سنة ١٨١٤ (وهذا يعني دخول السار ضمن هذه الحدود) وان تمنح حق الارتفاق من مناجم الفحم وراعيها . لذلك نرى ان مشكلة السار كان لها وجهان من يوم ولادتها . أما الوجه الاول فصير المناجم وأما الثاني فحالة المقاطعة السياسية

فخشي لويد جورج وولسن ، ان يفضي التسليم بطلب كلمنصو ، الى انشاء مشكلة جديدة كمسكلة الايز والورين ، تكون من البواعث على الحرب في المستقبل بين المانيا وفرنسا ، فعارضاً في مقترحه . قالاً انهما لا يريان مانعاً يمنع استيلاء فرنسا على مناجم الفحم ، ولكن السار يجب ان يمنح استقلالاً سياسياً على الاقل . فلما عجز المؤتمر عن حلّ العقدة عيّنت لجنة لدرس الموضوع ووضع حلّ وسط . وكان ممثل فرنسا في هذه اللجنة أندريه تاردو ، ابن كلمنصو الروحي ، وكان ممثل بريطانيا رجل يدعى هدلم مورلي . أما ممثل الولايات المتحدة الاميركية فكان الاستاذ هاسكنز أحد اساتذة جامعة هارفرد المعروف بنزعه الفرنسية . فاستقرّ قرار اللجنة على ان حق استغلال المناجم يجب ان يمنح لفرنسا . وأما حكم المقاطعة فيجب ان يعطى لمجلس محايد أو دولي

فلما صدر قرار اللجنة استعمله كلمنصو في سبيل الغرض الذي يرمي اليه . ذلك ان ولسن لم يكن يشاطر الاستاذ هاسكنز حماسه في سبيل منح السار لفرنسا ، ولكنه كان معنياً شديد العناية

بالشاء جمعية الامم ، وكان كمنصو يدرك هذا ، فاقترح في الحال ان يعهد الى جمعية الامم في حكم السار فأرضى بذلك ولسن وفاز بموافقته

فلما كتبت معاهدة فرساي ، نص فيها على ان فصل مقاطعة السار عن المانيا لن يكون مطلقاً ، بل يجري استفتاء فيها سنة ١٩٣٥ يتقرر مصير البلاد بحسب نتيجه التي يسفر عنها ، وتكون السيادة على البلاد في خلال هذه المدة ، لجمعية الامم . وتباشر جمعية الامم عمل السيادة عن طريق لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء تكون مسئولة امام جمعية الامم دون غيرها ولا يمثل سكان السار في الريحستاج في خلال ذلك . هذا من الناحية السياسية . اما من الناحية الاقتصادية فان مناجم المقاطعة ، وكانت من قبل ملكاً في الغالب للدولة الالمانية ، فتمنح ملكاً مطلقاً من اي قيد للدولة الفرنسية . فاذا استقر قرار الشعب الساري في استفتاء سنة ١٩٣٥ على العودة الى الريح وجب على الريح ان يبتاع المناجم من فرنسا وان يدفع الثمن ذهباً

بواعث المشكلة الاساسية

قامت سياسة فرنسا الخارجية في سنة ١٩١٩ وما بعدها ، على وجوب السعي الى ضمان سلامة البلاد من غزوة المانية قالية . والسلامة يمكن ان تضمن باساليب مختلفة ، لم يكن ضم السار اهمها . وسوف يرى القارئ في صفحة اخرى من هذا المقال ان مناجم السار منحت لفرنسا ، لأن الاساليب الاخرى المقترحة لم تحقق الغرض المنشود . ولكن فرنسا تطلب ضماناً لسلامتها ، وهو طلب قائم على الرغبة في التحصن ضد الغزو لا على الرغبة في بسط سيادة فرنسا على اوروبا . ففي ربيع سنة ١٩٣٤ وقف الميسو دومرغ — رئيس وزارة فرنسا حينئذ — يطلب ان تزداد الاعتمادات الخاصة بالدفاع القومي . فأشار في خطبته ، من دون تكلف او كبرياء الى ما خبرته فرنسا من ويلات الحرب اذ قال « لقد شهدت في حياتي حربين » . فكانت هذه الاشارة كافية لفوز المقترح بأكثرية الاصوات . وثمة طائفة كبيرة من الفرنسيين تستطيع ان تقول قول دومرغ ، ذاكرة ان الالمان غزوا فرنسا في خلال حياتهم مرتين . وهذه الذكرى جانب اساسي من تفكير فرنسا السياسي . فتجاهله في نظرهم ليس سخاء وكرماً بل هو حق ما بعده حق

وقد كانت بريطانيا ترى رأي فرنسا في هذا الصدد ، فطلبت ما يضمن لها عدم تجديد الخطر الالمانى الذي كان يهددها قبل الحرب . ولكنها حصرت مطالبها في ما يختص بالاسطول والمستعمرات ، ففازت باهم المستعمرات الالمانية ، ودمرت كذلك اسطولي المانيا الحربي والتجاري من دون ان تلقى مقاومة ما

ولكن فرنسا لم تكن في المقام الجغرافي الذي يمكنها من تحقيق مطالبها من دون ان تثير ضجة حولها . فالضمانات التي طلبتها كانت محصورة في منطقة نهر الرين ، ولهذه المنطقة مكانة كبيرة في

السياسة الدولية. يضاف الى ذلك ان بريطانيا حققت مطالبها اولاً ، وبعد ذلك صار يصعب على المانيا ان تسلم بأكثر مما سلّمت به ، من دون ان تقاوم وتعترض . وادرك كلنصوهذا ، ولكنه أدرك في الوقت نفسه ، انه اذا نكثت المانيا عهودها ، وجب على فرنسا دون غيرها ، ان تتحمل مغبة ذلك . ومن هنا تشدده في وجوب حصول فرنسا على الضمانات الكافية لسلامتها . وقد افرغ طلب هذه الضمانات اولاً في اقتراح مؤاده انشاء دولة محايدة مستقلة استقلالاً ذاتياً على ضفة الرين اليسرى تمتد من الجنوب الى الشمال على حدود فرنسا ولكسمبورج وبلجيكا وهولندا . ونحن نجد نواة هذا الاقتراح في المعاهدة السرية التي عقدت بين فرنسا وروسيا في خلال الحرب وفي مناقشات لجنة الشؤون الخارجية الفرنسية وفي مقترحات المارشال فوش . ولكن لويد جورج وولسن رفضا ان ينظر في المشروع . فلما شجر الخلاف ، كان الاتفاق وسطاً بين الرأيين فتقرر ان تحتل البلاد الواقعة على ضفة الرين اليسرى مدى خمس عشرة سنة ، وان تنزع جميع الاستحكامات الحربية منها علاوة على نزعها من منطقة عرضها ٥٠ كيلو متراً على ضفة الرين اليمنى . ووعدت المانيا ان لا تحشد ذخيرة الحرب مطلقاً في هذه المنطقة

كان طمع فرنسا في السار مطوّياً في اقتراحها انشاء دولة مستقلة محايدة على ضفة الرين اليسرى . فلما اخفق هذا الاقتراح اصبح لوادي السار شأن خاص بمحد ذاته . لأن الفرنسيين رأوا ان ضم السار يضعف الى مدى بعيد من قوة المانيا ، لأن قوة الدول الصناعية الحديثة مرهون بثروتها الطبيعية وفي مقدمة هذه الثروة مناجم الفحم والحديد . ولا يخفى ان فرنسا فقيرة بمناجم الفحم . فعودة مقاطعة اللورين اليها — واللورين غنية بمناجم الحديد — تجعل حاجتها الى الفحم اشد مما كانت ، لان مقاطعتي الازراس واللورين تستهلكان ما متوسطه ١٨ مليون طن من الفحم في السنة ولا تنتجان الا اربعة ملايين طن . فرأت فرنسا الفرصة سانحة لزيادة ثروتها على حساب العدو المقهور ، فطلبت مناجم السار كما طلبت بريطانيا ضم مستعمرات المانيا وتدمير قواها البحرية والبواعت الاقتصادية في طلب ضم السار ، متصلة اوثق اتصال ببواعت السلامة والرغبة في ضمانها . فقد وضعت معاهدة فرساي على قاعدة تفوق الناحية الاقتصادية في الحياة القومية والدولية . وعلى هذا الاساس سويغ طلب ضم السار . فمنطقة الازراس واللورين والسار ، وحدة اقتصادية لا يمكن فصم عراها . في السار فحم وفي اللورين حديد وليس بين البلدين الا ثلاثون ميلاً . ففصل احدهما عن الاخرى ، ليس في مصلحة هذه ولا في مصلحة تلك . ثم ان السار منطقة صناعية لا يعنى من سكانها بالزراعة الا ستة في الالف ، واما الازراس فغنية بالمحصولات الزراعية . فالتبادل التجاري بين البلاد طبيعي مرغوب فيه . نعم ان منطقة الازراس واللورين كانت مفصولة عن منطقة السار قبل سنة ١٨٧٠ ولكن ذلك كان قبل ان دخلت الصناعة الى وادي السار اذ كان سكانه ريع

ما هم الآن وجل اعتمادهم في رزقهم حينئذ على حرث الارض وزرعها. فلما دخلت الصناعة هذه البلاد كانت الحرب البروسية الفرنسية قد انتهت واصبحت منطقة السار جزءاً من الوحدة الاقتصادية المؤلفة من الاراس واللورين والسار. فالتقدم الاقتصادي الذي اصابته هذه البلاد بين سنة ١٨٧٠ و ١٩١٤ اصابته كوحدة غير متجزئة. ولذلك طلب الفرنسيون - وقد اعيدت اليهم الاراس واللورين - ان تبقى هذه الوحدة غير مجزئة كذلك. ففهم السار سوائاً كانت السار جزءاً من المانيا ام جزءاً من فرنسا، يحتاج الى حديد اللورين وحديد اللورين يحتاج الى خم السار

ثم ان للسألة وجهاً ثالثاً. ذلك ان سنابك الالمان اجتاحت شمال فرنسا في خلال الحرب الكبرى وشمال فرنسا من اهم المناطق الصناعية فيها. فاجتياح الالمان له دمر معظم مصانعهم ومناجمهم، وقد قدر المال الذي انفقته حكومة فرنسا على ترميم هذه المنطقة بأربعة آلاف مليون جنيه. اما المانيا فاعترفت بانها دمّرت المصانع والمناجم عمداً وسلمت بعدل التعويضات. وقد اتفق الفريقان على مبدأ التعويضات، ولكنهما اختلفا على المبلغ وطريقة التوفية نقداً وعيناً. كان لابداً لالمانيا من توفية جانب من مال التعويض بالذهب. ولكن فرنسا طلبت ان تكون توفية الجانب الآخر عيناً اي بمنح البلدان التي يحق لها التعويض مقادير من القمح والحديد وغيرها من الوان الثروة الطبيعية. وعلى هذا الاساس طلبت فرنسا ان تمنح مناجم السار. وقد اثبت الاختبار ان تعويض العن كان اجدي من تعويض المال. ذلك ان فرنسا كانت قد ضمنت لابنائها كل خسائرهم التي نشأت من الحرب نفسها. ففي سنة ١٩٢٢ كانت الحكومة الفرنسية قد اعطت ابناءها المستحقين نحو مائة مليون جنيه لترميم ما دمر من املاكهم في المنطقة التي اجتاحتها الجيوش. ولكنها حتى اول مايو سنة ١٩٢١ لم تكن قد استوفت شيئاً من مال التعويض. وفي سنة ١٩٣١ الغي نظام التعويض بتأناً. فكان فرنسا انفقّت على ترميم اراضيها المجتاحة من مالها الخاص

يضاف الى ذلك الباعث التاريخي، وهو ان فرنسا ترغب في جعل نهر الرين حدّها الشرقي، فحرزت اقساطاً متفاوتة من النجاح في تحقيق هذا الغرض على ايام ريشيليو ولويس الرابع عشر ونبوليون. وها هو ذا كلنصو يحاول من جديد. ألا ترى اليه وقد خاطب ولسن قائلاً: « انك تحاول ان تنزع من المباحثات السياسية الشعور والذاكرة. فالعالم لا يحكمهم بالمبادئ المجردة دون غيرها. . والمصالح الاقتصادية ليست كل شيء... ان المسألة التي قيد البحث ليست مسألة التعويض المادي فقط .. لان الحاجة الى التعويض المعنوي لا تقل عنها خطراً... ». وادعى كلنصو ان ١٥٠ ألفاً من الفرنسيين في السار يطلبون ضمّ هذه المقاطعة الى فرنسا مع ان المتكلمين باللغة الفرنسية في السار في سنة ١٩١٠ كانوا لا يزيدون على ٣٤٢ نسمة. وقد اثبت الاستفتاء الاخير ان ٤ في الالف فقط اقرعوا في جانب الضم الى فرنسا

السار بمر المعاهدة

كان شعور السارين ، بعد وضع المعاهدة ، شعور الاطفال انزعوا من حضن امهم فاعتقدوا ان حكم جمعية الامم او حكم لجنتها ليس الاستاراً لحكم فرنسا . ومع ما اصابوه من الاقبال والرخاء الاقتصادي بين المعاهدة والاستفتاء ، لم يسلّموا بهما ولم يجهروا الا بتبرّمهم ومما يؤسف له ان طريقة الحكم في بضع السنوات الاولى بعد عقد المعاهدة ، مكنت هذا الشعور في نفوس السارين . ففي الفترة التي انقضت بين نوفمبر ١٩١٨ وفبراير سنة ١٩٢٠ — وهو التاريخ الذي تسلمت فيه الجمعية مقاليد الحكم في السار — كانت المقاطعة محتلة احتلالاً عسكرياً فرنسياً فالغيت في خلال ذلك الحقوق المدنية والسياسية وحدثت عدة حوادث بين اهالي البلاد وبعض الجنود . فلما تسلمت اللجنة الحاكمة الاولى مهام الحكم في فبراير سنة ١٩٢٠ انتهى الاحتلال الفرنسي ولكن ظل شبح السيادة الفرنسية مبسوطاً على البلاد . كان رئيس اللجنة فرنسياً يدي رولت Rault وكان معظم اعضاء اللجنة يميلون الى فرنسا . وكان لبنوك باريس حصص كبيرة في معظم صناعات البلاد . ولما كانت فرنسا تملك المناجم اضطرت الصناعات المختلفة ان تعنو للسيادة المالية الفرنسية الا صناعتان منها . واذن كان شعور السارين حينئذ في محله وهو ان حكم جمعية الامم ليس الا ستاراً لسيطرة فرنسا

وعلاوة على ذلك كانت المعاهدة قد نصّت على ان السار بلاد مستقلة عن المانيا . فالغت اللجنة الحاكمة العلم الالمانى وصنعت عالماً جديداً خاصاً بالمقاطعة ، وبذلت الختم الامبراطوري الالمانى بنجم جديد ، وطبعت طوابع بريد جديدة لتستعمل محل الطوابع الالمانية . فلقى كل ذلك معارضة شديدة من الاهلين . لان هذا الابدال كان في نظر اعضاء اللجنة مجرد تغيير شيء باخر واما في نظر السارين أنفسهم فكان بقاء الصلة بينهم وبين المانيا . فالساريون كانوا الماناً وكانوا يباهون بهذا . فكل محاولة رمت الى احاطة البلاد بمظاهر الاستقلال الذاتي لم تخرج في نظرهم عن كونها محاولة لجعلهم فرنسيين او ايطاليين . ولو ان اللجنة كانت مؤلفة من ملائكة لما رضي الساريون عنها لانهم ملائكة غير المان هذا الشعور المتغلغل في نفوس السارين واذهانهم ، حملهم على اغفال الفوائد التي جنوها من حكم جمعية الامم . ففي الرّيح السابق للحرب ، كان المقام الأول لفحجم الرور لا لفحجم السار . وكان سبق لمنتجات وستقاليا لمنتجات السار في الاسواق الالمانية . ولكن الفرنسيين ادركوا من البدء انهم لا يستطيعون ان يفوزوا بولاء الاهلين الا اذا مهدوا للسار سبيل الرخاء . لذلك ازيلت العقبات التي تحول دون رواج فحم السار ومنتجاته في المصانع الفرنسية والاسواق الفرنسية . ومع ان الازمة العالمية أثرت في رخاء الاهالي في بضع السنوات الاخيرة ، الا أنهم جنوا فائدة تذكر من دخولهم ضمن النطاق الجمركي الفرنسي . ومما لا ريب فيه ان الازمة كان لها اثر في المانيا اعظم منه في فرنسا . فكان هذا الضمّ الجمركي كان جزيل الخير على السارين

يضاف الى ذلك ان نقابات العمال ازدهرت في عهد جمعية الامم . مع ان انشاءها كان ممنوعاً في عهد الامبراطورية ، وعاد ممنوعاً بعد تسلم هتلر لمقاليده الحكم . ومن الفوائد التي اصابها السار ان تقدم بعد الحرب كان على أساس الفرنك وتقلب الفرنك كان أقلّ جدّاً وأيسر من تقلب المارك فالساريون قلماً أشاروا الى ما جنوا ولكنهم كثيراً ما جهروا وجأروا ببواعث تبرّهم . وفي مقدمتها استعمال الجندرية الفرنسية . نعم ان جيش الاحتلال الفرنسي نقص رويداً رويداً بعد سنة ١٩٢٠ ولكنه لم يسحب تماماً ، ومن بقي منه اطلق عليه اسم «بوليس سكك الحديد» . ذلك ان اللجنة الحاكمة الاولى تلتكأت في استمداد رجال الجندرية من الساريين أنفسهم لأن رو Rault رئيسها كان يرى انه من المتعذر وجود بضعة ألوف من الساريين موالين لنظام الحكم الجديد يمكن الاعتماد عليهم . فساء هذا الساريين و اضافوا اليه تبرّهم بالنفقات الطائلة التي لا قبل لهم بها . ولما كانت اللجنة الحاكمة تحمل تبعة المحافظة على الامن العام رفضت ان تغامر مغامرة قد تسوء عقبها . على كلّ كان لبقاء بعض الجنود الفرنسيين اثر غير محمود في نفوس السكان

ومما شكوا منه الساريون عدم اشتراكهم اشتراكاً فعلياً في الحكم ، مع ان نصيبهم فيه بعد الحرب ، كان أعظم جدّاً من نصيبهم فيه قبلها . ذلك ان معظم كبار الموظفين في السار قبل الحرب كانوا ألماناً من برلين . فلما تولت لجنة جمعية الامم الحكم استغنت عن خدمات هؤلاء لاضعاف النفوذ الألماني من جهة ولارضاء الساريين من جهة ثانية بتعيينهم في المناصب الشاغرة . ولكنهم ما كادوا يعطون هذا حتى طلبوا المزيد . فلما رأت اللجنة انشاء برلمان استشاري لهم مؤلف من ثلاثين عضواً ينتخبون بالاقتراع العام ، كان اول طلب طلبه البرلمان حق اقتراح التشريع ، واستجواب الحكومة ، والتمتع بالحصانة النيابية

وبلغت المرحلة الاولى في حكم السار بحسب النظام الجديد ، ذروتها في سنة ١٩٢٣ اذ استفحل التبرم وكان الباعث المباشر عليه احتلال فرنسا للورور ، فاضرب عمّال مناجم السار اضراباً دام مائة يوم ، عطفاً على اخوانهم في الورور . فاتخذ رو رئيس اللجنة الحاكمة وسائل شديدة لمعالجة الحالة فضيّق على الحريات وقرر ان يستدعي الجنود الفرنسية اذا اضطرب حبل الامن

هذه الحوادث نهبت بريطانيا الى ما هو جارٍ في مقاطعة السار ، وكانت حتى ذلك الوقت مرخية العنان لفرنسا فيها . فطلبت الحكومة البريطانية تعيين لجنة للتحقيق في اعمال اللجنة الحاكمة في السار فظهر ان جمعية الامم لم تمارس في خلال السنوات الثلاث التي انقضت على لجنة «رو» اية سيطرة على اعمال اللجنة وان رو نفسه كان مسيطراً على اللجنة ، بل انه قرّر تنفيذ خطط جديدة احياناً من دون ان يستشير زملاءه . فكان من اثر هذا التحقيق ان جعل رو يستشير زملاءه في كل اعماله . وقد ظلّ في منصبه هذا الى سنة ١٩٢٦ لما عين ستيفنز الكندي رئيساً ثم تبعه المستر جفري نو كس الانكليزي وهو لا يزال رئيساً الى الآن

وقد كان الجانب الاخير من رئاسة روبرتس ستيفنز ونوكس عهد سلام واقبال . ففي الناحية الواحدة كان الساريون قد تعوّدوا نظام الحكم الجديد ومع ان معارضتهم لم تضعف الا انها فقدت لدعها الاول . ثم ان اللجنة نفسها فقدت رويداً رويداً خضوعها للنموذ الفرنسي ، لان الرئيسين اللذين خلفا روبرتس انكلوسكسونيين . وضعفت في هذا العهد الدعاية الفرنسية في المدارس ونقص الجنود الفرنسيون الباقون في البلاد رويداً رويداً حتى خرج آخرهم من البلاد في سنة ١٩٣٠ وفي بداية سنة ١٩٢٧ بدأ المليون الفرنسيون يبيعون حصصهم في الصناعات السارية فهدوا بذلك السبيل ليكون الحكم حكماً محايداً على قدر المستطاع . وفي خلال هذه المدة حلّ التقارب بين فرنسا والمانيا الذي عقده بريان وتشيرزمان في لوكارنو . وفي سنة ١٩٢٩ اخذ تشيرزمان وبريان يبحثان في امكان بيع مناجم السار لالمانيا ، ولكن ارباب الصناعة في الرور لم يرقهم هذا فكان الثمن الذي عرضه تشيرزمان على فرنسا اقل كثيراً مما يمكن قبوله

فلما تسلم هتلر مقاليد الحكم في المانيا ، تعقدت الحالة ، لان حلّ هتلر لنقابات العمال حمل الاشتراكيين الساريين على التفكير في الدعاية الى ابقاء الحالة الراهنة . وظنّ بعض الكتّاب ان النزاع الديني في الرينخ ، لا بدّ ان يحمل الكاثوليك من الساريين ، وهم اكثرية ، على مقاومة العودة الى حظيرة الرينخ . وبلغت المسألة اعقد ما يكون في صيف ١٩٣٤ اذا اشتدت الدعاية النازية في السار فطلب رئيس اللجنة قوة دولية للأشراف على حفظ الأمن في البلاد . فأفضى هذا بعد مفاوضات طويلة الى انشاء القوة الدولية وانتظام بريطانيا فيها . فكان هذا القرار خير مخرج للدول من مسألة كادت تتفاقم حتى رأى بعضهم شرر الحرب متطيراً منها

بعد الاستفتاء

لما اقترب ميعاد الاستفتاء أفتى كثيرون من الكتّاب المطلعين على دقائق الحالة في السار ان المانيا لا بدّ فائزة باكثرية كبيرة . ولكن احداً منهم لم يبلغ في تقديره حدّ التسعين في المائة او يزيد التي نالتها المانيا حقيقة في الاستفتاء . وهذه الاكثرية الكبيرة تهوّن على جمعية الامم اتخاذ القرار النهائي في اعادة السار الى الرينخ . ذلك انه لو كانت نتيجة الاستفتاء مثلاً ٦٠ في المائة في جانب المانيا و ٤٠ في المائة في جانب الحالة الراهنة ، لاضطرت جمعية الامم ان تقيم في القرار الذي تتخذه وزناً لهذه الاقلية الكبيرة ، وقد يحملها ذلك الى شطر السار ، وهذا لا ريب يقيم المانيا ويقعدها وهو مما لا يطرأ له محبّ للسلام . ففوز المانيا بهذه الاكثرية الساحقة كان في مصلحة السلام وقد اعترف المسيو فلانندان رئيس وزراء فرنسا بذلك فقال « ان نتيجة استفتاء السار اقتراع للسلام » . وردّد اهر هتلر من ناحيته ما قاله قبلاً وهو انه بعودة السار تصفى آخر المسائل المعلقة بين فرنسا و المانيا مما يخص الحدود بين البلدين . وينتظر ان يستلم السار لالمانيا في اول مارس ١٩٣٥

الموت المندمج

الدولة الفاشية وعلاقة المال بالعمال

ليس مثل الازمات كاشفاً لمواطن الضعف في النظام الديموقراطي . ان حسناته تبدو جليلة بهية في ايام السلم والرخاء اذ يسهل حفظ الشعب مكتفياً قنوعاً بحكومته راضياً عن حاله . ذلك ان الرخاء يفتح النقاد ويحمل المنتخبين على تأييد اية زعامة ، او القناعة بغير زعامة على الاطلاق . ولكن اذا وقعت امة وظهرها الى الجدار — على حد تعبير الانكليز — تدفع عن كيانها في حرب ، او عن وحدتها في ثورة ، او اذا ارتج كيانها الاقتصادي وتقلقل حتى كاد يهوي ، بدت مواطن الضعف حينئذ في الفلسفة الديموقراطية كأساس للحكم

لذلك نرى ان الديموقراطية في اوربا بعد الحرب ، في دور جزر ، ولا تفسير لذلك الا ان الاضطراب والتقلق اثقالا كاهل النظام الرأسمالي ، فضاق الناس به ذرعاً ولا مفرّاً الا الى الشيوعية والاشتراكية حتى جاء موسوليني فأدخل الفكرة الفاشية رويداً رويداً ، وهو يتطور معها ويتطورها بحسب حاجة البلاد محتفظاً بتمثيل الشعب ، ولكن محولاً معنى التمثيل ، من معنى الى معنى . فقد كان في البدء المثل الذي نرؤ اليه الديموقراطية ، هو اطلاق حق الاقتراع ، لجميع البالغين والبالغات ، واما « الدولة المندمجة » او « الدولة النفاذية » التي يرنو اليها موسوليني ، فلا يلغى التمثيل من نظامها ، وانما يكون تمثيلاً لأصحاب المصالح الاقتصادية في البلاد

وقد عني موسوليني من يوم تقلده لازمة الامور في بلاده ، ببيان انفصاله في نظامه الجديد ، عن صورة الدولة التي كان يرسمها الاحرار في القرن التاسع عشر . فالاختلاف بين الاحرار والاشتراكيين كان اختلاف « كم » اما الاختلاف بينهما من ناحية وبين الفاشية من ناحية اخرى فهو اختلاف « نوع » . ذلك ان الاحرار كانوا في القرن التاسع عشر يعتقدون ان الدولة يجب ان لا تتدخل في ميدان الاعمال الا اذا كان لا بد من ذلك ، لاضطراب الحالة وتفاقم الاضطراب ، وان على الحكومة ان تترك ميدان الاعمال حراً ، لتزاحم القوى القومية وتنافسها تنافساً حراً ، وان هذا التنافس الحر هو سر التقدم القومي والباعث على الرخاء . اما الاشتراكي و همته الاول متجه الى العامل البدوي ، فيرى ان الدولة نفسها يجب ان تدير الاعمال والمرافق العامة وانها يجب ان تعتمد في استعمال سلطتها الى القوة اذا لزم الامر ، في مصالحة طبقة خاصة دون غيرها من طبقات الشعب

وكلتا المدرستين — مدرسة الاحرار ومدرسة الاشتراكيين — تحسب الدولة فكرة مجردة لا نظاماً يحس فيه رجل الشارع والعامل البسيط والفلاح الساذج ، بانهم اجزاء منه

وليس من السهل او اليسير ان تضع تعريفاً جامعاً مانعاً للفلسفة الفاشية ، وانما يمكن اجمالاً بقولك « كل فرد للدولة والدولة للجميع » . فليس ثمة عمل من اعمال الدولة في نظر موسوليني لا يصح أن يكون موضع عناية كبيرة عند الدولة الفاشية ، بل يجب على الدولة ان تنظم اعمال ابنائها لكي ينجنوا اكبر قدر يمكن جنبه من جهودهم ، ولكي تتجه جهودهم في النواحي التي تقيد الامة جمعاء . فالفاشية ترمي الى اندماج الدولة حتى تخرج الامة من البوتقة وحدة مندمجة كأنها جسم حي . انها ترمي الى ان توحد بين الامة والفرد ، وان تضم تحت جناحي الدولة كل فرد وكل عمل فالفاشية تنكر وجود كائن دولي وراء الدولة . والدولة القومية هي في نظرهم الوحدة العليا ولها الحق في ان تطلب وتنتظر من كل فرد من ابنائها ولاءه التام . والطبقات في هذه الدولة لا يعترف بها الا اذا كانت تقوم بوظيفة من وظائف الدولة اي انها تمثل او تقابل العضو في جسم الانسان . ولما كانت اعضاء الجسم مندمجة متحدة متناسقة في عملها ، ومتجهة نحو غرض واحد هو اتساق الحياة الفردية ، كذلك الطبقات في الدولة يجب ان تندمج وتتحد وتتجه في عملها نحو غرض واحد هو اتساق الحياة القومية . والبرلمان الذي يمثل هذه الطبقات ، هو البرلمان الذي يرمي موسوليني الى انشائه ان الدولة الفاشية تعترف بوجود نقابات العمال . ولكنها تنكر علاقة اية نقابة بالمذهب الماركسي ، لان كل نقابة يجب ألا تتعدى في ولائها حدود الدولة . وهي تعترف في الوقت نفسه بجماعات اصحاب العمل ، اعترافها بنقابات العمال ، كما تعترف بكل الجماعات القائمة على اساس من وحدة العمل . واعترافها هذا ليس مطلقاً بل له شروط اي انها لا تعترف بنقابة عمال او بجماعة تجار ، ن لهذه النقابة او لتلك الجماعة حقوقاً ضد الدولة ، بل هي تعترف بها الى مدى حاجة الدولة اليها في بناء نظامها المندمج . لذلك ترى النقابة المعنية ، والجماعة الخاصة ، من ابناء الامة اجزاء حية ، او اعضاء حية على الاصح ، في جسم الدولة ، وعلى كل منها تبعة خاصة ، خاضعة لسيطرة الدولة وتنظيمها فالنقابة قد تسعى الى رفع اجور العمال وتحسين احوالهم المعاشية ، وجماعة اصحاب العمل ، قد تميل الى خفض الاجور ، ولكن كلتا النقابة والجماعة ، يجب ان تخضع لحكم الدولة ، التي لا تسمح ببلوغ النزاع بين الفريقين مبلغاً يهدد سلامة الدولة . فالتحكيم الاجباري في شؤون الصناعة ، فكرة اساسية في الدولة الفاشية

من اغرب مظاهر الموقف الذي يققه الاغراب نحو موسوليني ونظامه الجديد ، تباين النظر واختلاف الرأي في حكمهم عليه . فطائفة من المحافظين الغلاة في محافظتهم ، يحترمونه ويحاولون ان يسبوا في اثره . وهم لو عاشوا في ايطاليا لانحوا في الغالب على حكومته واتهموه بالاشتراكية . فكأنهم لا يدرون مثلاً ان صاحب مصنع في ايطاليا لا يسعه ان يستغني عن عامل ما الا اذا ثبت لمكتب « تخديم العمال » ان اخراجه ضرورة اقتصادية . او انه مقصّر . ثم هناك طائفة من اتباع

الاشتراكية وزعمائها ، والاشتراكية معتقده القديم ، لا يجدون من عنيف القول ما يكفيهم في تصوير مساوي النظام الفاشي . وهم لو دروا لوجدوا ان معظم المقترحات العملية في برنامجهم الاقتصادي ، قد تناولها موسوليني وطبقها في الدولة الفاشية . فموسوليني رجل عملي ، ولا يهرب الالفاظ التي توسم بها الاحزاب ، ولذلك تراه اخذ من اليمين ومن اليسار كل ما رآه صالحاً لغرضه ، ويسهل نقله من حيز الفكر والامكان الى حيز الفعل والتطبيق

وقبل ان نذكر اهم ما اشتمل عليه « دستور العمل » في ايطاليا الفاشية لا بد من ذكر كلمة عن حالة ايطاليا ، لما اقدم موسوليني على تنفيذ خططه الجديدة ، التي اضافت ولا ريب ، شيئاً جديداً الى فلسفة الانظمة السياسية ، بجمعها بين السياسة والاقتصاد في صعيد واحد

فنحن اذا نظرنا الى ايطاليا من الوجهة الاقتصادية وجدناها امة الزارع الصغير ، والصانع الصغير ، وصاحب الدكان الصغير . ففي الاعمال التجارية قلما تجد المخازن الكبيرة التي تجددها في لندن وباريس ونيويورك ولا الشركات التي تدير سلسلة من المخازن الكبيرة في العاصمة وسائر المدن الايطالية . بل قلما تجد رجلاً واحداً يملك مناطق واسعة من الارض الا في الجنوب . ومعظم الملاك لا يعدو ما يملكه أحدهم ان يكون حقلاً أو بستاناً صغيراً . فشعب يتسم نظامه الاقتصادي بهذه السمة ، فلما يكون مرتعاً خصباً للأرامل او للشيوخ . فهذه الناحية من حياة الامة الايطالية ، كانت تربة صالحة للفاشية ، فأرسلت جذورها في الارض وفروعها في السماء . ذلك ان الفاشية ترمي الى تعزيز المجهود الفردي الصغير ، من دون ان تسمح للنزعة الفردية بالاستفحال حتى تهدد وحدة الدولة بالانقسام . ولا ريب في ان تحقيق أغراض موسوليني ، قد مهدت سبيله هذه « الفردية » الشائعة في البلاد الايطالية

يضاف الى ذلك ان اقبال ايطاليا على الصناعة الحديثة قريب العهد ، واسباب تأخرها كثيرة معظمها قلة الوقود ، فخماً كان او نفطاً . أما وقد بدأت تبني المحطات لتوليد الطاقة الكهربائية من مساقط المياه ، فليرجح ان تتمكن ايطاليا من منافسة الدول الصناعية بعد انقشاع غيمة الضائقة العالمية . بل هي تنافسها منذ الآن . ثم ان العامل الايطالي ، يحب الطبيعة ، ويفتنه جمالها ، فمن فقد منهم عمله في مصنع ، يستطيع ادماجه من دون عناء في جمهور الزراع والحصاد . اما المناطق الصناعية فمحصورة في بقاع معينة فيمكن معالجتها ما ينتابها معالجة اجمالية ، وهذا متعذر لو انتشرت في طول البلاد وعرضها

ومع كل هذا عجزت الرأسمالية قبل الحرب وبعيدها عن معالجة الحالة . فسادت فوضى في حياة ايطاليا الصناعية حملت طائفتي اصحاب العمل والعمال على التوق الى اي حل مرض ، يستتب على ارضه السلام والوثام بينهما . ففي سنة ١٩٢١ حدث في ايطاليا ١١٣٤ اضراباً ، اشترك فيها ٧٢٣٨٦٢ عاملاً وخسرت بها المصانع ٨١١٠٠٦٣ يوماً من ايام العمل والانتاج . وكان جليلاً ان فوضى من هذا

القبيل، تخرب البلاد اذا استمرت سنة اخرى . فتدمر المصانع وتفضي الى فقد الاسواق . ولذلك بدا لاصحاب الرأي ، ان النظام الرأسمالي قد افلس في ايطاليا وان الرأسماليين والاشتراكيين سواء في عجزهم عن الوصول الى علاج . وهذا كله مهد الطريق لتجربة نظام جديد في جسم الدولة الاقتصادي

كان موسوليني الرجل الامثل ، خلق النظام الجديد . لانه مهما يقل فيه ، فانه غير متحكم . انه يدين بكثير من آرائه الاقتصادية الى سورل الفرنسي، ولكنه لا يتقيد به . فلما دخلت الفاشية ميدان السياسة احجم موسوليني عند اتخاذ اي موقف حاسم في موضوع العلاقة بين الرأسماليين والعمل ، لانه كان قد ادرك ان الحالة الاقتصادية في تغير وتبدل مستمرين . كان غرضه وحدة الامة ، وقطع دابر الشقاق والنزاع بين طبقاتها . اما السبيل الى ذلك فلا ينيره الا الاختبار . وكذلك أنشأ رويداً رويداً النقابات والاتحادات الاقتصادية التي يقوم عليها نظامه للفصل في موضوعات الشقاق ، بوسائل سلمية

وكان قد حدد موقفه نحو طبقة العمال في خطبة فاه بها قبل تقلده الحكم قال فيها : — « ان الذين يعملون سوف يكونون في مقدمة الامة ، لان امة الغد سوف تكون امة منتجين لا امة طفيليات . وفي ديسمبر سنة ١٩٢٣ قال في خطبة اخرى « لما كنت في العشرين من العمر كنت اشتغل بيدي . اشتغلت عاملاً وبنّاء طوب . وانا لا اذكر هذا ابتغاء عطفكم عليّ ، وانما لا أبتسئ انني لا استطيع ان اكون عدواً لطبقة العمال » . وفي الخطبة ذاتها قال ايضاً : « ان الحكومة التي اقشرف بتولي رآستها ليست حكومة ضد العمال ولن تكون كذلك »

وفي السنوات الثلاث الاولى من الحكم الفاشي اعدت نظم مختلفة لوضع العلاقات بين العمال واصحاب العمل على اساس من الوثام والنظام ولكن صرف النظر عنها . وهذه العلاقات يحكمها الآن القانون الذي صدر في ابريل سنة ١٩٢٧

ونستطيع ان نحسب هذا القانون مرحلة على طريق عظمة ايطاليا كما يحسب الانكليز « الماچنا كارتا » الذي منحوه في سنة ١٢١٥ فكان فاتحة الحرية المدنية التي بنيت عليها عظمة الامة الانكليزية من المتعذر الموازنة بين الاثنين ، فكلٌّ منها أخرج في زمن مختلف عن الآخر كل الاختلاف . « فلما جئنا كارتا » الانكليزي صدر نتيجة للنزاع بين الاعيان والملك ، ولما ساد الحياة العامة الانكليزية من الظلم والفساد . واما القانون الايطالي فصدر نتيجة للعبادئ التي قررتها الفاشية واذاعتها في سبيل « الدولة المندمجة » من جميع عناصرها . فالقانون الايطالي لم يعرض لتقرير الحريات العامة من سياسية وفكرية ودينية ، لان هذه الحريات كانت مما تحتّمه قوانين البلاد ويضمنه دستورها وانما المشكلة التي عرض لها هذا القانون هي مشكلة علاقة الرأسمال واصحابه بالعمال ، وما ينجم عن ذلك من الاصطدام الاجتماعي ، مما يجعل هذه المشكلة من اعقد المشكلات التي انتابت الاجتماع الحديث

وهذا القانون ليس قانوناً بالمعنى المألوف وإنما هو تصريح ينطوي على المبادئ التي تقوم عليها الدولة المندمجة. وهو يحتوي على ٣٠ مبدأ، العشرة الأولى منها ادجت في قانون النقابات. وبموجب هذا القانون، يحق للمستغلين بالفنون والصناعات والحرف المختلفة ان يؤثفوا نقابات واتحادات، وبه عينت حقوق كل من فريقي العمال واصحاب العمل وما عليهم من التبعات، وحدد حق الدولة المطلق في السيطرة على انتاج الامة بغية خيرها الاعظم. وفيها كذلك تقرر ان الرأسمال والعمل في مستوى واحد من المقام من حيث علاقتهما بالدولة، وبه منعت الاضطرابات التي تشل الصناعات واصبحت تحسب في عداد الجرائم، وبه جعل العمل اليدوي مساوياً للعمل العقلي من حيث ما لهما من الاثر في رخاء الدولة وحسن مآلها. والغرض الاسمي من كل هذا هو السمو بجميع العمال الى اعلى مراتب الكفاءة والانتاج والفائدة. وقد نص في هذه المبادئ على ان اي خلاف بين الممولين والعمال لا يفض عن طريق النقابات يجب ان يحال الى مجلس العمال الاعلى، للحكم فيه حكماً منصفاً نهائياً.

أما المبادئ العشرة التالية فتعين ما يلزم لانشاء العقود بين اصحاب العمل والعمال. ولهذه العقود قيمة القوانين، ويجب ان يحترمها المستأجرون والعمال على السواء. وفيه حددت الطرق التي بموجبها تعين الرواتب والاجور، عند حد يمكن العمال من العيشة في مستوى يتلاءم وحاجاتهم العصرية. وفيه كذلك ذكرت القواعد التي تمنح بموجبها اجور اضافية عن العمل الاضافي، نهائياً ولبلاً، والتعويض الذي يدفع للعامل اذا اعلن باخراجه من العمل لغير تقصير منه، والاحوال التي فيها يحق لصاحب العمل ان يستغني عن عامل من دون ان يحتم عليه دفع تعويض له، وكذلك الاحوال التي يحق له فيها ان يفرض غرامات على العمال.

ويلي ذلك قواعد «مكاتب الترخيم» والتأمين في وجوه المختلفة الاجتماعية والصناعية والصحية هذه هي القواعد، وعلى اساسها وضعت قوانين مختلفة تنفذ الآن، مهدت السبيل لسن

اخرى متى اقتضت الحال بما تقتضي به التجارب

ومما هو حري بالذكر ان نحو عشر سنوات انقضت منذ صدر هذا التصريح، ولم يحدث في طول ايطاليا وعرضها اضراب واحد. وكل خلاف نشأ بين الرأسماليين والعمال قد فُض بطريقة سلمية جرياً على قواعد هذا التصريح والقوانين التي بنيت عليه.

وقد تمكن بعض اصحاب العمل، في بعض الصناعات، من رفع أجور عمالهم، من دون ان يطالبهم العمال بذلك. وقبل العمال في صناعات وحرف اخرى، النقص في مرتباتهم، كلما اقتضت الحال ذلك. وفي احوال اخرى طلب العمال انفسهم خفض أجورهم رغبة في تمكين اصحاب العمل من زيادة عدد العمال، لكي لا يجرم زملاء لهم منه.

وقد تمكن موسوليني من الحصول على هذه النتائج الباهرة في ايطاليا، باذاعة مبادئ التعاون والاشراك في كل الطبقات، وما على كل منها من التبعة نحو الامة.

الدكتور شاخت

دعامة الريخ الاقتصادية

تمكنت ألمانيا ، بالسعي المستمر ، مدى عقد كامل من السنين ، تهدد تارة وتغضب طوراً وتلين أخرى ، من أن تخفف عبء التعويضات رويداً رويداً حتى خلصت منه في مؤتمر لوزان سنة ١٩٣٢ الأ مبلغاً يحسب يسيراً اذا قوبل بالارقام الاولى . وهي تحاول الآن ، بالعزم الحاسم نفسه ، ان تتخلص من قيود معاهدات الصلح ، وخاصة ما كان منها مرتبطاً بالسلح وبتبعة الحرب ، بل قد وجهت أنظارها كذلك الى تخفيف أعباء الديون التجارية الخاصة التي اقترضت معظمها من اميركا وبريطانيا وسويسرا وهولندا وغيرها من البلدان

فأنت ترى ان ألمانيا سائرة سيراً حثيثاً في سبيل التفات من القيود العسكرية والمالية التي فرضت عليها نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى ، وأخذت تستعيد مكانها الاولى في قارة اوربا . وقد كان للدكتور شاخت مدير بنك الريخ (الريخسبنك) سابقاً مكانة خاصة وأثر كبير في هذا العمل العظيم . فالدكتور شاخت هو العقل المرشد للنظام النازي في الناحية الاقتصادية ، كما كان للحكومات الجمهورية التي سبقته . فهو في ألمانيا دليل على استقرار النظام الاقتصادي والمالي ، أو هو حائل يحول دون القيام بتجارب اقتصادية ونقدية تخالف الاصول المرعية عند علماء الاقتصاد كما يفعلون في اميركا . فوجوده في الريخسبنك او في وزارة المالية او وزارة الاقتصاد يمكن ان يؤخذ ضماناً على ان ألمانيا لن تحاول على الأقل فيما يختص بنظام البنوك ان تخرج على التقاليد ، لانه بعد ما ثبت سعر المارك لن يرضى بأن يقلقله مقلقل أياً كان

نعم أن موقفه هذا ، قد يغضب بعض المتطرفين من أنصار هتلر ، المعارضين للفلسفة الرأسمالية لأن هؤلاء كانوا يظنون أنهم يستطيعون ان يقنعوا الهر هتلر ، بأن الريخ الثالث يجب ألا ينقل نفسه ، ببقايا حضارة رأسمالية كالنقد القائم على قاعدة الذهب . ولكن الدكتور شاخت معروف بشدة الاخلاص في نزعة الوطنية ، ولذلك لا يستطيع أحد أن يتهمة بما اتهم به أنصار النظام السابق . ومع أنه من المنضمين حديثاً الى الايمان بالديكتاتورية إلا أن فضاله الشديد ، قبل قيام النازي ، في سبيل الوحدة الالمانية ، والبعث الالمانى ، يجعل له مقاماً خاصاً في ألمانيا النازية . فقد ندد من قبل بمعاهدة الصلح ، وباحتلال بلاد الرين ، وقاوم مشروع يونغ ، وهو الآن يوجه عنابه الى حماية الاقتصاد الالمانى ، من التدهور ، والى نقص الدفعات التي تسدد الى دائني ألمانيا التجاريين ، حتى لا ترهق هذه الدفعات استقرارها المالي المنشود

والدكتور شاخت ، بخلاف منتاغو نورمان مدير بنك إنجلترا ، والمسيو موريه مدير بنك فرنسا ، لا يكتفي ، ولم يكتف من قبل ، بحصر جهاده في ميدان المال والاقتصاد ، بل كانت له مواقف وطنية مشهودة ، وخطب سياسية ، يرضى عنها جميعاً ، أشد النازي تطرفاً وعنفاً في الوطنية . فالستر منتاغو نورمان اذ يعبر البحر الى اميركا ، يفعل ذلك متخفياً تحت اسم مستعار في الغالب . أما الدكتور شاخت ، فلا يخفي اسمه ولا يمسك عن ابداء آرائه ، بل ان بعض رحلاته الى الخارج كانت حملات عنيفة من الدعاية لالمانيا . ففي خلال احتجاجات لجنة دوز في باريس كان الدكتور شاخت على ميعد مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاريه ، فلما طال انتظاره خمساً وعشرين دقيقة قام وانصرف احتجاجاً على هذا التأخر ، فلحق به رسول واقنعه بأن الانتظار كان لسوء تفاهم في ضرب البعاد . ولما سافر البلون 3 Z. R. من المانيا الى اميركا — وكان قد بني في المانيا لاميركا وفقاً لمعاهدة الصلح وكان آخر بلون يحق لالمانيا بناؤه — انفطر قلب الدكتور شاخت غضباً وقال « ان هذا مثال مخيف لبغضهم وحسدهم وطلبهم للنار ! »

ولما تطورت الحال في المانيا ، وزاد تبرعها بالحالة الناجمة عن معاهدة فرساي ، حتى كاد يصبح التبرم ثورة ، زال من ميدان السياسة الالمانية ، رجال امثال بروينغ وكريسيوس ، وقام مقامهم رجال من نوع هتلر وجوبلس وجورنيج ، وهم رجال يتصفون في مقدمة ما يتصفون به بوطنية ملتزمة ، وخطابة نارية ، ومقدرة نادرة في الدعاية . وهذا الانقلاب لم يكن يختلف اختلافاً عظيماً عن طبيعة الدكتور شاخت ونشأته . بل انه ، والحق يقال ، من الرجال الذين مهدوا له السبيل ، لانه من الوطنيين الالمان القلائل ، الذين ثاروا من البدء على معاهدة الصلح ، وخاصة ما كان مرتبطاً منها بالتعويضات وذلك قبل ان يتقلد النازي زمام الامر ، ويبشوا هذه الروح في صفوف الامة الالمانية وللدكتور شاخت آراء حاسمة ، وطبع لا يقبل الهوادة . ثم انه ليس رجلاً يصرف همه الى الادارة ، والاختصاص بمسائل المال والنقد فحسب ، بل هو ادرك من معالجته للشؤون الاقتصادية الاخطاء التي تتعرض لها المانيا اذا ظلت سائرة على الخطط الاقتصادية التي وضعت في معاهدة فرساي . لذلك لم يكتف بكتابة المذكرات الفنية والاقتصادية والمالية لدولته ، بل كان يلقي الخطب ويكتب المقالات معرباً فيها ، في المانيا وخارجها ، عن آرائه الحاسمة في هذه الموضوعات

وهو من اصل سكسوني وضيع ، ولد في شلزوج هو لشتين سنة ١٨٧٧ — كانت هذه المقاطعة خاصة بالدانمارك فضمها بسمارك الى المانيا ، ثم ضم شطر منها الى الدانمارك بعد الحرب الكبرى — وكذلك نشأ في احدى المقاطعات الواقعة عند حدود المانيا ، فنشأت نزعته الوطنية قوية عنيفة . وعاش والده في اميركا ، وهو حدث ، فغرس في نفسه الاصول الديمقراطية وقد ظل مؤمناً بالديموقراطية واساليبها الى عهد قريب . ففي سنة ١٩٢٩ التي خطبة في مونيخ — مدينة البيت الاسمر مقر حركة النازي — فقال فيها : يخطئ الذين يظنون اننا نستطيع ان نعالج هذا الارث

المرهق — قيود معاهدة فرساي — بوسائل دكتاتورية . واني ما ازال ارجو ان يقف الرجال الذين بهمهم مستقبل المانيا موقفاً مشرفاً يستند الى المبادئ الديمقراطية ، لأن من هذه المبادئ دون غيرها ، ينبع العمل المجدي لانقاذ المانيا »

ترى ما كان رأي هتلر يومئذ في هذه الكلمات !

ولكن الحوادث ايدت هتلر ، ولم تكن شجرة الديمقراطية الالمانية التي قام هتلر لاقتلاعها ، الا غرسه ضعيفة ، وقد دب اليها النخر قبل ان تشتد ، فلم تثبت في وجهه بعد سنة من القاء خطبته في مونيخ ، انفصل الدكتور شاخ ، عن وزارة الدكتور بروننغ — وقد كانت آخر حكومة جمهورية صميمة في المانيا — باستقالته من الريخسبنك وتنديده بمشروع يونغ لتسديد التعويضات . ذلك ان غضبه على التعويضات وحنقه على قيود معاهدات الصلح ، كانا اقوى في نفسه من تعلقه بالمبادئ الديمقراطية . وبعد سنة اخرى انضم الى ما كان يعرف حينئذ (١٩٣١) بالجبهة الوطنية ، وهي ائتلاف من النازي والملكيين لاسقاط الجمهورية

وما لبث النازي حتى خرجوا من هذا الائتلاف بأكليل الظفر ، ومن الاركان التي يعتمدون عليها ، في ظفرهم هذا ، الدكتور شاخ نفسه ، ولعله ادرك حينئذ ، ان امه في الديمقراطية قد انهار ، وان المانيا ، يجب ان تتحد ، « بالدم والحديد » . حتى في ايام ديموقراطيتها ، اذ كان عضواً في الحزب الديموقراطي الالمانى ، كان ينقد نقداً عنيفاً سياسة الحكومات الجمهورية ، وكان لا يخفي انه عدو للاشتراكية . فقد حذر تلك الحكومات ، من التضخم النقدي ، ومن التمادي في اقتراض القروض القصيرة الآجال . وكثيراً ما وجه النظر الى الصعاب التي تعاني ، في مسألة نقل البضائع والمال ، تسديداً للتعويضات . وكذلك ترى انه مع كونه قبلاً ، من غير الدعاة للدكتاتورية ، كان يشاطر هؤلاء الدعاة تبرهم بالحالة السائدة في المانيا ، وغضبهم على اعدائها السابقين

بعد عودته من اميركا درس بين سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٩ علوم الاقتصاد ، في جامعات مونيخ وليبزج وبرلين وكيل ، ثم تقلب في المناصب المالية والاقتصادية العالية ، الى ان كانت الحرب الكبرى ، فعين مستشاراً اقتصادياً للإدارة الالمانية في البلجيكيك ثم لما عاد الى المانيا عين مديراً «لناشونالبنك» وفي سنة ١٩٣٢ عين قوميسيراً للنقد ، ومديراً لبنك الريخ . ثم جاءت استقالته من بنك الريخ في عهد الوزير بروننغ وعاد اليه سنة ١٩٣٣ بعد قيام الحكم النازي

ان شاخ وThyssen هما الركناان اللذان يستند اليهما النظام النازي من الناحية الاقتصادية وكلاهما قد خدم امته وبلاده أحسن خدمة . ومن الطبيعي ان يكونا غير ميالين الى الاشتراكية . وهذا قد يثير عليهما بعض اعضاء الحزب النازي لان هذا الحزب ، ليس وطنياً فقط بل اشتراكياً كذلك واسمهُ الرسمي الحزب الوطني الاشتراكي . ولكن المانيا الآن لا تستغنى عن شاخ ، لانه جمع فضيلتي العلم والخبرة من ناحية والاخلاص في الوطنية من ناحية اخرى

العمدة التلغراف

للطبيب البولوني غلواكي

زارت احدى الاميرات ملجأً لليتامى . فعرض لها مشهد كان غاية في الندرة
والغربة . فأنها رأت اربعة صبيان في عراقك شديد أخذاً كل منهم بتلايبب الآخر ،
وهم يوسعون بعضهم بعضاً لكماً ولطماً ، نزاعاً على كتاب ممزق بين ايديهم فاستفظعت
عملهم هذا وصاحت بهم صيحة الزجر والانتهاز قائلة : — على م هذا الصراع ايها
الاولاد الحق ؟ فأقل عقاب تستحقونه عليه ان تحرّموا نصيبكم من الكعك وتوضعوا
ركعاً في الزاوية

فاجابها واحد منهم ، معتذراً عن ذنبه ومشيراً الى صبي آخر :

— انه اغتصبني كتاب روبنسن كروزو

فقال ذاك : هذا كذب وبهتان ! انه هو الذي اغتصب الكتاب !

وقال صبي ثالث : لله ما اشد افتراءك ! افلمست انت من انتزع الكتاب مني ؟

وكانت ناظرة الملجأ قد بادرت الى تدارك الأمر فوضعت حداً للصراعهم
وزاعهم . ثم خلت بالاميرة وقالت لها ان ما شهدته اليوم في الملجأ كثير الحدوث ،
مع اتحاد كل ما يمكن اتخاذه من وسائل المراقبة التامة . وذلك لان الاولاد مولعون
بالمطالعة ولعاً يفوق الوصف والملجأ في اشد احتياج الى الكتب

فهاج هذا النبأ في قلب الاميرة شرارة شعور غريب لم يخطر من قبل ببالها .
لكنها رأت ان مواظبتها على الافتكار فيه مجلبة للعناء والقلق فأغفلته وبذلت جهدها
في نسيانه الى ان زارت ذات يوم رئيس المستشارين وتناول الحديث بعض الشؤون

الدينية واعمال البر والصدقة فتذكرت حادثة ملجأ اليتامى وقصتها عليه واعادت ما
قالت لها ناظرة الملجأ

ولما فرغت من كلامها طرأ على المستشار ما كان قد سبق فطراً عليها من الشعور بامر
غريب غير مألوف . فأعاده جانباً من عنايته واهتمامه واستصوب ان يبعث ببعض
الكتب الى اولئك اليتامى . وتذكر انه كان قد اشترى ، منذ وقت طويل ، طائفة
كبيرة من الكتب لاولاده وهي الآن مودعة رفارف المكتبة وبعض الصناديق
يغشاها الغبار وتعبث بها ايدي الدثور والبلاء . ولكنه لم يشأ ان يتحمل عناء البحث
عنها ومشقة جمع شتاتها وارسالها الى الملجأ

وفي مساء ذلك اليوم زار المستشار صديقاً له كان عنوان المروءة والاربحية وكانت
حياته كلها وقفاً على انشاء الملاجىء والمتصدقات ومساعدة لجان البر والاحسان .
فروى له ما شاهدته الاميرة في ملجأ اليتامى وما قالت لها ناظرة الملجأ وزاد على ذلك
تصريحه بعزمه على ارسال بعض الكتب ووجوب التضافر على معونة اولئك اليتامى
وسد عوزهم الادبي . فقال له صديقه :

— الخطب سهل الى الغاية ! غداً صباحاً اذهب الى مكتب جريدة « الكورير »
واوجه فيها نداء الى ذوي النجدة ليبادروا الى ارسال الكتب التي يحتاج اولئك اليتامى اليها
وفي صباح اليوم التالي خف ذلك الأريج الى غرفة مدير هذه الجريدة وحدثه بما
سمعه من صديقه المستشار وألح عليه باسم الانسانية ان ينشر في جريدته النداء المطلوب
واتفق لحسن الحظ ان الجريدة كانت يومئذ في حاجة شديدة الى خبر رائع طريف
يستوقف نشره انظار قرائها ويشغل ما كان باقياً فيها من الفراغ . فجلس مخبرها من
فوره - وانشأ مقالة رنانة في هذا الموضوع عنوانها : « جوع النفوس : بضعة
اولاد : في ملجأ يتامى - يعرضهم ناب الاحتياج الى الكتب - ان شوقهم اليها
اعظم من ان يوصف - لا تنسوا نفوسهم الجائعة ! »
وبعد بضعة ايام ذهب المخبر الى مكتب الجريدة ومعه واحد من اصدقائه وكان

استاذاً للفلسفة الطبيعية . فلقني عند الباب رجلاً رثّ الملابس وسخّ اليدين وبجانبه فتاة صغيرة صفراء الوجه نحيلة الجسم وعليها اطّارٌ بالية تكاد لا تكفي لستر عريها وهي حاملة رزمة كتب قديمة . فسأله المخبر :

— ماذا تريد يا سيدي ؟

فرفع الرجل قبّعتَهُ واجاب بخشية واحتشام

— جئنا يا سيدي ببعض الكتب للاولاد ذوي النفوس الجائعة الذين كُتبت عنهم . وحت الفتاة الناحلة رأسها وصنغ الحياء محياها المغشى بصفرة فقر الدم . فتناول المخبر الكتب منها وسلمها الى خادم المكتب . وسأل اباه :

— ما اسمك يا سيدي ؟

فاجابه بحيرة وارتيك :

— لماذا تروم يا سيدي ان تعرف اسمي ؟

— لا بدّ لنا من معرفة اسم المتبرع بهذه الكتب لكي نعلنه في الجريدة

— لا ارى اقل ضرورة تدعو الى ذلك . فارجو ان تغض النظر عنه ولا تعيره شيئاً من الاهتمام . اني رجل بائس ومسكين وواحد من عمال مصنع القبعات . فلست بمستحق ان يعنى بأمرى وينوّه باسمي

قال هذا وانطلق ذاهباً بابنته الصغيرة النحيفة

وبعد ذهابه التفت المخبر الى صديقه الذي كان يبرأى ومسمع من كل ما حدث وقال له : — ان وقوع هذه الحادثة في اثناء وجودك معي — وانت استاذ الفلسفة الطبيعية — أخطر بيالي ففكر المخاطبة التلغرافية بطريقة جديدة . فالمكتب الرئيسي لهذا التلغراف كان ملجأً اليتمى . والمكتب الذي تسامه كان العامل في مصنع القبعات . فلما اشار الاول مسترعياً الانتباه لبّاه الثاني من فورهِ . وعند ما صرّح ذلك بحاجته بادر هذا الى قضائها . اما نحن الباقيين فكنا — جميعاً — اعمدة التلغراف !

الحب : لسلي

يا فتنتي إن الغرام
أدّى بها للانضمام

قالت ولم تبدو النجوم
مجمومة فوق الغيوم
للبدن تنظر ساهيه
فتعود عنه بأكيه
وتصعد الزفرات نار
حتى يوافيها النهار ؟

فأجبتها ان النجوم
تطوي النفوس على كلوم
قد أصبحت تهوى القمر
امسى يبرحها السهر
هي تبتغي منه النوال
فيصدها عزّ الجبال

قالت فان كان الغدير
من فرط صبوته يسير
والغصن برّحه هواه
فأقام ملتزماً اخاه
والنجم برّحه السهر
مذ راح ينظر للقمر
اني لذات حشّي خفق
فلنعتنق .. فلنعتنق !!!

قالت علام أرى الغدير
أبدأ على عجل يسير
موصولة أناته
وشجيرة نغماته
أفليس يأخذه الملل
أفليس يرزحه الكلال ؟

فأجبتها لا تذهلي
من سيره المستعجل
النهر صب حار
نحو البحيرة سائر
اذ يهفوان ويشدوان
وبغبطة يمازجان

قالت واغصان الشجر
تبدو حجاباً للنظر
فعلام تشتبك الغصون
فتصون تجوال العيون
لا الريح تحرقها ولا
تضطرها أن تفصلا ؟

فأجبتها لو تعلمين
ما بالغصون من الحنين
جلست في ظل السكون
تدوين أمواه الشؤون

المعبد

للفونس دي لامرتين

ما أُحْيِلَنِي ما يبدو للإنسان في المساء ، عند ما يرتفع ببطء ، في قُبَّةِ السماء
الكوكبُ الغَرْدُ ، متقدماً محفَّةَ الليل الصامته ، وقد تَنَازَعَ الأرض الضياء والظلام ،
بل ما أُحْيِلَنِي ما يشعر به ، عند ما يَنْقُلُ خطواته المقدسة ، في مُسْتَقَرِّ
الوادي ، ميمماً صَوْبَ المعبد الخلوي ، وقد غطى الطُّحْدُ رواقه البسيط ، حيث
السماء لم تزل بعدُ ، تخاطب القلوب التقيَّة

سلاماً أيتها الغابة المقدسة ! سلاماً أيتها المفازة الحزنة ! أنتِ الامينة على مقابر
القرية البسيطة ، أني أبارك ، حيناً امرُّ بك آثاركِ الخالية من كل زخرف ، والويل
لمن محذَّته نفسه ، بتدنيس تراب الموتى ، فاني لأجنو خاشعاً ، تجاه انصابهم التي لا رواء
لها ، واعفر خدي بثرانم ، الذي هو اجسادهم الباقية

ما اشدَّ رَوْعَةَ الليل في جَوْفِ الهيكل ! وما ارهب ذلك السكون الشامل !
والعين لا تكاد تميز في الظلام ، نورَ ذلك القنديل المرتعِد ، المُشْتَعِلُ قُبَّالَةَ
المذابح المقدسة ، انه يتلأأ وحيداً والخلقة جمعاء نائمة ، فهو رَمَزٌ مُعَزِّزٌ للعناية
الساهرة ، تتقبَّل في هذا المكان ، نهديات الانام وتأوهاتهم

لنتقدم ، لا يطرق اذُنِي صوت حيٍّ ، فالسكوت شامل ، والفناء وحده
يرتعد تحت خَطَوَاتِي الموزونة ، فقد تعدَّيت درجات المذبح ، وها انا واقف ،
والمهابة تملِّك كل مشاعري ، فقد سموت بروحي الى عُلُوٍّ ، مشغلاً عن دنيائي
بديني ، فيا أيتها الحيطان المُهَيَّبة في وَحْشَتِهَا ، وأيتها الهياكل الناطقة في سكوتها ،

اني لَدَيْكَ وحيدٌ منفرد ، ونفسي الحزينة تَدْبُدُ في تقرُّبها خشيةً ورهبةً ، لتسكب
أمامك آلامها ، وما تفيض به جوارحها ، وتُسِرُّ الى السماء بمكنون سرها ، الذي
تَطْلُع عليه وحدها ، ولا يسمعه أحدٌ سواك

ولكن ماذا ! أأَجْرُؤُ على الدُّنُوِّ من هذه المذابح دون خوف ولا وجل ،
أأَجْرُؤُ يا الهي ان اقدم في هذه الحظيرة المَبْجَلَةِ ، قلباً ما فتىء مشتعلًا بالالم
والحب ؟ دون ان تأخذني الرعدة ، ويتملكني الهلع ، مخافة ان تنتقم جلالتك
المقدسة ، للاحترام الواجب لمقرِّك السامي ؟

ولكن لا ، اني لا احرُّ خجلًا من النار التي تتأكَّسُني ، فالحب يكون طاهرًا
نقيًا ، اذا ما اضرمته الفضيلة ، طاهرًا كالذات التي تَسِمُّني هواها

ان حيي يشغل فؤادي ، ولكن بنار مقدسة ، فالثبات يدعمه ، والمصائب تنقيه
من كل شائبة ، فأبوح به للأرض وللطبيعة بأكملها ، وامام هياكلك المقدسة ، ارددّه
دون خوف ولا حياء ، واذهب الى ابعد من ذلك فاجتري في ايها الاله القدير ، على
ذكره بحضرتك العلية ، فرغما عن الرعب الذي يُوحِيه اليّ مَعْبُدُك ، فقد تتم في
بُخْفُوت اسم مالكة قيادي ، وهذا الاسم الذي انتقل صداه من قبر الى قبر ، قد عكس
هدوء الفلاة الحزينة ، كأنه انّة شكرية لشبح يتأوّه

وداعاً ايّتها الآثار الباردة ، وداعاً ايّتها المساكن المقدسة ، لقد ردّد الصدى الليلي
الساكن مرتين ، وانا واقف امامك خاشعاً ذاهلاً ، ابكي بعين سَجُوم ، وقلب كليم ،
واني أغادرك متأسّياً مُعزّياً ، لان السماء رأت عِبراتي ، وابصرت ذلي وإماتة نفسي

وقد تكون تلك التي اندب فقدها ، ساهرة في هذه اللحظة ، على شاطئ آخر ،
مع صورتي وقد جِسَّتْ على درج هيكل ، والدموع تنهمر من مآقيها ، لتبوح بذات
صدرها ، وتُسِرُّ بآلامها وأشجانها

[نقلها جورج نيقولاوس]

روزا بنور

حياة مصورة عظيمة

تعلق الشهرة بيننا في الغالب باسماء الملوك والرؤساء والوزراء والعلماء والادباء . وفي النادر يخطر ببال بعضنا المصورون والممثلون ونحوهم من الذين نبغوا وبرعوا في تمثيل الاشياء الطبيعية والصور الخيالية . لكن أهالي اوربا وبعض أهالي المشرق مثل الايرانيين والصينيين واليابانيين يحسبون للتصوير والنحت شأناً كبيراً . والظاهر ان اسلافنا من مصريين وفينيقيين واشوريين وبعثانيين كانوا مثل الاوربيين من هذا القبيل . ولولا ذلك لما تقدمت صناعات التصوير والبناء والنحت في عصرهم . ولا أباحوا للبناء ان يحفر اسمه الى جانب اسم الملك الذي يشيد البناء له . والظاهر ان صناعة رسم الصور ونحت التماثيل اتقنت اولاً على يد شعب قديم كان منتشرأ في المسكونة ولا تزال رسومهُ وتماثيله تمثل بعض الحيوانات التي انقرضت منذ عهد طويل دلالة على انها كانت حائشة في ايامه ، وعلى توغله في القدم . ثم انقرض ذلك الشعب او بقيت بقايا منه في البلدان التي احتفظ اهلها بعمل الصور والتماثيل ، وقام اليونان فأتقنوا هذه الصناعة ولا سيما صناعة نحت التماثيل ، وبلغوا في اتقانها حدأ لا غاية وراءه ، وانحطت صناعتهم بعد انتشار الديانة المسيحية ، ثم عادت الى رونقها الاول بعد القرون الوسطى ولا سيما صناعة التصوير . وقد بلغ من احتفاء الاوربيين بالتصوير والمصورين ان صاروا يشترون الصورة بعشرة آلاف جنيه او اكثر الى مائة ألف جنيه . ويزيد دخل المصور الذي أصاب الشهرة على دخل الوزير او القائد ، وعلى ضعفي دخل الاستاذ الكبير في جامعة كبيرة

من نحو قرن من الزمان او يزيد خرج شاب اسمه ريمون بنور من باريس الى بوردو ، ليقم فيها مع والدته وكان على شيء من المهارة في فن التصوير . فجعل يعلم هذا الفن للراغبين فيه ، وكان بينهم فتاة دقيقة النظر صناع اليدين . فأحبها واقترن بها ، وسكن معها في بيت والديه فرزق منها بابنين وابنتين . وكانت روزا صاحبة هذه الترجمة كبرى الابنتين . فقد كانت ولادتها سنة ١٨٢٢ وتوفيت أمها وعمرها عشر سنوات فعاد بها أبوها الى باريس ولم يكن يهتم بتربيتها لانه كان مشغولاً بالسعي وراء معيشته وقد وكل بتربيتها عجوزاً شكسة

الاخلاق فكانت تنهرها دوماً ولا سيما انها كانت غريبة في اطوارها اذا رأت قطيعاً من الغنم او البقر تبعته ودخلت الى وسطه وجرت معه ولو أبعد عن المدينة . وكانت تلك العجوز تفتش عنها فتجدها بين الكلاب والقطاط او بين المواشي والقطعان . ولم تتعلم شيئاً من الصلوات التي كانت تحاول تعليمها اياها . بل لم تتعلم حروف الهجاء الا من درة كانت ترددها على مسمعها . فتوسلت العجوز الى ابيها ليضعها في مدرسة عند راهبات شيلو فارسلها الى هذه المدرسة الا انها كانت تعرج في طريقها على غابة بولون وتقيم فيها الساعة بعد الساعة كأنها تستقي من مناظر الطبيعة ما يجلبه ذخراً لمستقبلها

ولما بلغت الخامسة عشرة من العمر وهي لم تتعلم شيئاً رأى ابوها ان لا بد له من ان يعلمها صناعة تعيش بها وسأل اولئك الراهبات رأيهن في ذلك فقلن له انها لا تستطيع ان تتعلم شيئاً من العلوم فالاصح لها ان تتعلم الخياطة فوضعها عند خياطة لتتعلم منها وتقيم عندها دائماً . ثم زارها بعد اسبوع فراها مريضة ولما وقع نظرها عليه اعتنقته وجعلت تتوسل اليه ليخرجها من ذلك المكان فاخرجها وعاد بها الى بيته وهو غائص في بحار الهموم يفكر في ما عسى ان تقول اليه حال هذه الفتاة وهي ليست بالجميلة فتزوج ، ولم تتعلم شيئاً تعيش بعلمها او بعملها ولو كانت زوجته حية لعرفت بزاكنها ميل ابنتها وكفته مؤونة هذا الهم

ودعي الوالد لتعليم الرسم في مدرسة داخلية فعرض على اصحاب المدرسة ان يعلم فيها بلا أجر اذا قبلوا ابنته تلميذة من غير مرتب يدفعه عنها . فتم الاتفاق على ذلك وجعل يعلمها الرسم مع رفيقها فلم تمض ايام حتى دهش لبراعتها في هذا الفن . ولما انقضت السنة طلبت منه ان يسمح لها بالرجوع الى البيت والانقطاع لفن التصوير . وكان قد رأى منها ما اقنعه بانها ستبرع في التصوير فليطلبها وعكف على تعليمها وكانت اكثر تلامذته مزاوله واشدهم رغبة بل كانت لا تكل ولا تمل من مزاوله عملها شأن جميع اصحاب المواهب الطبيعية والقرايح الوقادة

الا انها هي لم تفهم ميلها الطبيعي تماماً ، فتاقت نفسها الى الامور الخيالية ، وجعلت تنقل صور كبار المصورين التي في متحف اللوفر . فان جمال تلك الصور سلب لبثها وحملها على الترفع عما دونها فكانت اذا رأت صورة من صور المواشي تنظر اليها شزراً او تغض الطرف عنها كأنها لا تستحق التفاتها . قال لها مدير اللوفر مرة « انني لم ار مثل هذا الاجتهاد مطلقاً » . وراها أحد وجهاء الانكيز فوقف امام صورة كانت تصورها وقال لها « ان تصويرك بديع خال من كل عيب . فواظبي على ما أنت فيه فتصيرين من النوابع »

وظلت تحاول تقليد ارباب الفن في هذه الموضوعات العالية الى ان رأت انه لم يبق لها مكان فيها ، فأسقط في يدها وجعلت تلوم نفسها وقالت لعل العناية الالهية لم تقسم لي ان اكون مصورة ، كما لم تقسم لي ان اكون خياطة وبينما هي غائصة في بحار اليأس ، تذكرت الايام الماضية

حينما كانت تجول في غابة بولون ، وارتسمت امام صور الطبيعة، فاخذت قلماً ورسمت صورة من تلك الصور كما تخيلتها ، فرأت حالاً أنها وجدت ضالتها . وقامت في اليوم التالي فولّت اللوثر ظهرها وخرجت الى ضواحي باريس تصور المناظر الطبيعية
قال غوته الشاعر والحكيم الالمانى العظيم : ان كل سبيل يؤدي الى الصواب صواب . وهذا كان شأن روزا بنور . فان مراقبتها الاشياء الطبيعية في الطبيعة وتحديها صور كبار المصورين في اللوثر كان صواباً في الوسيلة والغاية، فلم يذهب سدى

ولما جاء فصل الشتاء وتعذر عليها الخروج الى الخلاء جعلت تتردد على زريبة المواشي خاصة بأحد الجزارين وتصور ما فيه من الغنم والبقر ، وربت خروفاً في المسكن الذي تقيم فيه مع انه في الدور السادس ، لكي تدخل صورته في صورها . وعرضت اول صورة من صورها سنة ١٨٤٠ وكان عمرها ١٩ سنة وهي صورة أرنبين . ثم عرضت صورة الضأن والماعز سنة ١٨٤١ وكانت صورتها تباع بثمن معتدل يكفي لنفقاتها ، والمصورون يشهدون لها بالبراعة فيها ولو لم ير الجمهور فيها شيئاً غير عادي . الى ان كانت سنة ١٨٤٩ خرجت من سجنها في باريس الى مقاطعة الاوثرن وصورت هناك صور ثيران كنتال وارسلتها الى معرض التصوير فشهد لها المسيو هوراس فرنه أنها أحسن صورة من نوعها في المعرض . واجتمع المشاهدون حولها وكلهم معجب بها . وأهدى اليها المسيو هوراس باسم الحكومة كأساً بديعة من معمل سقر والوسام الذهبي الذي يعطى لأحسن صورة واشترى تلك الصورة رجل انكليزي بستائة جنيه . وهي تمثل ثيراناً ترعى وقد بدت عضلاتها ومفاصلها وانعكست أشعة الشمس عن ظهورها واسنمتها وخرج الزبد من أشداقها ، والقبة الزرقاء فوقها تسبح فيها غيوم الصيف والارض حولها تمثل الطبيعة بأبهى مجاليها
وصورت تلك السنة صورتها الكبيرة ، صورة ثيران تحرث في حقل بالاوثرن وعرضتها في المعرض الدولي العام سنة ١٨٥١ فدهشت الذين رأوها . وقد حفظت الحكومة الفرنسية هذه الصورة في معرض لكسمبرج

وفي سنة ١٨٥٦ عرضت صورتها المشهورة « بسوق الخيل » فدهش لها المصورون جميعاً وغالى الناس في ثمنها ، وتداولتها الايدي الى ان وصلت الى نيويورك ، وافرّ ذوو الشأن في فرنسا ان روزا مصورتها تستحق اللجوء دونور ولكن نبوليون الثالث خشي ان يقلدها اياه لانه لم يسبق ان قبلته مصورة من قبل . واتفق انه غادر باريس في مسيحة وجعل الامبراطورة نائبة عنه فذهبت بنفسها الى منزل روزا بنور وقلدها النيشان بيدها . وصورة « سوق الخيل » هذه تحسب من الاجداد الفنية التي تفاخر فرنسا باخراجها وبها حسبت روزا بنور في الطبقة العليا بين المصورين

العناية بالحامل

(١) للدكتور مصطفى الخالدي

ان المدنية الحديثة مع ما هي عليه من حسنات وبركات ، تفرض على كل انسان في هذا الوجود جزية ، ان في جسده او في عقله ، ثمناً تتقاضاه منه عما تقدمه اليه . فاجدادنا الذين عاشوا في محيط بسيط اقرب الى الطبيعة من محيطنا ، كانوا يبلغون العمر المديد لا يعرفون لوجع الضرس معنى . اما الآن فعيشتنا المترفة وسط المدنية الحديثة لا تساعدنا على حفظ تلك الاضرار سليمة ، فكان فن طب الاسنان وكانت المعالجة فيه . والبدوية التي تعيش في الصحراء المحرقة وتقاسي شظف العيش وخشونة المحيط تلد كما يخبرنا الكثيرون على الطريق — ولم لا وهي لا تزال في حضن الطبيعة تعيش عيشتها بعيدة عن رفاهية المدنية وبالتالي بعيدة عن الجزية التي تتطلبها منا لقاء هذه الرفاهية التي تقدمها لنا

ان الحمل يصدم كل عضو من اعضاء الجسم صدمة قوية يتطلب معها ذلك العضو كل ذرة من قواه للقيام بوظيفته . فاذا ما كان فيه اي خلل ، ظهر ذلك مجسماً بتأثير تلك الصدمة ولذا وجب على الحامل ان تتقدم الى الفحص الطبي عند ما تشعر بالحبل . واهم ما يتطلبه جسمها وما يحتاج اليه صحتها العمومية ان تكون الكبد فيها والكليتان والجلد والمعاء والرئتان على الخصوص صحيحة سليمة قادرة على القيام بوظائفها حق القيام

❖ **اللبسة** ❖ والعناية بالملابس اول ما احب ان اوجه اليه الانظار في اثناء الحمل اذ يجب ان تكون بسيطة دافئة وان تتجنب الحامل الثقيلة منها والتي تضغط على الجسم كالمشد اي « السكورسيت » والافضل ان تكون متدلية من كتفها فيتحول الضغط بذلك من البطن الى الكتفين . والسر كل السر ان لا يكون هنالك ما يسبب ضغطاً على الرحم من الأعلى الى الاسفل كما انه من المفيد جداً في الاشهر الاخيرة ان يمسد البطن مسداً لطيفاً جداً فيفقد الجنين بذلك وضعاً قد لا يكون مستريحاً فيه . اما المشد الاعتيادي فيجب الاعتياض عنه منذ الشهر الثالث بزوار بسيط وصدريه للثديين . وفي النصف الأخير من مدة الحمل يستحسن استعمال محزمة خصوصية من الجهة السفلى تساعد العضلات البطنية على حمل ثقلها الزائد آنئذ لا سيما اذا كانت الحامل ولوداً ، متذكرين انه لا يجوز بوجه من الوجوه احداث اي ضغط من السرة فما فوق تاركين بذلك مجالاً لنمو الرحم صعباً

(١) استاذ فن التوليد والامراض النسائية في جامعة بيروت الاميركية . مقتطفة من فصل مسهب في كتاب الحديث « على عتبة الامومة » . راجع وصفه في باب مكتبة المختطف

اما الاحذية فمن المحتم ان تكون كعوبها قصيرة لان الطويلة منها تسبب للحامل آلاماً في الظهر وانحطاطاً في القوى . فالحمل بطبيعة الحال ولحم الجنين في الرحم يبرز بطنها الى الامام فيرتد رأسها وكتفها الى الوراء حفظاً للتوازن فتتغير كيفية سيرها تغيراً محسوساً ظاهراً للعيان . فاذا ما لبست احذية ذات كعوب عالية ازداد انحناء رأسها وكتفها الى خلف زيادة تؤثر في الظهر فتتولد من جراء ذلك الآلام ويصير من المتعب جداً عليها ان تسير سيراً طبيعياً مستقيماً فتكون بذلك قد ضحت بصحتها وراحتها في سبيل «الموضة»

﴿الحفاظة على بهاء الجسم﴾ — من البديهي ان تميل المرأة ميلاً شديداً الى المحافظة على بهاء جسمها واعادته الى ما كان عليه من رواء وخفة وليونة قبل الحمل والولادة ، فهما يؤثران في عضلات الجسم عموماً وخصوصاً في العضلات البطنية فيحدث من جراء الضغط المتواصل وآلام الحاض ارتخاء فيها وهبوط في البطن والتدين مما يفقد المرأة مزية القامة الهيفاء المنتصبة وهي فتاة . وليس للمشدات فائدة في منع هذه النتائج لأنها تسبب اضراراً جمة . انما جل ما يمكننا ان نقوله في هذا الموضوع هو انه على الفتاة ان تزاوّل انواع الرياضة البدنية المفيدة منذ حداثة سنّها وان تظل مثابة عليها الى ما بعد الزواج فتقوى بذلك عضلاتها فتعود قادرة على احتمال صدمات الحمل والولادة وباكتسابها المتانة والمرونة الرياضية تصبح اكثر قابلية للعودة الى نحو ما كانت عليه قبل ذلك ومما لا مفر منه ظهور الخطوط البيض على البطن واحياناً على الثديين بسبب تمدد الجلد ابان الحمل . وهذه اذا كانت خفيفة تمكن ازالتها بالمسد بالزيت واستعمال الألبولين . واذا ما حدث تورم في الرجلين ناشئ عن توسع في الاوردة وبالتالي عن احتقان الدم فيها يحسن استعمال جوارب من المطاط في الحوادث الخفيفة

﴿الطعام﴾ : — من المحتم ان يكون طعام الحامل بسيطاً غير محدد وان لا تتناول اللحم والمرق اكثر من مرة واحدة في النهار مع الاقلال من المواد النشائية المقلوبة بالدهن والزيت والحلويات المشبعة سمناً . وفيما عدا ذلك يحسن اطلاق الحرية في الماء كولات والاكثر من شرب الماء والحليب وتناول الاثمار والخضر والحبوب لتلين الامعاء الا ان الكثيرات من الحوامل يقللن الاكل في الاشهر الثلاثة الاخيرة رغبة منهن في تقييد نمو الطفل في الاحشاء لتسهيل الولادة . فاذا ما افترطن في الامر كانت النتيجة وخيمة . والبعض ينصحون للحامل بتناول انواع من الماء كولات تقلل نمو العظام في الجنين فتسهل بذلك الولادة وهذا ايضاً ينبغي معه الرويّة والحيطه لانه كثيراً ما يضر بالام والجنين معاً وربما سبب له مرض الكساح . والكثيرات من الحوامل يضاعفن مقدار اكلهن

اعتقاداً منهم بأن هذا من الضروري للقيام باعالة الجنين والام معاً . وهذا ايضاً من الضرر بمكان وأصدق نصيحة يمكننا اسدها بهذا الصدد هي اننا لانستطيع ابداء رأي جازم في هذه الامور وامثالها لأن نتائجها غير موثوق بها فتتوقف على عوامل شخصية عديدة . انما الافضل ان تظل الحامل مثابة على عاداتها قبل الحمل مع التحفظات التي ابديناها في صدر هذا المقال وان تتجنب عسر الهضم بتناول الماء كولات التي تعرف بالاختبار انها لا تولد ذلك فيها ، وان تؤمن في طعامها وجود المقادير الكافية من المواد الفيتامينية والكلسية فللاولى منها أثر بين في حفظ مناعة الجسم وتقوية بنية الجنين وللثانية مقام عظيم في تكوين العظام وانماها ولذا وجب تناول الحليب والزبدة والبيض والخضر كالخس والملفوف (الكرنب) والبندورة (الطماطم) والبنزلة والجزر وغير ذلك من انواع الاثمار وخصوصاً ما كان منها فيه مواد حمضية

ومما يجب تجنبه في اثناء الحمل تعاطي المسكرات على اختلاف انواعها لتأثيرها السيء في صحة الام والجنين معاً . كما وانه يجب الاكثر من تناول السوائل كالماء والليمونادة وعصير العنب وغير ذلك في النصف الاول من مدة الحمل . والاقبال منها وخصوصاً عند تورم الرجلين في المدة الاخيرة . ولعل من الخير ان نذكر ان ما اوردناه قبلاً من الماء كولات الواجب اتباعها ان هو الا على سبيل التمثيل دون ان تكون الحامل مقيدة بها كل التقيد . فالجسم البشري يختلف باختلاف الاشخاص والبيئة والمحيط وليس ثمة من قاعدة عمومية يمكن تطبيقها على الاجسام المختلفة تصح في كل زمان ومكان ، انما اوردنا ما اوردناه وغايتنا في ذلك اتحاده مثلاً قابل التغيير والتعديل لينسج على منواله

﴿ الرياضة البدنية ﴾ — من الواجب في اثناء الحمل ترويض الجسم في الهواء الطلق دون ان يسبب ذلك للحامل تعباً اذ انه من الخطأ أنشد ان تتخذ من الرياضة سبيلاً الى تقوية عضلاتها لتسهيل مهمه الولادة ، فان ذلك في غير اوانه ، وكان الاولى الاهتمام به قبل الحمل . ولعل أفيد انواع الرياضة لها المشي الوئيد في الهواء الطلق والتعرض لنور الشمس مع تجنب التعب . فان ذلك يزيد نشاط الدورة الدموية والتنفس ويساعد على الهضم وازالة الافرازات الجسدية مقويماً الاعصاب وباعثاً على النوم ومنشطاً للجسم عموماً الا انه يجب الامتناع بتاتا عن التنس والغولف والرقص وما شاكل مما يجهد القوى

ولا يحظر على الحامل الامتناع عن ارتياد امكنة اللهو والاجتماعات العامة انما يجب الحذر من الزحام الشديد خوفاً من الاضرار بها . كما وانه يجب عليها الاقلال من السفر . واذا ما اضطرت اليه فيكل راحة وتؤدة ، الا اذا كانت ممن اسقطن قبلاً او لوحظ فيها استعداد الى الاسقاط فيجب عندها الامتناع عن السفر بتاتا . ولا يمكننا قبل ترك هذا الموضوع الا تكرار التشديد على ما للهواء

النقي من الشأن الكبير في حياة الحامل ، فعليها ان تصرف لا اقل من ساعتين يومياً في الهواء الطلق وان تتخذ ما يلزم لتبديل الهواء ليلاً ونهاراً في مسكنها كفتح النوافذ وغير ذلك

﴿راحة البال﴾ وكما ان عليك لجسمك واجباً ابان الحمل كذلك للعقل عليك واجب آخر لا يقل شأناً عن ذلك ، فراحة البال والسعادة والطمانينة هي من متوجبات الحياة ويزداد شأنها وتبلغ شأواً بعيداً عندما تكونين حاملاً . ولذا وجب تجنب كل ما من شأنه الازعاج واغلاق الراحة وعدم التفكير بيوم الولادة او الاصغاء لاحاديث الزائرات وسواهن ممن يطيب هنّ تعداد المشاق التي عاينها ، متذكرة بعد قراءة ما كتبناه بهذا الصدد ان هنالك يد الطبيعة تساعدك على عملك ، وانك اذا ما اتبعت نصائح اهل الخبرة والاختصاصيين واتخذت وسائل الحيلة اللازمة التي يشير بها طبيبك ، انك اذا فعلت كل هذا وتركت عناء الغد الى حينه كان لك من راحة البال والطمانينة خير نصيب يحفظك قوة سليمة للقيام بعملك الهام . واذكري دائماً ان هنالك يداً فوق يدك ويد الطبيب ، هي التي شقت لك هذه الطريق وهي التي تقودك فيها وترعاك بعنايتها

﴿الامعاء﴾ ومما يجب الانتباه له اشد الانتباه ابان الحمل الاعتناء بالامعاء لتكون لينة يسهل خروج السموم البدنية منها مع البراز كي لا يزيد عمل الكليتين فوق ما تتحملانه ويبقى الجسم نشيطاً معافى . ويظهر ان التسعين في المائة من الحاملات يصيبن الامساك ولذا وجب تلافي الامر والاهتمام به وبذل الجهد في حفظ الامعاء لينة . كما وانّه يجب تجنب اخذ المسهلات واذلزم ذلك فبعد استشارة الطبيب . وافضل الطرق لمسكخة الامساك ابان الحمل وفي الحالات العادية هي ما يلي :—

١— عيني وقتاً محدداً ثابتاً كل يوم تذهبين فيه الى بيت الخلاء ، وافضل وقت بعد طعام الافطار صباحاً . فاذا ما تعسر خروج الغائط فلا تستثيري به بالشد خوفاً على الجنين بل الافضل استئارة المستقيم بواسطة تحميلة من الغليسرين او المحقنة ، فاذا ما سهل الامر بعد ايام امكن الاستغناء عن هذه الوسائل الميكانيكية

- ٢ : — مما يساعد على تليين الامعاء شرب كأس من الماء البارد صباحاً بعد الاستيقاظ ومساءً قبل النوم مع تناول الاثمار كالتفاح والليمون وغير ذلك وشرب الماء بكثرة في اثناء النهار
- ٣ : — اكثر من تناول الخضر والفاكهة وخصوصاً السبانخ والبازيلا واللوبيا والبندورة (الطماطم) والحبوب وما شاكل وامتنعي عن شرب الشاي بتاتاً لانه يسبب الامساك
- ٤ : — استعملي كل مساء قبل النوم حقنة من زيت الزيتون العادي في المستقيم تحتوي نحواً من ٢٠٠ جرام فيظل الزيت طول الليل في المستقيم فيلطف غشاءه المخاطي ويمنع تقلصه او تشنجه فيسهل خروج الغائط ، ولا سيما اذا استعملت حقنة ماء عادي في صباح اليوم الثاني ولا تنسي ان الرياضة البدنية والحركة تساعد على تحريك الامعاء وبالتالي على تليينها

﴿الكليتان﴾ للكليتين وظيفة هامة في الجسم وهي فرز المواد السامة في الدم كالحامض البولي وغيره . فاذا ما أعيقتا عن القيام بوظيفتهما لأمراً نتج من جراء ذلك تسمم امتصاصي غير محمود العاقبة وهما أبان الحمل مركز الضعف ونقطة الخطر ولذا وجب الانتباه لهما . وهذا يتم بفحص البول مرة كل ثلاثة اسابيع او أكثر اذا لزم الامر للثبوت من مقدار الزلال والسكر والنقل النوعي والحامض البولي واليوريه . ومن الضروري ان لا يتجاوز مقدار البول المدرور في اثناء اربع وعشرين ساعة ١٥٠٠ سنتيمتر مكعب ، وان لا يقل عن ذلك بكثير . وعلى كل الاحوال يجب اعلام الطبيب بالنتائج ليتخذ الحيطة اللازمة لاسيما اذا حدث تورم في الرجلين واليدين والجفون

﴿النظافة﴾ تزداد حيوية الجلد ويكثر نشاطه ابان الحمل اكثر من المعتاد فتغزر افرازاته ولذا وجبت العناية الخاصة بنظافته آتخذ لتسهيل افراز المواد السامة من مسامه ، زد على هذا ان النظافة بالاغتسال تنشط الغدد الدهنية والعرقية وتزيل المواد المتجمعة عليه فيفتتح وينتج زدداد نشاطه وتزول الرائحة الكريهة عنه . ولذا وجب الاستحمام اليومي في اثناء الاسبوع او معظم ايامه بماء فاتر تتراوح درجته بين ٣٧ و ٣٧ ١/٢ سنتيغراد . ويمكن ايضاً الاستحمام بالماء البارد أيام الصيف وفي البحر الا انه يجب تجنب الشاطئ حيث تكثر الامواج خوفاً من الاسقاط وقبل ميعاد الولادة بشهر يجب الامتناع عن استعمال المغطس خوفاً من التلوث بعدوى الاوساخ والاعتياض عنه بحمام المرشة (دوش) . ويحسن احياناً عند ما تكثر افرازات الجلد الاستحمام بالماء الفاتر وفرك الجسم بعد ذلك بمنشفة غطست في الماء المالح وعصرت جيداً

﴿العناية بالثديين﴾ منذ البلوغ تحب العناية بالثديين كي يكونا أهلاً للقيام بوظيفة الارضاع وكم تخسر الام ويخسر ولدها معها عند ما لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة خلال في ثديها تاركة بذلك اياه لحليب المرضعات . ولذا وجب حفظهما منذ البلوغ سليمين ينموان نموها الطبيعي ، وان يمنع عنهما أي ضغط مقصوداً كان أم غير مقصود ، وان تهتم الفتاة ابان الرياضة البدنية او اللعب بعدم الاضرار بهما وان تعتنى الامهات بصحة الاعضاء التناسلية في بناتهن كما يعتنين بانماء عقولهن وزيادة معارفهن واذا ما كبر الثديان ابان الحمل وجب استعمال الصدرية وغسلهما بالماء يومياً بالماء الفاتر والصابون مع بذل الجهد في تنظيف الحلمتين من القشور العالقة بهما بزييت الزيتون النقي أو « كولد كريم » ويجب الحذر كل الحذر من استعمال المواد الكحولية وما يشاكلها لغسل الثديين لانها تسبب تصلب الحلمتين اللتين يجب ان تبقى ناعمتين طريتين . وبكلمة موجزة يجب تجنب كل ما من شأنه الاضرار بهما خوفاً من ان يسبب ذلك فيما بعد التهاباً فيها

مطافئ الرمد

في البلاد المصرية

للدكتور فريد مسعود

﴿ شدة انتشار الرمد ﴾ في البلاد المصرية معضلة تعترض كل من يعنى ببحث مسائل الصحة العامة فليس الرمد احد الامراض المتوطنة فحسب بل هو بحق اكثرها انتشاراً واعظمها شراً وابعدها أثراً فلا نتشاره يكفي ذكر النسبة المئوية الهائلة ٩٥٪ / ودليل شره نسبة العميان التي هي ٨٪ / واما اثره البعيد فيظهر من تغلغله في جميع الاوساط وتسربه الى مختلف الطبقات . فتجده عند الغني في قصره . بينما هو ملازم للفقير في كوخه وهو مزمن شديد الازمان قد تمر على المريض سنون وكما ظن انه قد تخلص منه بعد علاج طويل فاذا هو باق في عينيه يظل منهما من آن لان ولعل شر مصائبه وجوده باثقل وطأته في عيون الاطفال فالمشاهد والمحقق هو ان الاطفال اكثر عرضة للاصابة بالرمد من الكبار بل ان الطفل كلما كان اصغر سنّاً كان تعرضه للرمد اشد واكثر حدوثاً

وعلى هذه الملاحظة بنوع خاص يبنى مشروع مكافحة الرمد عن طريق رعاية عيون الاطفال

﴿ بدء الاصابة بالرمد ﴾ ومن المحقق ان اصابة الطفل بالرمد ترجع في بدنها الى جهل الام بأبسط قواعد الصحة العامة كنظام التغذية ونظافة الجسم ويضاف الى هذا ما اعتاده السواد الاعظم من الطبقات الفقيرة من التصرفات التي تسبب وصول مواد مؤذية لعين الطفل اما عفواً او قصداً مما هو راجع في مجموعه الى مخلفات الجهل وخرافات عصور الظلام فترى الطفل الذي يولد بعينين سليميتين لا يلبث بضعة ايام أو اسابيع حتى تبدأ اصابته بالرمد فيظهر احمرار في العينين مع تورم وافراز وقد تزيد هذه الاعراض او تنقص بحسب شدة الاصابة او بساطتها

ومن هذا الحادث او بالحري قبل ذلك بمدة ما يبدأ تاريخ حافل بالآلام والمتاعب هو تاريخ الرمد وقد ينجو منه الطفل بعينين سليميتين بعد مكابدة الرمد زمناً طويلاً او يقل البصر بسببه ان لم يضع تماماً

والذي يستنتج من كل هذا حقيقة لا تحتاج الى تعليق وهي اننا اذا حافظنا على عيني الطفل من

الاصابة بالرمد في بدأ حياته وهذا ممكن عملياً فقد وضعنا سداً مانعاً في طريق انتشار الرمد وبالتالي خطونا خطوة موفقة في طريق مكافحة الرمد

﴿ لزوم تعميم رعاية عيون الاطفال ﴾ وليست رعاية عيون الاطفال من الرمد شيئاً مجهولاً بل هي امر واقع يباشر فعلاً في مراكز رعاية الاطفال وفي مستشفيات الرمد الحكومية وغيرها فهذه المنشآت تقوم بقسط وافر من علاج عيون الاطفال المصابة بالرمد ولكنها في مجموعها بالنسبة لانتشار الرمد لا تفي من الحاجة الا بالشيء القليل . او ما يقدر بعشر معشار ما هو لازم للحالة الواقعة . ولا شك انه ليس من حسن تدبير الامور ان يترك الحال على ما هو عليه الآن وهناك الآلاف بل الملايين من المصابين بالرمد . ومن سيصابون به حتماً . وليس من الجائز عقلاً ان نكتفي بالقليل الموجود . اذا كان في مقدورنا زيادته بغير مشقة حتى نصير اقدر على منع المصاب او على تخفيف البلاء

﴿ مراكز مكافحة الرمد ﴾ والواقع ان مكافحة الرمد يمكن ان تعود بالفائدة المطلوبة في اماكن صغيرة متعددة ربما كانت اصلح لهذا الغرض من المنشآت الكبيرة الكثيرة النفقة . وخاصة من ناحية المرضى الذين يكفون الآن مشاق الانتقال لمدد طويلة فلا يضطرون عندئذ الى اضافة الكثير من الوقت وتحمل المتاعب والنققات في الذهاب من منازلهم الى المستشفيات الكبيرة البعيدة عنهم

هذا الى ان اكتظاظ المنشآت القائمة الآن بالمرضى لا يسمح بازدياد عددهم هناك عما هو عليه الآن . فضلاً عن ارهاق الاطباء بالعمل وما يتبع ذلك من عدم تحقيق الفائدة المطلوبة للجميع ومتى كان الغرض الاقتصار على علاج الرمد فقط وهو ما ترمي اليه مكافحة الرمد فيكون ان يكون هناك مكان صغير نظيف مكوّن من غرفتين متسعيتين احدهما لعيادة المرضى والاخرى للانتظار . وهذا ما يطلق عليه اسم مركز لمكافحة الرمد فتقوم هذه المراكز في انشائها وتأنيبها بالاقتصار على ما هو لازم وضروري من حيث المعدات بل ومن حيث المكان والعمال

وكل هذا واضح ومعروف بل ومقبول ومتبع فعلاً في كثير من المنشآت الصغيرة الحكومية وكذلك مسألة تدبير الاطباء والعمال اللازمين للعمل بهذه المراكز . فهي لا تصعب على الادارة العليا لأن نظام العمل المتبع لمكافحة الرمد بسيط لا يحتاج الى غير القليل من التمرن لا تقاينه . وليست مكافحة الرمد في مهارة العلاج بمقدار ما تتوقف على اتباع نظام خاص معظمه تعليم وارشاد

﴿ تنظيم رعاية عيون الاطفال ﴾ نقول ان كل ما ذكر قبلاً ليس فيه شيء خاف على علم القارئ بأمور الصحة العامة في هذه البلاد . فقد درست هذه المسائل . وتكرر بحثها واتبعت فعلاً فليس

فيها شيء جديد سوى تنظيم رعاية عيون الاطفال بطريقة تضمن ان يبدأ بها من وقت ولادتهم وتستمر الى زمن معلوم من سنة الى سنتين الى ثلاث سنوات او أكثر حتى يجوز الطفل هذا الدور الخطر الذي هو في الواقع دور الإصابة بالمد لكل مصاب تقريباً

المال اللازم لمراكز مكافحة الرمد * واذا روعي ما ذكر قبلاً من ابواب الاقتصاد في النفقات وكانت مراكز مكافحة الرمد متعددة وقريبة من المرضى ففي الامكان تدير كل المال اللازم لها او معظمه بفرض اجر زهيد على علاج الكبار من المرضى على أن لا يزيد هذا المبلغ على قرش صاغ واحد في المتوسط للزيارة الواحدة

ومما سبق لنا من التجارب يمكن ان نعطي مثلاً لمركز صغير . معدله كما يأتي :

عدد المرضى يوميًا مائة علاجهم مجاناً وثلاثون علاجهم بقرش لكل شخص . فيكون الايراد السنوي ٩٠ جنياً ينفق منها ١٢ جنياً ايجار المكان و ١٨ جنياً مرتب المساعد و ١٠ جنياً نفقات مختلفة ويبقى ٥٠ جنياً تزيد او تنقص هي مكافأة للطبيب الذي يقوم بالعمل في مدة تستغرق نحو الساعتين يوميًا

* وصف النظام المتبع * عند ما يحضر المريض يكتب اسمه في دفتر الحضور ويعطى النمرة المسلسلة وتذكرة تحوله الحضور للعلاج يوميًا

يكتب على هذه التذكرة من الوجه الواحد النمرة والاسم وعمر المريض واسمه والتاريخ وحالة العينين من حيث الرمد ويؤشر عليها يوميًا بالتاريخ والعلاج مع ذكر نمرتها في دفتر الحضور اليومي. ويدوّن على الوجه الآخر تعليمات يطلب من المرضى اتباعها بشأن النظافة والغذاء والصحة العامة . تعطى هذه التذكرة للمريض في اول يوم وثمنها قرش صاغ وتبقى معه دائماً وهي تحول حق الدخول للعلاج بدون مقابل للاطفال من وقت ولادتهم لغاية سنتين من العمر ويمكن تجديددها من وقت لآخر واما المرضى الذين يزيد عمرهم عن سنتين وتذكرتهم كالسابقة ما عدا لونها فيؤخذ منهم قرش صاغ عن علاج مرة واحدة او خمسة قروش عن علاج اسبوع او ١٥ قرش عن علاج شهر

في احد المراكز التي تسير فعلاً على هذا النظام زاد عدد المرضى الجدد في مدى السنتين الماضيتين على ٣٥٠٠ مريض

والخلاصة ان الفرصة سانحة الآن للقيام بتعميم رعاية عيون الاطفال والتعجيل بانشاء المراكز الرمدية اللازمة لذلك والانتفاع بما هو موجود منها الآن ، ان كانت حكومية او تابعة لهيئات أو افراد تجتمع كلها تحت ادارة هيئة عليا ، حتى تسير جميعها على اكمل نظام الى الغرض المنشود وهو استئصال الرمد من البلاد المصرية

وهذه الهيئة العليا تستمد المساعدة اللازمة من ولاية الامور مع حصولها على معاونه وتعزید الجمهور الذي هو في الحقيقة العباد الذي يستند عليه نجاح هذا العمل

بَابُ الْمُرَاسَلَةِ وَالْمُنَاطَاةِ

ارشاد لغوى

في كل جزء كلمة

المؤلف: عبد الرحيم بن محمود

المُسْتَشْفَى

احتلت فرنسا مصر سنة ١٧٩٨ م ثم احتلتها انكلترا سنة ١٨٨٢ م احتلالاً سياسياً ولكنها محنة من الدول الغربية والشرقية احتلالاً اقتصادياً ولغوياً فكان من آثار الاحتلال الاجنبى احتلال اللسنة والأقلام في مصر حيناً من الدهر فتسربت ألفاظ من فرنسا التي رحلت عن بلادنا في لغتنا العربية وكذلك ألفاظ انكليزية تنزايد باقمة الانكليز بمصر - واللاتينيون في وادي النيل قبل الاسلام فمن هذه الألفاظ الدخيلة في غير حاجة إليها (أسبتيالية) وهي لفظة لاتينية في الأصل (Hospitalia) (١) والحرف الاول صامت فينطق بالكلمة هكذا (أسبتياليا) وقد وضع بعض الأدباء في عصر النهضة الحديثة لفظاً عربياً فصيحاً عذبا سائغاً للناطقين والكاتبين وهو مستشفى اشتقه من استشفى عند الكوفيين أو من الاستشفاء عند البصريين - واستشفى أى طاب الشفاء لأن السين والتاء هنا للطلب ولا ريب أن من يدخل هذا المكان يطلب الشفاء من الله عز وجل على أيدي الأطباء مداوى بأدويتهم على وفق وصفاتهم

فلهذا في هذا الاديب اللغوى الذى أحيا لفظاً عربياً صمياً لم يمت لفظاً أجنبياً غريباً. ولو اشتق المشفى أى مكان الشفاء من الفعل شفى أو من المصدر شفاء لكان هذا المشتق مقبولا أيضاً وليس كل من يلجئ من المرضى يحقق الله شفاؤه ولكن كل من يدخل في هذا المكان يطلب الشفاء فالمستشفى أولى بتسمية هذا المكان من تسميته بالمشفى لهذه النظرة التي توجه الى فؤاد الحقيقة اللغوية المنطقية المرادة ولت الاديب الأملعى الذى تخير الاسم (مستشفى) لهذا المسمى قد جمعه لأن علمه وذوقه يعصمانه من الخطأ في جمعه كما أخطأ فيه المتأدبون في عصرنا هذا فقالوا المستشفيات جمع مستشفى وقد وهموا في جمعه جمع مؤنث سالم لأن ألفه وهي لام الكلمة ليست للتأنيث إذ أن مستشفى بوزن

(١) أسبتياليا اللاتينية (Hospitalia) كان عاماً يخصص فيما أخذ منه الى اللغات الانكليزية - هسپتال (Hospital) والفرنسية - أوبتال (Hôpital) والاطالية (Ospedale) - أسبيدالى - هذه اللغات الثلاث خصصت المشتق من الاصل اللاتيني بمكان الاستشفاء أى دار المعالجة والاصل اللاتيني يشمل هذا والمشفى والفندق والملاجئ للأطفال والمعجزة ولتعليم أبناء الفقراء بالجان كما يشمل دار معالجة الحيوان الى غير أولئك

مستفعل لأننا نقول بهذا المستشفى صديقنا أو أخونا أو طبيبنا ولا نقول بهذه المستشفى فلان . فان قيل ما المانع من إرادة بقعة الاستشفاء فيقال هذه مستشفى . قلت إذا صح ذلك فلك أيها المستدرك الوائم ان تقول هذه منزل مريداً بقعة النزول ولا يوافقك على هذه الإشارة إلى المنزل أحد وما نطق بهذا الأسلوب عربى ولا مستعرب فقد قالوا جميعاً « هذا منزل » كما قال تعالى في كتابه الكريم « وقل رب أنزلى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » فقوله مباركاً دليل على تذكيره كما لا يخفى على المبتدئين لغة فالواجب علينا جميعاً أن نجمع المستشفى على المشافى بوزن المفاعل من أوزان صيغة منتهى الجموع فإن قيل كيف تجمع المشفى قلت أجمعه على المشافى أيضاً والصيغة في الجمع لا تستطيع حمل ثلاثة أحرف زيادة على الأصول فيجب حذف حرفين زائدين من المفرد عند الجمع وهما السين والتاء ويجب إظهار الميم بالبقاء لان لها ميزة أكثر من الحرفين المذكورين لأن اسماء المكان من غير الثلاثي تبدأ كلها بالميم . والمستدرك أن يستدرك على هذا الجمع الذى يتحقق لجمع مفردين مختلفين في بعض المبنى وبعض المعنى « مستشفى ومشفى » لما قدمنا فأقول ما قاله علماء الصرف واللغة إنه لا يعمل على هذا اللبس إن كان . وللكلام قرآن تفهم من السياق فإذا قلت زار كبير الأطباء في مصر المشافى فهمنا أنه زار مستشفى العيىنى ومستشفى الملك ومستشفى دمنهور ومستشفى الاسكندرية إلى غير أولئك لأن المفرد المتداول الذى يعرفه الناس هو المستشفى لا المشفى . ورب قائل يقول ما المانع من جمعه جمع مؤنث سالماً بمقتضى القاعدة إن كل خماسى لم يسمع له جمع تكسير يجمع جمع مؤنث سالماً كما قالوا حمامات واصطبلات في جمع حمام واصطبل فالجواب ان مستشفى ليس بخماسى بل هو سداسى وإن علمت ما زاد على الخمسة معاملته في الجمع فليكن ذلك في غير ما أشبه هذا . ولا يخفى عليك أن جمعهم المستوصف (أى مكان طلب الوصف) على مستوصفات خطأ أيضاً لما قدمنا والصواب جمعه على مواصف ^(١) وصواب مهجور خير من خطأ مشهور هذا — وإنى لشاكر للاستاذ الباحثة (أديب عباسى) لكلمته التي أسداها إلى قراء المقتطف وأبناء العرب والمستعربين جميعاً بمقتطف الشهر الفائق حيال (قَدَمِيَّة) التي يستعملها عامة العرب والمستعربين من أبناء سورية اليوم — ولست بمستحق منه ثناء على بما فى إرشادى اللغوى بالمقتطف فإنه هو الجدير بالثناء والشكر وأجدر بهما منا من يذيع الكلمات العربية استعمالاً بدلاً من الكلمات الدخيلة — وعندى ان الرجوع إلى اللفظ العامى إن كان عربياً أو محتاجاً الى تهذيب إن كان قريباً من اللفظ العربى الصميم خير من عرض ألفاظ عربية مهجورة تغنى عنها الالفاظ العامية المهذبة أو التي لا تحتاج الى تهذيب إن طابقت ما نطق به العرب مثل قَدَمِيَّة بدلاً من (فزت) الانكليزية أو (فيزيت) الفرنسية وعلى هذا النحو ننحو جميعاً . وإنى فى كلتى الموجزة إرشاداً للجامع اللغوية العربية .

(١) مستشزرات فى قول امرئ القيس « غداثره مستشزرات الى العلا » جمع مستشزرة لا مستشزر بدليل (غداثره) جمع غديرة كصفيرة وزناً ومعنى وما ختم بالتاء مقيس جمعه جمع مؤنث سالماً . ومعنى مستشزرات مفتولات او مرتفات جمع مفتولة او مرتفعة كما فى الشروح والملاحي . والضمير فى غداثره يعود على شعر صاحبه الموصوفة

مكتبة المقتطف

معضلة السرطان

تأليف الدكتور باينبرج — ترجمة الدكتور يوسف حتي — والاستاذ شاكر نصار —
المطبعة الاميركية بيروت صفحاته ٢٢٦ قطع المقتطف بنط ٢٠ — ثمنه ليرة سورية او نحو ٢٥ قرشاً مصرياً

« السرطان مرض عضال وشفاءه مشكلة من المشاكل التي تهتم الجنس البشري بأسره. وقد بذل الاقدمون جهوداً جبّارة محاولين حل المشكلة فتمكنوا تدريجاً من درس الامراض التي كانوا يظنونها من اصل خبيث ، والتي تقع تحت اسم السرطان عامة فقسموها الى انواع ثم وجّهوا اهتمامهم الى حل كل نوع منها على حدة ان امرأة من كل سبع نساء ورجلاً من كل احد عشر رجلاً فوق الخامسة والثلاثين سنّاً يصابان في وقت ما من حياتهما بمرض من هذه الامراض الخبيثة . . . »

هاتان عبارتان المنزعتان من الصفحة الاولى في مقدمة المؤلف تجملان للقارئ معضلة السرطان ومداهما . اما البيان الواضح ففصول الكتاب كفيلة به . ولعلّه افضل ما كتب باللغات الفرنسية في باب من حيث جمعه بين الاحاطة والابحاز الذي لا يخل ، من تاريخ المرض في العصور القديمة الى احدث الآراء في تحليله وعلاجه ومدى انتشاره في انواع النبات والحيوان علاوة على الناس . فالاجال المنسّق وهو الصفة البارزة في هذا الكتاب ، حمل العلماء في مختلف الامم على ترجمته وطبعه مراراً . وقد ترجم حتى الآن الى الفرنسية والاسبانية والايطالية والبولونية وغيرها من اللغات الحية فنحن نوجه الشكر الى الدكتور يوسف حتي والاستاذ شاكر نصار ، ونهنئهما باخراج الترجمة على اوفى ما يكون طبعاً وحسن بيان

في الامكان قسمة الكتاب الى جزئين . اما الاول فيشتمل على بحث تاريخي في اقوال المتقدمين في السرطان من اقدم العصور الى عهدنا هذا . فقد « ذكره » الاقدمون في كتاباتهم الطبية التي يرجع تاريخها الى النبي سنة على الاقل وقد اشاروا اليه بطريقة صريحة لا تترك مجالاً للشك ، بالرغم مما كانوا يستعملونه للدلالة عليه من الاسماء المختلفة المتنوعة المشوشة . وقد جاء ذكره في المعاجم العربية المطولة كما يلي : « والسرطان ورمّ سوداويّ يبتدىء مثل اللوزة واصغر فاذا كبر ظهر عليه عروق حمراء وخضر متشعبة شبيهة بارجل السرطان ويقال انه لا مطمع في برئه وانما يعالج لئلاّ يزداد على ما هو عليه . » وقد قسم البحث في تاريخ السرطان الى تاريخه في العصور القديمة في العصور الوسطى وفي عصر النهضة العلمية الحديثة في القرن العشرين

ويلي ذلك فصل في حدوث الاورام في النبات والحيوان وهو بحث طريف يدخل في باب العلوم

العامّة وتلذّ مطالعته للطبيب وغير الطبيب على السواء ، فيعلمان ان الاورام المختلفة التي تصيب المملكة النباتية هي لا شكّ مشابهة من عدة وجوه للاورام الخبيثة وغير الخبيثة في المملكة الحيوانية . وان سرطان الثدي كثير في الفارة الولود لان ثديها معرض للاحتكاك مدة طويلة لارضاعها عدداً كبيراً من الصغار . وان الكلاب اكثر الحيوانات الداجنة تعرضاً للسرطان . وان الحررة تقرب كثيراً من الكلاب في الاستعداد للاصابة بالاورام السرطانية . وان الخنازير والغنم والماعز اقل استعداداً للاصابة بها من الحيوانات الزراعية للبونة . وغير ذلك من الحقائق الطريفة اما القسم الثاني من الكتاب فيتناول السرطان في الانسان . وفي اول هذا الباب يحمل المؤلف الصعاب التي يصادفها العلماء في تحديد السرطان فيقول : « ان صعوبة وصف السرطان من الوجهة المستولوجية مستقلاً عن باقي الاورام لا تقل عن صعوبة تحديده من الوجهة السريرية . ولا يخفى ايضاً ان الاورام والانتفاخات ليست كلها من النوع الخبيث ، فقد يكون السرطان في بعض الاحيان خالياً من الورم بل بالعكس قد يكون هناك نقص في الانسجة ... كالسرطان اليابس في الثدي . فمن هذا تتضح لنا صعوبة تحديد السرطان والاورام على العموم لاسيما والاسباب الحقيقية لظهور هذه الاورام لا تزال مجهولة والفوارق بين الاورام الخبيثة والسليمة غير مميزة ولا معروفة »

ومن هنا يمضي المؤلف في بيان اساليب درس السرطان المختلفة وانواع الاورام من الوجهة العلمية . ففي الفصل الخامس يقيم الدليل على ان نجاح البحوث في نقل السرطان ليس بهائناً على ان الداء معد ، وان توليد السرطان بالتطعيم يسوغ مداواته بالجراحة

وبلي ذلك فصل في سير المرض وتشخيصه والوقاية منه وعلاجه بادوية وصفها بقوله « ما يسمونه ادوية السرطان الشافية ! » ورأيه فيها ان الانكسار على طرق المعالجة بغير الجراحة يضر غالباً لانه يضيع الوقت وقوله « لا نرى افعال من الجراحة في معالجة السرطان — بحسب معلوماتنا الحاضرة — فانها الى الآن الوسيلة التي يجب ان نعلق عليها الآمال »

وهو كذلك غير قوي الثقة بفائدة العلاج بالاشعة فيقول في الصفحة ١٤٢ « ان استعمال النور يخفف الألم ولا تأثير له البتة في شفاء السرطان . اما اشعة رونتجن فمنها بعض النفع اذ تبعث في المريض روح الامل لان مفعولها في تلطيف الألم يدوم مدة طويلة من الزمن وفي بعض الاحيان تذيب النتوءات السرطانية الجلدية السطحية ويتوقف نمو البعض منها وغالباً تذيب الاورام الراجعة بعد العمليات الجراحية غير ان فائدتها كثيراً ما تكون عقيمة في الاورام الداخلية الخ »

وعنده ان المعالجة البيولوجية اي بالمصل والتطعيم وخلاصات الغدد لن تحقق الآمال قبل ان يتوقف العلماء الى معرفة حقيقة الخلية السرطانية من الناحية البيولوجية وعلاقتها بالمصاب الذي نفتك به

والكتاب مختتم بفصل يحتوي على احصاءات السرطان في مختلف بلدان العالم وفيه نبذة خاصة

بسوريا ولبنان وضعها الدكتور فيليب اشقر . ومسك الختام فصل في تهذيب السكان وتدريبهم على مقاومة السرطان آتته ان نزع الخلايا السرطانية نزعاً جراحياً باكراً يكفل الشفاء التام وحبذا الحال لو اضاف المترجمان الى جهدهما الكبير الموفق في نقل الكتاب جهداً يسيراً آخر في وضع جدول بالالفاظ العلمية التي استعملها في الترجمة وما يقابلها في الاصل الانكليزي ، وكذلك رسم اسماء العلماء في هوامش الصفحات بالحروف الفرنجية لان الحروف العربية لا تساعد على ضبط الاسم عند التلفظ به ولا تهدي المنقب الى صاحب الاسم عند ما يحاول البحث عنه في المعجمات والموسوعات الفرنجية

جبران خليل جبران

حياته — موته — أدبه — فننه

بقلم ميخائيل نعيمة — ٣٠٧ صحيفة من الحجم الكبير — مطبوع طبعاً متقناً بغلاف جميل بمطبعة لسان الحال بيروت كتب التراجم عندنا ليست الاً سجلّ حوادث في أسلوب خبري جاف لا تستطيع أن تستشف من ورائه صورة المترجم له الاً اذا أردت ان تزيل الغبار وترسم الصورة بيدك من جديد . وطالما تمنيت ان أرى في العربية ترجمة كتراجم لدوج مثلاً حتى وجدت خطوة جريئة من الاستاذ ميخائيل نعيمة في كتابه (جبران خليل جبران) وهي خطوة موفقة كل التوفيق دون مغالاة ، فلقد استطاع في لباقة ومهارة أن يعرض لقارئه حياة الشاعر الفنان جبران كما تعرض أفلام السينما قصة تاريخية متعمقة الى أبعد دقائقها ، ولقد يكون في أبسط هذه الدقائق ما يزعج ستاراً كشيافاً عن سر عميق وقد استطاع الاستاذ ميخائيل نعيمة — وأسلوبه معروف لأدباء العربية كما أشرت الى ذلك من عامين عند الكتابة عن كتابه (المراحل) — أن يمزج روحه بروح جبران وأسلوبه بأسلوبه فتحس في كتابه بوحدة تامة لا تدري أمامها إن كنت تقرأ جبران أم تقرأ ميخائيل

واستطاع الى جانب ذلك أن يجعل من حياة صديقه رواية مسرحية تامة مرتبطة الفصول والمناظر لا تفقد حبكة ودقتها . ومن كلمته (اعتذار) التي قدّم بها الكتاب نفهم الدقة التي أخذ بها المؤلف نفسه إذ يقول : « وعندي ان كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الاً رغبة متطائرة فوق بحر الحياة الانسانية . أما اعماق الانسان وآفاقه فأبعد وأوسع من ان يتناولها فلم أو يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب تاريخ انسان ولا تاريخ شيء على الاطلاق . ولو أننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيه تاريخ كل الناس ، ولو أننا دوننا تاريخ شيء واحد لاطالعنا فيه تاريخ كل شيء . ثم ان في حياة كل انسان اسراراً يكتبها عن الناس ، وأنا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتني منها الكثير . فهل يليق بي أن أبوح ولو ببعض البعض الذي أعرفه ؟ وان أنا كسنته فما معنى الذي أكتبه ؟ أخون نفسي والقارئ وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل

الحياة الكبرى — وان يكن مستوراً عن أعين الناس — فأصور صورة لا وزن بين ظلالها وانوارها، لأرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن ولا رأي لهم في الحياة، وأجور على ذوقي وأدفن رأيي في التراب ؟»

والواقع ان في حياة جبران مجموعة من الاسرار كانت في حاجة الى من يزجج عنها الستار او يفتح مغاليقها، ولا يستطيع ذلك الا رجل عرف جبران حق المعرفة من كل نواحيه، له بصيرة قوية تصل الى أعماق هذه النفس التي انطمست في روحانيتها وتلاشت في صوفيته فتفتش منها بعض الذكريات القديمة التي تمهد السبيل لمعرفة تطور هذه النفس الانسانية، وببصيرة قوية تقاداة يعطي المؤلف الصورة الصادقة عن جبران — ماله وما عليه — لا يخفي من أمره شيئاً فهو يحذثنا عن جبران قائلاً: «كان لا يتوصل الى معرفة رجل او امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الادبي أو الفني أو المادي أو السياسي أو الاجتماعي الا اخبرني عن ذلك بلسان من لا يكثر لمثل ذلك اللمعان. ولكن بقلب من يكبر في عين نفسه اذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كباراً. وكأنه كان يخشى من ان أعيب عليه التناقض بين نقوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها فكان يطرح على كل علاقته ستاراً من السرر وجلباباً من الفن والادب. كأن يقول لي مثلاً: «البارحة كنت مدعوّاً الى الشاي عند مسز كورين روبنسن» ثم يضيف بفخر ظاهر: «هي أخت ثيودور روزفلت» ويعقب ذلك بقوله: «وهي شاعرة تعجبك يا ميسا». أو ان يخبرني عن سهرة عند مستر فلان «وهو مدير البنك الفلاني، وله ذوق في التصوير جميل». أو عن زيارة لبيت فلان «وهو من أخص اصدقاء رئيس الجمهورية وهو وزوجته من أقدم العائلات الاميركية وأوفرها ثروة وثقافة»... هكذا كان جبران يصنع الناس بيد ويصاخمهم بالآخرى، يشور عليهم عند ما يشوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم، ويسالمهم عند ما تمور عليه نفسه الطماحة الى المجد والعظمة والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها، يحفر لها قبوراً في الليل، وفي النهار، عند ما تلحدهم الاقدار في قبور غير التي حفرها لهم يهتف بقلب داعم: «مات اهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي»

بدأ المؤلف كتابه بصورتين تتلاطم على شاطئهما حياة جبران بل حياة كل الناس، تبدأ أولاهما حيث تنتهي الثانية، فالصورة الاولى هي غرغرة الموت في مستشفى القديس فنسنت في الساعة الاخيرة من حياة جبران حيث شهد المؤلف افول حياة صديقه، والصورة الثانية هي وعوة الطفل جبران عند ولادته في بشرى. ثم يبدأ المؤلف في استعراض جميل لحياة بطله وحياة عائلته حتى رحيلها الى بوسطن، ثم يرسم الصورة الجميلة لجبران الحالم الذي يريد بناء المجدوان يسمع العالم اسمه، ومن ثم يرسم الاستاذ ميخائيل الصور المتعددة فهنا غرام جبران الاول، وهنا شقاء عائلته ووفاة اخته

واخيه وأمه وسخطه وبرمه وحيرته واهتداؤه الى ماري هاسكل التي قادته الى طريق العظمة بعظمتها وحنانها مستعرضاً في خلال ذلك غراماً قوياً آخر هو غرام جبران بيمشيلين الفرنسية ثم حياة جبران في فرنسا وأثر الشاعر الفنان ولیم بليك في حياته ثم اندفاع جبران في محيط المدينة العظيمة بنيويورك . وقد طالع قراء المقتطف في عدد ماضٍ تحت عنوان « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً » تلك الصورة الرائعة التي مهد بها الاستاذ ميخائيل نعيمة للكلام عن مغامرة جبران في ذلك المحيط وفي هذه الصورة رسم دقيق للمدينة الاميركية . وقد لاحظت ان للمؤلف قدرة على رسم حياة المدن رسماً دقيقاً فقد أعطانا صورة بارعة عن مدينة بوسطن واهياء المهاجرين فيها

ثم يفتحي المؤلف ناحية اخرى حيث يحلل بعض آثار جبران الادبية والفنية، ولعل اتمها تحليلاً للنبي من كتبه الانكليزية وللمواكب وصورها من مؤلفاته العربية . ثم يتناول صلة المؤلف به ، وانشاء الرابطة القلمية الى غير ذلك في اسلوب روائي فلسفي أخذ يكفي انه اسلوب ميخائيل نعيمة ولعل هذه الخطوة الجريئة الموفقة من الاستاذ ميخائيل تحفز غيره من الكتاب الى ان يخطوا كما خطا فتغير أساليب التاريخ والتراجم ، وتعيش بين اذهاننا حياة عظمائنا وفنانينا وادبائنا حياة خالدة في إطار ساحر جميل القاهرة حسن كامل الصيرفي

اغلاط اللغويين الاقدمين

الأب أنستاس الكرملي

يطالعنا العالم الباحث الأب « أنستاس ماري الكرملي » — في كركر الاحيان — بما يمليه بحبه على قلمه ، وكان آخر ما حظيت به العيون من ذي قلمه ، كتاب « اغلاط اللغويين الاقدمين » فقد قام شاهداً جديداً على ما يملكه الاب « انستاس » من غزارة في البحث ، وقدارة على النظر وفيض من التفكير البعيد

والأب أنستاس عالم اختارته اللغة التي كادت تضيق من لسان الزمن ضيقة الرء من لسان اللغ، فصعب اللغويين في كتبهم خمسين سنة او تزيد ، حتى خبرها وسبرها ، وفتح من ابوابها ما عبت به مفاتيح كثير من الباحثين ، وضم العربية الى اسرة اللغات لتعرف امها وبناتها وقرابتها فيها ، فكان من خير من نهض الى لغة الضاد فنهض بها

ولقد جاء كتاب « اغلاط اللغويين الاقدمين » عيناً نافذة لاحظة ، يحس القارىء من نظراتها الروح اللغوية القوية في صاحبها ، كما يحس من الزئير اسداً ، او من اللجة بحراً وإذا كان الاب انستاس قد ابتغى في كتابه بغية التحرر والكشف لما رآه مظلماً في كتب اللغة ، وما يتصل بها من ادب وتاريخ ، كي ينهض عليها صبحاً تقاعد فلقه ، فان ذلك يقدمنا لمساجلة العالم الباحث في بعض نقده ، عسى ان نجلو ما يأخذه من غيم رقيق

فأول ما يفجأ القارئ عنوان شديداً للهجة ، وحسبك ان تقرأ «اغلاط اللغويين الاقدمين» لتتلى نفسك بالسخط والمغضبة ، وتهز اذنة البرم بالمعاجم اللغوية ، وقد كان جديراً بالمؤلف ان يبدل من «الغاط» لفظاً اخف على السمع ، وأبعد للقلق ، وأجل بذكرى علماء اللغة ، وشهداء تحقيقها على ان الأب الستاس لم يجعل كتابه كله تعليلتاً ، فانك لا تجد مغلطاً في مواضع مما يجعله الكتاب في عدد الاغلاط ، مرقوماً برقمها (انظر ٧ ص ١٠١ ، ٤٨ ص ١٧٣ و ٤٩ ص ١٧٤ ... الخ) وفي العنوان لفظ «الاقدمين» ، وهو محدود في دلالاته الاشتقاقية من صيغ التفضيل ، مع ان الكتاب قد غلب عليه المتأخرون من اللغويين ، واحتلوا اكثر صحائفه .. افلم يكن هناك لفظ خير من هذا ؟؟

ولترك هذا ، لنذكر ما يفجأ القارئ في نظام الكتاب ، واسلوب البحث فيه ، فانه لا يرى فيه زنبياً بين الكلمات المنتقدة (انظر مثلاً لهذا ص ٨٤ - حيث يقول «والآن نعود الى اتمام مقالتنا» ونجد هذه المقالة قد انقطعت ص ١٩) فيلاحظ القارئ هذه النظم الكبيرة التي ينالها المؤلف بين موضوعات كتابه ، وحسبنا ان يعترف الاب الستاس نفسه بهذا في قوله (ص ٦) : اننا لا تتبع نظاماً سوياً ولن ننسى ان نذكر هذه الثلمات التي قطعت نظام البحث في الكتاب ، وفرت اجزاءه ، فانها قد خرجت - كثيراً - من باب النقد والرد لتدخل باباً آخر !

ولنعرض الآن - بعض العرض - لموضوعات الاغلاط بشيء من النظر :

١- يقول الاب الستاس (ص ٨٤) : جاء في لسان العرب «تتوا الفسيلة : ذؤابتها» ومنه قول الغلام الناشد للعنز : وكان زعمها تتوا فسيلة ، والله اعلم» والظاهر ان ابن مكرم لم يفهم ما كتب ، وجاء في تاج العروس «تتوا القلنسوة» هكذا في النسخ ، وقد اهمله الجوهري ، والصواب تتوا الفسيلة : ذؤابتها ، ومنه قول الغلام ... «قلنا والصواب : تتوا القلنسوة او القلنسوة او القلنسوة او القلنسوة ، اما سبب هذا التصويب فهو ان ليس تتوان للفسيلة ، وهي - ان صححت الرواية - النخلة الصغيرة ، انما تتوان ثنية تتو والتتو ذؤابة القلنسوة ، وهي ما انحدر منها سائلاً على الكتفين : والظهر ، فهم يجعلون ذؤابتين للعمامة او للقلنسوة في اغلب الاحيان ... الخ ونحن نقول للمؤلف : انك جعلت للقلنسوة - كالعمامة - ذؤابتين ، ولم تذكر لذلك شاهداً فأتين هو ؟

وقد خطأ المؤلف لسان العرب وتاج العروس ومن نحائنها في قولهم «تتوا الفسيلة» بحجة واحدة - اذا صححت تسميتها حجة - وهي ان ليس تتوان للنخلة ، لان ، التتو الذؤابة ، وليس في النخل ذؤائب .. ونحن نقول له : لماذا لا يكون للنخلة ذؤابة ، او ليست ذؤابة كل شيء اعلاه ؟ وليس الشعراء قد شبهوا ذؤائب المرأة بذؤائب النخل في مثل قول امرئ القيس :

وفرع زين المتن اسود فاحم ائيث كقنوا النخلة المتعطل
غداؤه مستشزرات الى العلا تضل العقاص في مثني ومرسل

على ان هناك تصريحا يجعل الذوائب للنخل، في قول ابن منظور (ص ٣٦٦ ج ١) وصاحب التاج (ص ٢٤٩ ج ١) : واستعار بعض الشعراء الذوائب للنخل ، فقال :
 جم الذوائب تنمى وهي آوية ولا يخاف على حافتها السرقة
 ويقول ابو نواس :

لنا خمر وليس بخمر خل ولكن من نتاج الباسقات
 بدا بين الذوائب في ذراها نبات كالا كف الطالعات

ويقول الاب أنستاس في تلك الكلمة أيضاً «والذي عندنا (كذا) ان اعتدق لغة في اعتدب،
 اي لغة من يعتقب في كلامه القاف والباء»

ونحن نلاحظ ان هذا الذي «عند» المؤلف مذكور بنصه في التاج (ج ٧ ص ٦ س ١٥)
 على أننا نجد ان ندل على أن كلمة «الناشد للعز» قد ذكرها كلها أبو علي القالي في أماليه
 (ج ١ ص ٣٤ و ٣٦) فجاء فيها «تتوا القلنسية» وكنا نود لو يذكرها المؤلف

٢ — ويقول الاب أنستاس (ص ١٠٠) : قال ابن الاثير «والذباب جنس من الفأر لا يسمع
 لعلها (أي لعل الضبع) تأكله كما تأكل الجراد» وهكذا نقل هذه العبارة أصحاب المعاجم كالـتاج واللسان
 وكل من أخذ عنهما فقد ذكر جميعهم «الجراد» وزن سحاب والمشهور أن الضبع لا تأكل الجراد إنما تأكل
 «الجرذ» الذي يشبه الفأر في خلقه . الا أنه أعظم منه ، اذن قولهم «جراد» هو في غير موطنه
 ونحن نقول : قد ذكر صاحب التاج هذه الكلمة صحيحة فقال (ج ١ ص ٢٨٥ س ٢٣) .

والذباب جنس من الفأر لا تسمع ، لعلها (أي الضبع) تأكله كما تأكل الجرذ (كذا) . فلا عيب ...

٣ — ويقول الاب أنستاس (ص ١٣٣) : قال في تاج العروس «قال الاصمعي : التفة دوية
 كجرو الكلب ، قال : وقد رأيتها ، أو كالفأرة ، وهذا نقله ابن دريد وقد أنكره الاصمعي» قلنا :
 والذي زاه ان الفارة أو الفار هنا يجب ان تقرأ بالقاف ، أي القار أو القارة ، والقارة الدبة ، والذي
 يرى هذا الحيوان يظنه دبة صغيرة ، فابن دريد صادق في كلامه ، فالتفة كالقارة ، والظاهر ان هذا
 التصحيف قديم حتى أنكر هذا المعنى الاصمعي ، فاللوم هنا ابن دريد لأنه تشبيهاً للفة وهو
 اسم غير مألوف ، ولو قال «كالدبة» لما صحف من ابعد الازمان في القوم ، ولما قام عليه الاصمعي
 ونحن نقول : لم يكن ابن دريد بعيد الزمن عن اللغويين بعداً يجعلهم يخطئون فيصحفون
 كلمته «من ابعد الازمان» . . . وعجيب ان يظن المؤلف أن كلمة ابن دريد قد صحفت على الاصمعي
 حتى «قام على ابن دريد» فان الاصمعي قد مات قبل ان يولد ابن دريد ، وابن دريد يروي عن
 تلاميزه ، فهل قام عليه من القبر ؟ !

ونودع الآن الاب أنستاس الكرمل شاكرين له جهده النافع في تحصيل اللغة العربية ونحريها
 في تحرير وتحقيق
 رفعت فتح الله

على عتبة الامومة

تأليف الدكتور مصطفى الخالدي — استاذ فن التوليد والامراض النسائية — في جامعة بيروت الاميركية
صفحاته ٢٠٥ — طبع بمطبعة طباره بيروت — ثمنه ٥٠ قرشاً سورياً

هذا كتاب مفيد . فهو في الناحية العلمية ، يشرح التناسل في النبات والحيوان على اختلاف مراتبهما من الرقي ، ثم يصف تركيب الاعضاء التناسلية في المرأة ، ويوضح كل ذلك بصورة ورسوم كثيرة . ويلحق بهذا الجانب من الكتاب فصل في الحمل والتغيرات التي تطرأ على الحامل في انثائه ، والاشتراقات او الاختلاطات التي تصاب بها الحامل مثل الغثيان والتقيؤ وتورم الاطراف وما الى ذلك

وبلى ذلك فصول تحتوي على فروع الناحية العملية من الموضوع مثل العناية بالوليد والعناية بالحامل والعناية بالنفساء وقد اخلصنا في باب مملكة المرأة فصل العناية بالحامل ومنه يتبين القارئ اسلوب الكتاب

وقد وقف الجانب الاكبر من الفصل العاشر على بيان « من هم اهل للزواج » ، وهو بيان له شأن اجتماعي عظيم يجب ان يقرأه كل والد وكل والدة ، وكل شاب وكل شابة ، لان الاقدام على الزواج قبل التثبت من خلوة الجسم من بعض الآفات ، يجر في ذنبه فواجع على نحو ما بيننا غير مرة في المقتطف . فعلاوة على الامراض الزهرية ، هناك علل كثيرة يجب التأكد من شفاؤها اذا كانت من الادواء التي تخضع للمعالجة ، او من انتفائها اذا كانت من الامراض الوراثية قبل الاقدام على الزواج . ومن اغرب الادواء الوراثية داء الهموفيليا او النزف الوراثي . وقد وصفه المؤلف بقوله :

« هو داء غريب يلزمه نزف متكرر لا نستطيع التحكم به في اكثر الاحيان الا بصعوبة شديدة قد تكون عديمة الفائدة . يحدث لدى اقل جرح او صدمة او صفة . ومن غرائب انه وراثي يصيب الذكور دون الاناث في معظم الاحيان ولكنه لا ينتقل الا بواسطة الاناث فالذكور المصابون بهذا الداء لا مانع من زواجهم البتة لانه لا يحتمل ان ينقلوه الى اولادهم (مع انه من المحتمل ان يموتوا به كما حدث لاحد ابناء ملك اسبانيا من عهد قريب وامرته مصابة بهذا الداء) اما الاناث اللواتي هذا الداء وراثي في عيالاتهن فيجب ان لا يتزوجن لانه من المحتمل ان ينقلنه الى الذكور من اولادهن واذا تزوجن فالأفضل ان لا يلدن »

وفي آخر الكتاب لحق خاص بالاطفال لتدوين كل ما يتعلق بهم من تواريخ الولادة وقياسات الوليد وعلاماته الفارقة ، وما قد يذكر عن ولادته في الصحف والتهاني التي توجه الى والديه الخ

ايام بغداد

وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ولعلمائه التاريخية

وضع هذا الكتاب حضرة الاستاذ امين سعيد بعد ما زار العراق وتنقل في عاصمته ومدنه التاريخية المشهورة مثل النجف وكربلا والموصل وسامرا فاسهب في وصف النهضة العلمية والعسكرية والعربية واختلط بعطاء العراق وقادته وشاهد قصور الملوك فوصف سماط الملك غازي وموكبه وبلاطه ووصف جلالة الملك علي وشباب العراق والوحدة العربية وزار المساجد الاثرية ووصف مشاهدتها كمشهد الامام علي في النجف ومسجد الحسين في كربلا. ومسجد الكاظم وصاحب الزمان وعني بوصف الحالة الاقتصادية في العراق ومنابع النفط وآبارها في كركوك. وكانت مسألة الاشوريين في ابائها فزار منازلهم ووصف حياتهم وما هم عليه. وافاض في وصف انتشار الصحافة العراقية ومزاجية الصحف العربية والسورية لها. ونسبة توزيع الصحف في العراق ووصف النفوذ البريطاني والمطارات البريطانية في العراق والاقليات في العراق كل ذلك بأسلوب عربي فصيح اشتهر به الاستاذ امين سعيد في كتبه ومقالاته يجعل القارئ يشعر كأنه مع الكاتب يشاهد آثار العراق ومجتمعاته واندبته وزيادة الفائدة نشر في كتابه صوراً كثيرة جلية واضحة تزيد القارئ شوقاً الى مشاهدة ذلك القطر العربي الناهض والانس بأهله وعشيرته

والواقع ان الاستاذ امين يمتاز على كثير من الكتاب بقلمه السيل وقريحته الواقدة وذهنه الحاضر وسعة معلوماته ولذلك نرى له في كل ميدان من ميادين الكتابة فضلاً وأثراً وقد احسن صنفاً بدخوله ميدان التأليف فغذى المكتبة العربية بكتبه التاريخية النفيسة مثل كتاب «ملوك المسلمين المعاصرون» وكتاب «تاريخ الثورة العربية الكبرى» وها هو ذا يطبع كتاباً جديداً في تاريخ الاسلام السياسي



وايام بغداد هذا يقع في ٢٤٥ صفحة بالقطع المتوسط وهو مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه ويطلب من مكتبته بحوار سيدنا الحسين بمصر فنوجه اليه الانظار. فسجد فيه القراء معلومات نفيسة عن مملكة العراق الفتية لا يتيسر له العثور عليها في غيره فضلاً عما فيه من لذة يشعر بها قراء كتب الرحلات لان القارئ ينتقل من قطر الى قطر وهو في مجلسه ببراعة الكاتب ولا سيما اذا رزق قلماً مثل قلم الاستاذ امين سعيد فهنيء حضرته بتفوقه بعدما هنأه جمهور من كرام الكتاب والادباء والامراء محيي الدين رضا

بَابُ الْإِخْتِلَافِ الْعِلْمِيَّةِ

متفرقات علمية

[اختارها ونقلها : عوض جندي]

اسلحة الحرب القادمة

أعلن عالم فرنسي أن اسطوانات الفونوغراف
بتاح استعمالها لطبع الحركات الميكانيكية عليها كما
يُطبع الصوت سواء بسواء ، فيكاد يتحقق
بهذه الوسيلة ، الحلم الذي حلمه العلماء بأنه
سيأتي يوم يستطيعون فيه تطير الطائرات
ونسير الدبابات بقوة لاسلكية تسيطر عليها
من بعيد

وقد عرضت هذه الطريقة امام الجمهور في
باريس من عهد قريب فجيء بدبابة كهربائية
وأطلقت في ميدان التجربة ، فكانت تغير طريقها
وتنهقر ، فتعكس اتجاهها ثم تقف في مكانها
وفوقاً تماماً دون أن تمسها أية يد بشرية .
فتبين ان اسطوانات الفونوغراف التي توسلوا
بها الى تمام التجربة يمكن بواسطتها تسيير
الطوربيد الى ميناء منيع لكي يدمر إحدى
مدركات الاعداء ، وتسيير دبابة ايضاً الى مكان
مدافعهم الرشاشة فتطلق عليها النيران ثم تعود
الى خنادقها الخاصة

ومن الميسور حينئذ احصاء تنقلات
الطوربيد او الدبابة احصاء مضبوطاً قبيل الهجوم
وذلك بجهاز مسجل ذي ذراع يدور فيولد
نبضات كهربائية تطابق توقيت الحركات الحربية

المعقدة المبتغاة حيث يقوم جهاز كهربائي
ملتقط بتحويل هاتيك النبضات الى طاقة
ميكانيكية على حين تطبع ابرة الملتقط النبضات
على الاسطوانة ويودع في جوف الدبابة آلة ناسخة
(مؤلفة من محرك كهربائي وصوان دوارة
لكل منها ملتقط كهربائي) ولأبر الملتقط
عقارب ذات زنبركات تتبعها في خطوطها
المرسومة بالاسطوانة . وتستعمل لتلك الغاية
اربع اسطوانات . احداها لتحريك الدبابة
ووقفها . والثانية لقيادتها . والثالثة للتحكم في
سرعتها . والرابعة لتسيير النيران المدفع الرشاش
واطلاقها . وتقوم الاجهزة الكهربائية الملتقطة
بملاحظة الاوامر المرسومة على الاسطوانات
فتحولها الى طاقة كهربائية ثم تبعث بها الى
المفخحات والاجهزة المتممة للدورة الكهربائية
فيتقوى التيار الكهربائي جداً ، على ذلك النمط ،
فيتيسر نقله بالاسلاك الى مغناطيسات كهربائية
تدير القرملة وزمام البنزين وتروس الادارة في
الدبابة ثم تطلق مدفعها الرشاش . وبهذه الوسيلة
يتسنى للطائرات الخالية من الطيارين ،
اذا جهزت بامثال ذلك الجهاز ، الطيران مُقِلَّة
البريد بين شاطئ المحيط الاطلنطي في بعض
ساعات . ويركب فيها جهاز موازنة او توماتيكي
ليقوم بموازنتها فتطير في طريق مستقيم باقصى

المختفي في الشجرة بحيث يتسنى لقاء اشعته على البطارية الحساسة بالنور الآتية الذكر وتأثيرها فيها التأثير المرغوب

العث واختبار المنسوجات

أنشئ في مدينة فيلادلفيا ، من اعمال دولة الولايات المتحدة الامريكية ، مبحث علمي يعد فريداً في العالم . أسسه مصنع من مصانع المنسوجات الصوفية هناك ليختبر به الوسائل المختلفة التي يتدرع بها الى مناهضة العث الذي يلحس الثياب الصوفية فيفنيها

ويعتاض العلماء في ذلك المصنع من الارانب الرومية التي تستخدمها كل المختبرات العلمية في مباحثها بالالوف المؤلفة من العث فيحبسونها ويستعينون بها في تجاربهم . وذلك بوضع اجهزة منظمة للحرارة الكهربائية Thermostat تجعل الغرف ذات حرارة ملائمة للعث ثم يغذونه بقطع من نماذج تؤخذ من المنسوجات المستعملة للمفروشات التي تعالج بالمواد المضادة للعث ، فيتاح لأرباب المصنع اختبار اصناف المواد المختلفة التي تمنع العث عن التهام المنسوجات ومتى قل عدد العث في ذلك المبحث العلمي عن القدر الذي يحتاج اليه في تجاربه قام بشراء ما يلزمه منه بسعر الواحدة خمسة سقنات اي قرش صاغ (عند اعتدال اسعار المصارفة الدولية) وذلك من الغلمان الذين يصيدون العث لاجلهم

دبابة جديدة تطلق حجاباً من الدخان

اخترعت رئاسة الجيش في جمهورية ولايات اميركا المتحدة دبابة تطلق حجاباً كثيفاً من

سرعتها ثم تتمكن من الهبوط الى الارض بوساطة مظلة واقية وذلك عند بلوغ الغاية السابق تحديدها اذ يقف محركها وتنفتح مظلتها الواقية فتهبط الطائرة الى الارض سليمة عند نهاية رحلتها

سيارة تصغي للصوت البشري

والشيء بالشيء يذكر فقد عرضت في مدينة نيويورك حديثاً سيارة لا سائق لها . وانما يقودها سائق كهربائي ، وفقاً للصوت البشري كما لو كان سائقها انساناً جالساً في مقعدها الامامي وذلك بأن يعتمد امرؤ الى تليفون قريب من موقف السيارة فيلقنها بالتليفون بصوت خافت ، التعليمات المرغوب في تنفيذها . فلا يكاد يفرغ من التفوه بأوامره ، حتى يرى السيارة تزايد مكانها وتتابع سيرها حتى يقفها هو بأمره ايضاً . ثم يأمرها بالتقهقر فتبلي الطلب . ومتى اراد وقفها وقفت مرة اخرى . واذا رغب في اضاءة مصابيحها انيرت . ومدار تسييرها بذاتها على ذلك الخط ، بطارية كهربائية حساسة بالنور تعمل فيها طبقاً لاشعة الضوء التي يسيطر عليها ذلك التليفون بحيث ان كل كلمة يلقيها المتكلم في ثغر التليفون تتولد منها شماعة نور من مصباح مستكن في شجرة صغيرة قريبة من مستودع السيارة

وتختلف الشعاات التي تؤثر في البصاصة الكهربائية من شماعة واحدة الى اربع شعاات فتحرك الاجهزة المحددة للدورة الكهربائية التي تتحكم في تنقلات السيارة . وقد تستمر هذه السيطرة ما دامت السيارة قريبة من المصباح

المائدة يضع عليها الشباعي الصحنون الفارغة
فتنقلها الى المطبخ

نهر من المداد

في ولاية الجزائر بشمال افريقية نهر يسمى
(نهر المداد) مؤلف من جدولين تكثر في
أمواهما المواد الكيميائية المتولدة من أملاح
الحامض التنيك — أي المداد الحديدي .
وذلك لان احد ذينك الجدولين ينبع من تربة
مشبعة بالحديد ، والآخر ينبع من مستنقع
مملوء بالفحم الحجري النقي المشبع بمادة التنين —
الحامض التنيك

السماك الرامي

في جزائر الهند الشرقية ضرب عجيب من
السماك يسمى (السماك الرامي) وممره بندقية
بخاخة !! اذ انه يستطيع قذف رميته بقطرة
يبخضها من شدقيه الى بعد اربع اقدام ، بخا
محكما على الحشرة التي يشتهيها فيصرعها نوا
ويلتقمها من سطح الماء (وقد وصفت ذلك السمك
باسهاب في مقالتي : الطبيعة رائد المخترعين الذي
نشر في جزء فبراير سنة ١٩٣٤)

تصحيح خطأ

جاءنا من الأمير مصطفى الشهابي بعد
الشروع في طبع مقاله « الوان الخيل وشياتها »
ان ضبط السلعد صفحة ١٧٩ سطر ٢ هو كما
يلي « السِلْعَدُ » فضبطناها فيما تيسر من
الورق الذي لم يطبع واشرنا الى ذلك هنا للبيان

الدخان قدام طلائع الجيش المشاة وقاية لها من
نيران عدوها قبيل هجومها عليه ونحسب هاتيك
الدبابات احدث انواع الاسلحة ، اذ تستطيع
سرعة التنقل (على الاراضي التي مزقت اديمها
القنابل) محتوية على جهاز يولد الدخان . فتتقدم
المشاة وتطلق سحابة كثيفة من دخان ابيض ،
جبال خط الاعداء . فتمكن المشاة من الهجوم
تحت ذلك الستار الدخاني دون التعرض للقذائف
التي يصوبها اليهم جنود الاعداء . ومتى قامت
الدبابات باطلاق ذلك الحجاب ، اخذت في
مباشرة اعمالها الاعتيادية وهي مهاجمة مكامن
المدافع الرشاشة

ويزعم العلميون انه من الميسور ان تقطع
الدبابة عشرين ميلا في الساعة سائرة على اطواقها
المحيط بها بجلايتها فوق الارض

مطعم تشيكوسلوفاكي اوتوماتيكي

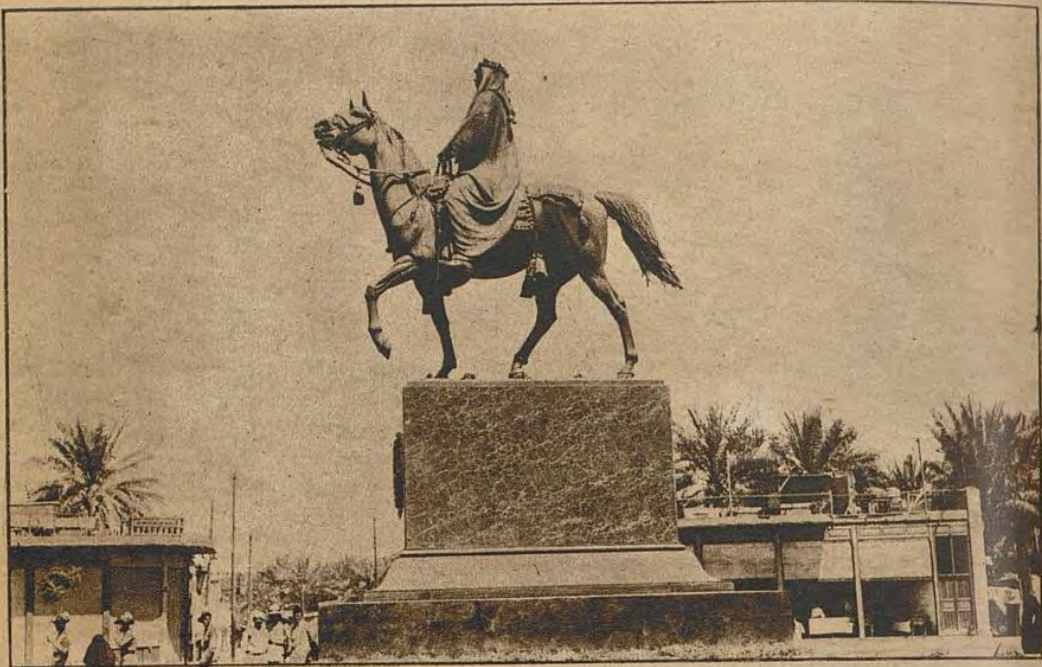
فتح حديثا في مدينة براها وهي براغ سابقا
عاصمة تشيكوسلوفاكية مطعم مجهز باحدث
الاجهزة الكهربائية التي تقوم بخدمة الوافدين
عليه ، خدمة تامة عوضا عن النادل . فاذا ما دخله
الجالع ودفع الثمن المحدد للاكلة وقف في موقف
مرفوق بحسب دوره عند مائدة مستطيلة ، حيث
يضغط زرّا كهربائيا مسلطا على سير دوّار
تحت وسط تلك المائدة ، فيقدم له السير الصنف
الاول من اصناف الطعام فيأكله . ثم يضغط
ذلك الزر مرة اخرى فيقدم له نوعا آخر من
الغذاء وهلم جرّا وفي ذلك المطعم سيور اخرى
تدور بعكس دوران السير الاول ، تحت طرفي

فهرس المجلد السادس والثمانون

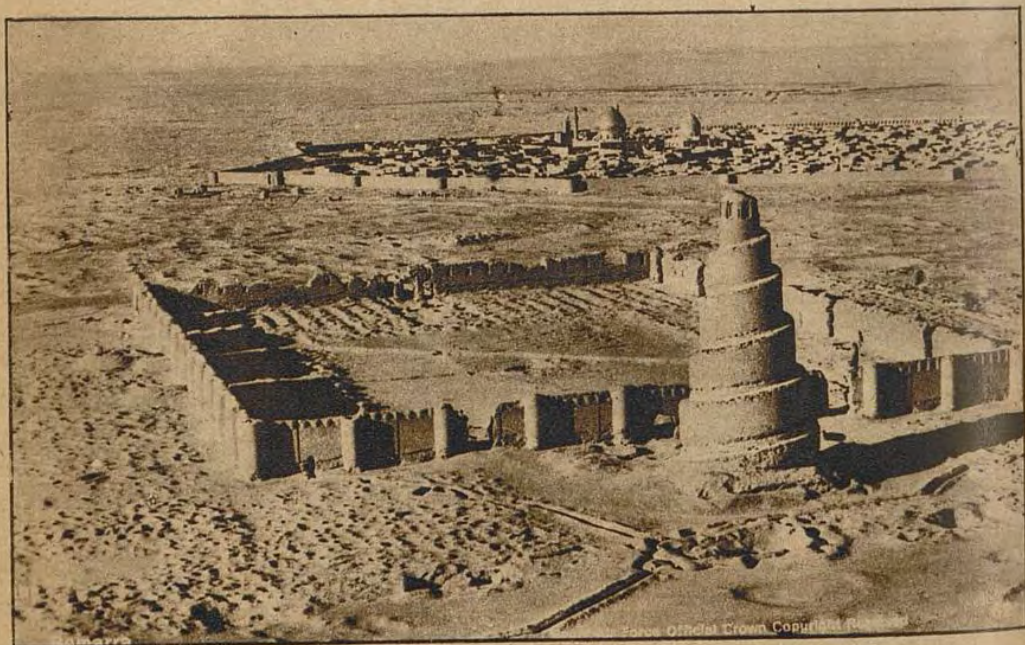
صفحة	
١٢٥	ارتقاء علم الفلك وتأثيره في التفكير الحديث (مصورة)
١٣٣	ميجيل دي أونامونو : للآنسة مي (مصورة)
١٤٠	الزمامة وصفات الزعيم : للدكتور عبد الرحمن شهبندر
١٤٥	القصص في الادب العربي : للدكتور احمد ضيف
١٤٩	أعلام الطب العربي : للدكتور فيليب حتي
١٥٣	فيرلين الشاعر : لعلي محمود طه
١٥٩	عقيدة عالم كبير : لاسر آرثر كيث
١٦٥	أنشودة الصباح (قصيدة) لخليل شيبوب
١٦٦	منبر الرسول وتطور المنابر : بقلم جناب الكابتن كرسويل (مصورة)
١٧٢	السر سعيد شقير باشا (مصورة)
١٧٨	ألوان الخيل وشياتها : للأمرير مصطفى الشهابي
١٨١	الفلاحة الفرعونية : للدكتور حسن كمال (مصورة)
١٨٦	العلم يكشف عن ضمائر المجرمين
١٩٠	فردريك وهلر
١٩٧	محاكمة ماتا هاري
٢٠٥	سير الزمان : مشكلة وادي السار : الدولة المندمجة : الدكتور شاخت
٢٢١	حديقة المقتطف : أعمدة التلغراف : للكاتب البولوني غلواكي . الحب : لشلي . المعبد : لافونس دي لامرتين
٢٢٧	مملكة المرأة : روزا بنونور . العناية بالحامل : للدكتور مصطفى الخالدي . مكافحة الرمد : للدكتور فريد مسعود
٢٣٨	باب المراسلة والمناظرة * ارشاد لغوي للاستاذ عبد الرحيم بن محمود
٢٤٠	مكتبة المقتطف * معضلة السرطان : جبرائيل خليل جبران : أغلاط اللقوين الاقدمين . على تنب : الامومة . ايام بغداد
٢٤٧	باب الاخبار العلمية * وفيه ٧ نبذ



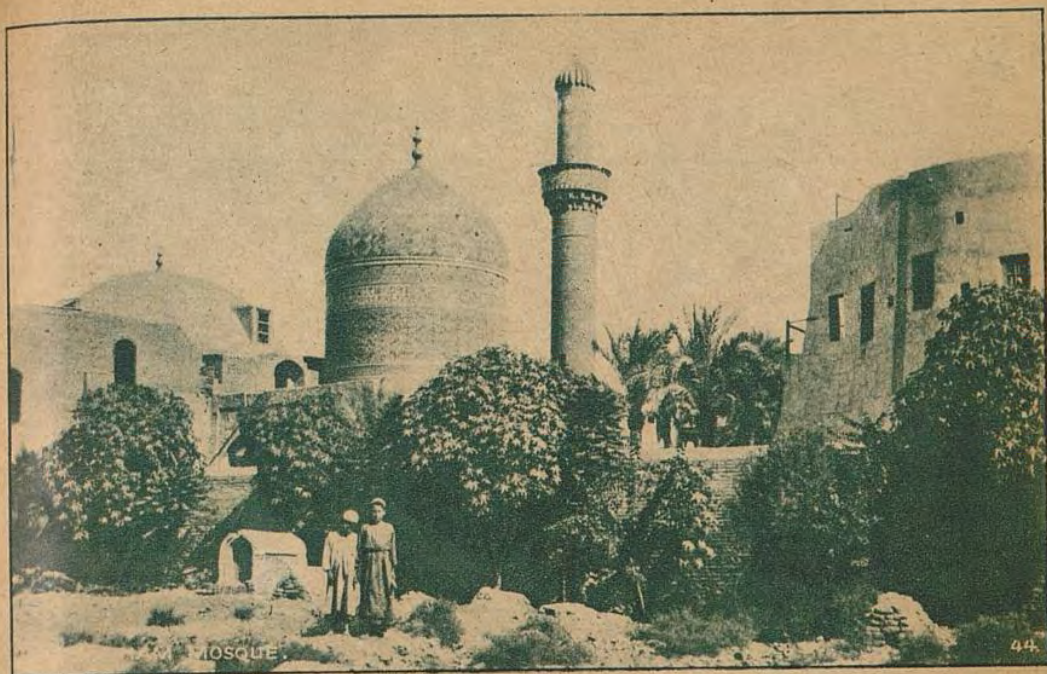
جلالة الشتاء في بلدة سانت مورتر بسويسرا



تمثال الملك فيصل عند مدخل بغداد من جانب الكرخ



« سرّ من رأى » في العراق

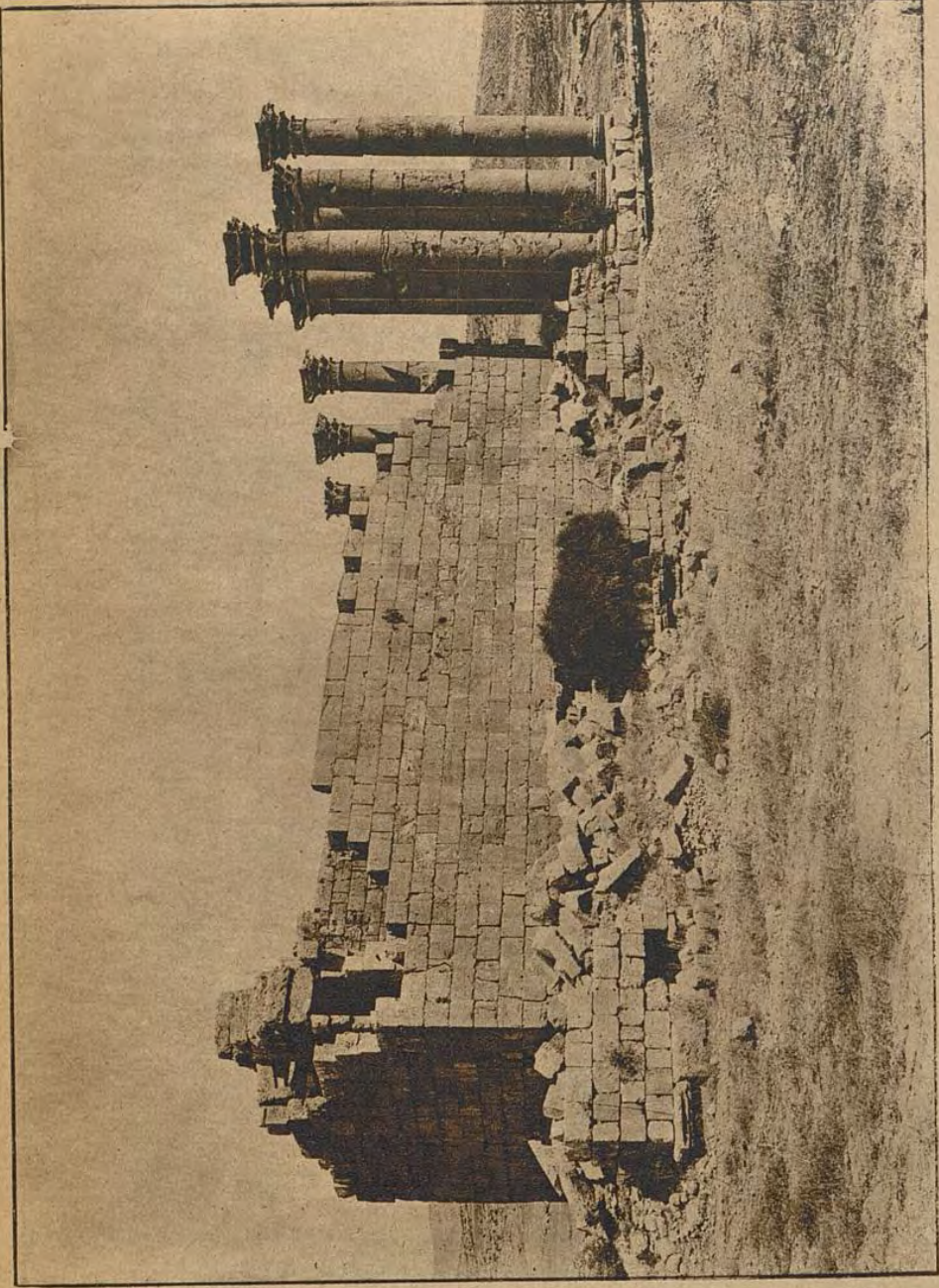


الجامع المعظم ببغداد

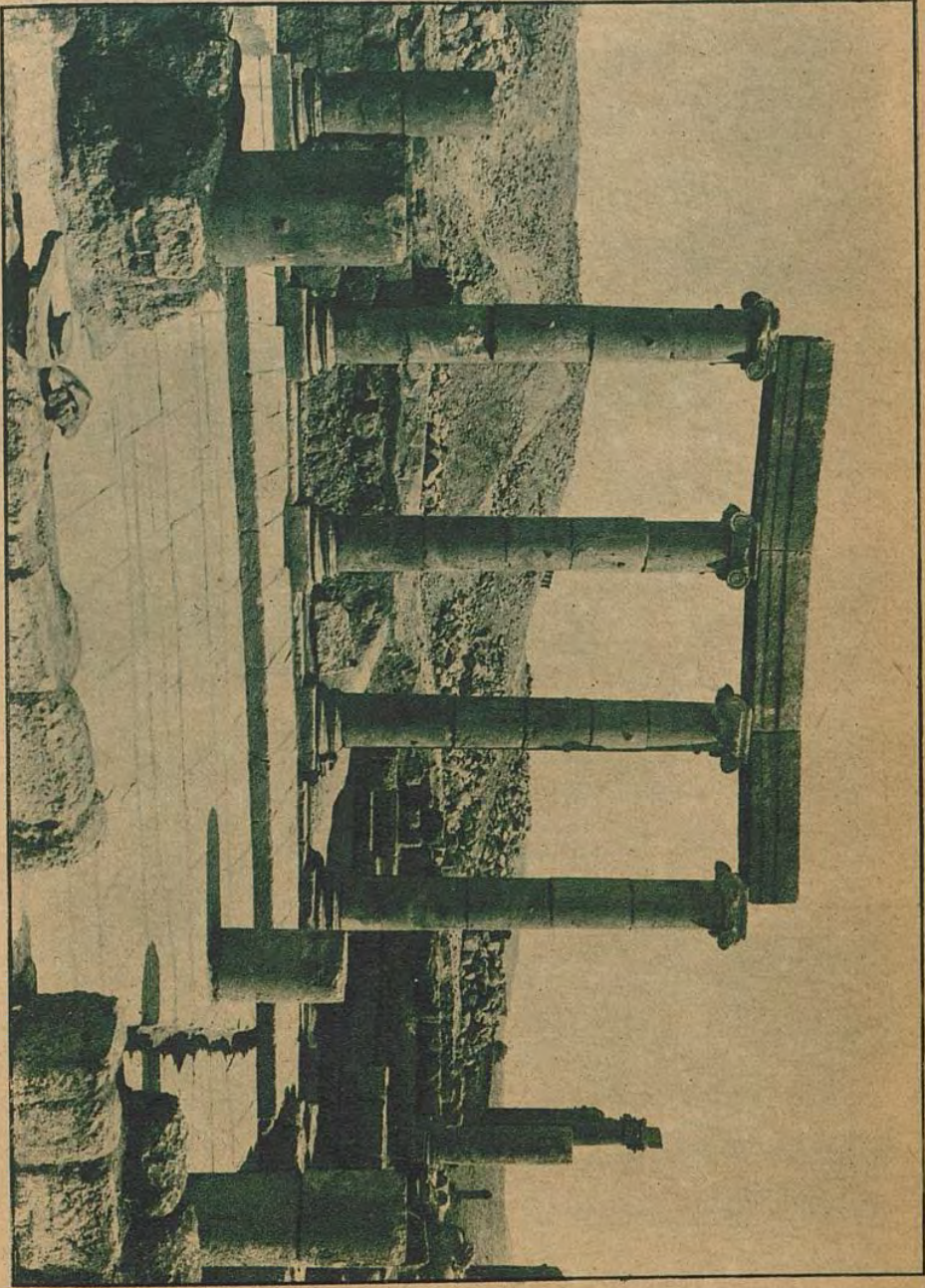


مدفن الست زيدة ببغداد





هيكل ارطاميس العظيم في جرش في شرق الاردن

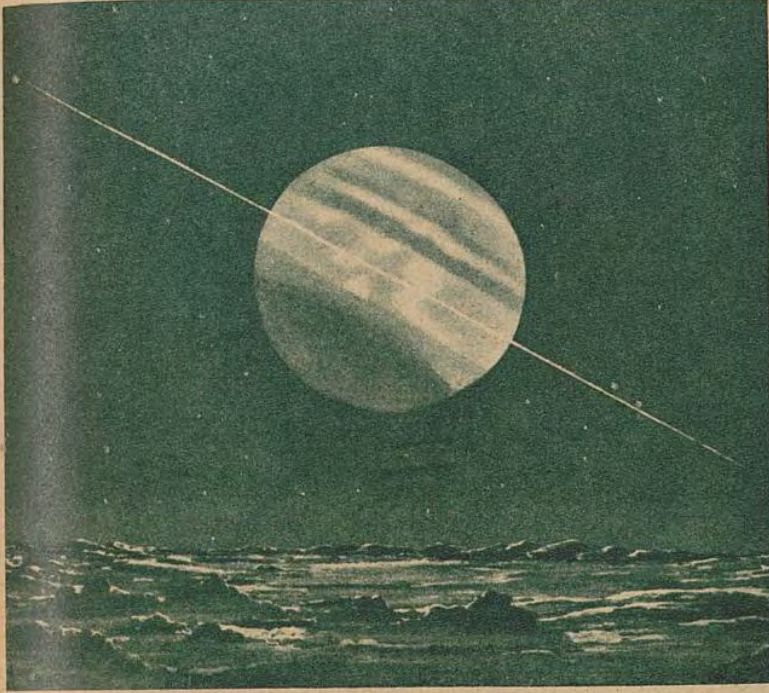


جانب من الأعمدة حول « الساحة العامة » في جرش بشرق الاردن

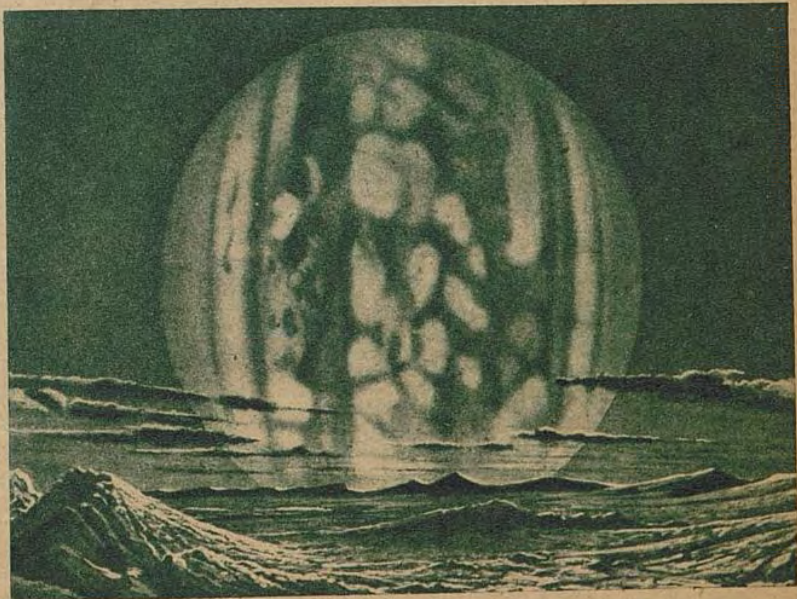


حلقات زحل کا تشاہد من مقیم علی سطح السیار

(تصویر رودو)



جمال زحل
وحلقاته تبدو هنا
خطاً دقيقاً لرؤيتها
من الجانب
(تصوير رودو)



المشتري
كما يشاهد من اقرب
أقماره اليه
(تصوير رودو)



الرائد الاميركي الاميرال ريتشارد براد

Rear-Admiral Richard E. Byrd

(انظر مقالة روح الرواد صفحة ٣٣٠)